أديان العالم

حبيب سعيد

صدر عن دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة
(S.P.C.K.)
٣٦ شارع الجلاء ـ بولاق ـ القاهرة
تليفون ٩٧١٦٥٥

محتويات الكتاب

صفحة

مصادر هذا الكتاب

الكتاب المقدس

القرآن الكريم

مجلدات مجلة « الشرق والغرب »

رسالة التوحيد ـ للاستاذ الشيخ محمد عبده

زورق الشمس ـ ديانة المصريين القدماء

مقارنة الأديان (الإسلام) ـ دكتور أحمد شلبي

History of Religions — E. O. James
Man's Religions—John B. Noss
The Faith of Other Men — Wilfred C. Smith
The Philosophy of Good Life — Charles Gore
Encounter of the Faiths — George W. Carpenter
Free Will & Predestination — W. M. Watt
Religions of the World — Carl Clement

هذا الكتاب

علم القانون المقارن من العلوم التى لا غنى عنها لرجل القانون ، لتكوين عقليته القانونية . وعلم الدين المقارن من العلوم المرعية الجانب فى كليات الدين لانارة أذهان الطلاب والباحثين ، لتفهم وجهات النظر المختلفة ، وتقوية روح النصفة والتسامح تلقاء آراء الآخرين وعقائدهم. ومنذ سنوات أصدرت كتاباً مختصراً عنوانه « أديان العالم الكبرى » لم يعالج إلا بعض الأديان التى يعتنقها البشر فى إيجاز مفرط اقتضته الظروف يومئذ . وقد تلقاه القراء الكرام لقاء كريماً ونفدت طبعته مرتين فى زمن وجيز. وقد أحسست ـ كما أحس كثيرون غيرى ـ أن الحاجة ماسّة الآن إلى كتاب شامل يجمع بين دفتيه أديان العالم كلها: البدائية ، والقومية ، وأديان الهند ، والشرق الأقصى ، والشرق الأوسط . ولم يكن بد فى مثل هذه البحوث التى جمعها كتاب واحد ، من أن التزم جانب الايجاز على قدر الإمكان ، خشية الضياع فى متاهات العقائد والممارسات التى تفتقت عنها أذهان البشر ، وتعلّقت بها أرواحهم على مسار التاريخ .

ومن دواعى الأسف أن كثيرين من كتّابنا الذين يتعرضون لبحث أديان الآخرين ، يجنحون إلى النقد والتجريح ، وإلى الخوض فى موضوعات ليسوا هم من الثقات فيها ، وأحياناً يميل بهم الغرض ، بل التعصب للعقيدة ، إلى تمويه الحقائق وتضليل الأفكار ، وشرح المعانى والألفاظ شرحاً بعيداً عن جادة الصواب .

وفى هذا الكتاب آليت على نفسى أن أتجنب كل نقد أو تجريح ، وأن أصور الأديان على النهج العلمى ، لا كما يؤمن بها الكافة والبسطاء ، بل كما يؤمن بها الخاصة من المثقفين . وذلك لأن بين جماهير الكافة فى كل نظام من النظم الدينية لا نجد إلا قليلا مما نقدر على إخراجه من دائرة الوثنية الوضيعة ، والآداب الرخيصة ، والتخوف من الأرواح الشريرة . ولم أراع اسوأ ما فى عقائد الآخرين

بل أفضل ما بها ، يقيناً منى بأن فى كل دين من دلائل المثـل العليا ، ما تستطيع النفس أن تنهض به للوصول إلى الأخلاق الـكريمة .

وفى كثير من المواقف استندت إلى مقتبسات من أقوال العلماء والمفكرين ورجال الشرع من أصحاب الأديان المختلفة، دون أى تعليق أو تعقيب من عندى ، وتركت لحصافة القارىء الـكريم التمييز بين الحق والباطل، والتفكير الذاتى فى هذه البحوث .

وكمسيحى اؤمن يقيناً وفى حماس ، أن دين المسيح يشبع حاجات الإنسانية ويستجيب إلى صرخاتها الصامتة . وأن المسيحية لا تنكر ولا تبطل « كل ما هو حق وجميل وجليل » فى أى دين من أديان العالم ، وأن ليس شىء من الحق فى أى دين آخر لا نجده فى المسيحية ، بل أن الرؤى التى رآها البشر فى مختلف العصوربصور باهتة دا كنة ، والتى تاقت إليها الإنسانيةمدى الأجيال ، نراها متلمعة فى المسيحية ، ناصعة البيان ، قوية الوضوح ، ذلك لأن الدين ليس كفاح الإنسان فى السعى نحو الله وحسب ، إنما هو أيضاً إعلان الله ذاته للإنسان .

والحق ، كانت رحلة فـكرية ممتعة ، تلك التى قمت بها متتبعاً عقائد البشر فى الأديان الفطرية الساذجة، إلى أرقى الأوضاع والعقائد التى أشرقت بضيائها على العقول والقلوب .

وها أنا أقدّم هذه الرحلة إلى قرائى الـكرام، راجياً أن يجدوا فيها متعة ودراسة ونفعاً ، داعياً أن يـكون هذا الجهد الذى بذلت مرضياً عند الله، ومقبولا ومثمراً عند القراء الـكرام .

المؤلف

الدّين فى طفولته

إن الدين فى أى وضع من أوضاعه قديم قِدم الجنس البشرى ذاته . وكل محاولة لتفهّم نشأة الدين فى العالم تقتضى حتماً التسليم بأن فى قلب الإنسان، وروحه وكيانه، نزعة روحية، ومطلباً يتعدى حاجات كيانه الجسمانى ومطالبه . على أننا فى مثل هذا البحث نواجه الصعاب التى تقترن عادة بالبحوث التى تحاول تقصّى أصول المؤسسات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية ، وذلك لقلة مالدينا من معرفة، وضآلة ما تحت أيدينا من أدلة. والحق، لسنا نعرف بالضبط أين ومتى و[illegible] نشأت الأوضاع الدينية . وكلُّ ما لدينا من هذا القبيل هو تلك المظاهر و[illegible]وضاع التى تجسمت فى أشكال بيّنة ظاهرة مثل قبور الموتى، والهياكل والمحاريب ، والنقوش والرسوم ، وبقايا الحضارات الغاربة ، التى أبقت عليها أحداث الزمن وعبث الناهبين . هذه وحدها هى التى تقدّم لنا بصيصاً من نور عن نشأة الأديان قبل كتابة الأسفار المقدسة ومدونات الأقدمين .

وقد بُذلت فى السنوات المتأخرة جهود لتدعيم هذه الأدلة الأثرية من بقايا التاريخ ،بالنظائر الباقية لدى الجماعات البدائية القديمة التى مازالت تعيش على هامش الحضارة فى أوستراليا وأفريقية والهند وأندونيسيا وجزر المحيط ، تحت ظروف

وفى أوضاع تماثل حياة الإنسان البشرى فى العصر الحجرى . وهنا لا بدّ من الحرص فى الاجتهاد والاستنتاج ، لأن تلك الجماعات البدائية الباقية حتى اليوم يظلّلها تاريخ طويل معقد ، ولا يجدى أن نستند إلى أوضاع حياتها الحالية فى تعزيز نشأة الأديان ، وذلك لأن الأوضاع الحالية تطورت عن أوضاع أخرى فى أزمنة سحيقة .

السحر والدين :

وقد زعم بعض الباحثين والمفكرين أن « عصر السحر » سبق « عصر الدين »، وقالوا إنه فى زمن ما من الأزمان، ظن الإنسان أنه مستطيع التسلط على قوى الطبيعة بالسحر ، والشعوذة ، والتعاويذ والتمائم ، فلما أعيته الحيلة وأحس بالعجز والفشل ، لجأ إلى قوى أخرى تتفوق عليه، مثل الأرواح ، والآلهة والأسلاف، لتفعل ما عجزت دونه الأساليب السحرية . ويفترض هذا الزعم أن « عصر السحر » تطور إلى « عصر الدين » ، وأخلى الساحر مكانه بتعاويذه وتمائمه ، ليحلّ محله الكاهن بذبائحه وصلواته .

على أن مثل هذا الزعم لا تسعفه الأدلة التاريخية ، وذلك لأن المظهرين ، السحر والدين، يعيشان جنباً إلى جنب فى ظل الجماعات ، قديمها وحديثها أيضاً ، وهما متلاحمان معاً فى نسيج الحياة بحيث لا يمكن أن يكون أحدهما سابقاً على الآخر أو ناجماً عنه . والتمييز بين السحر والدين لا يقوم على تسلسل تاريخى ، إنما الفارق بينهما هو فى طبيعة ووظيفة النُظم والأفكار والممارسات فى كل منهما . فالسحر يقوم على أقوال وتصرفات يأتيها من يملكون المعرفة والقدرة على إخضاع القوى الفائقة للطبيعة ، لتحقيق أهداف معينة ، أما الدين فهو يفترض وجود كائنات روحية خارجة عن الإنسان ، ومتسلطة على شئون الحياة والكون . ولئن اختلف الإثنان فى الأساليب

والأهداف نظرياً ، فإنهما فى الواقع ممتزجان معاً عملياً فى حياة الجماعات البدائية، والمتطورة أيضاً .

وحين يلجأ الطبيب البدائى ـ أو الساحر ـ إلى الرقى والتعاويذ لشفاء مريضه ، أو إيذاء غريمه ، أو إثارة الحب أو الكراهية ، أو إنزال المطر ، أو إخصاب الأرض ، أو ضمان الصيد والقنص ، أو وفرة الحصاد . . . فإننا نحسبه فى هذه الأحوال ساحراً ، ولكنه من الناحية الأخرى قد يكون مديناً إلى الأرواح أو الآلهة والتوافق معها لامتلاك هذه القوة السحرية ـ على الأقل من وجهة نظره هو . من ثمّ لا يمكن الفصل بداءة بين السحر والدين فصلاً جازماً قائماً على تسلسل تاريخى .

عبادة الأسلاف:

وقد زعم بعضهم أن نشأة الدين تقترن بعبادة الأسلاف ، مستندين إلى نظرية ابتكرها كاتب اغريقى قديم ـ هو ايهوميروس (٣٢٠ — ٢٦٠ ق.م.) الذى حاول أن يثبت أن آلهة اليونان كلها — مثل زيوس وغيره من أترابه الذين عاشوا فوق جبال الأوليمب — كانوا فى الأصل حكاماً ومصلحين ظفروا بولاء رعاياهم ، فارتفعوا بعد موتهم إلى مرتبة الآلهة الخالدين فى السماء ، وكان شأنهم شأن الشمس والقمر والنجوم التى قفزت إلى مرتبة الآلهـــة .

وكأنما أصل فكرة الألوهية وتطورها ، إنما كانت نتيجة عبادة الموتى البارزين وتألههم. وإذ كانوا موضع التوقير والخشية فى حياتهم على الأرض،فان أرواحهم قد أكرمت بعد موتهم،وقدمت لها الترضيات،وقامت حولهم ممارسات وأوضاع من العبادة .

الغذاء ورعاية الطبيعة :

إن أعمق انفعالات الإنسان فى المجتمعات البدائية وأشد حاجاته ومطالبه،

وأكثر ما يثير آماله ومخاوفه — كل هذه تتركز فى حياة الجماعة ، لا فى حياة الفرد . وفى الظروف البدائية الخطرة التى عاش تحت ظلالها النوع الانسانى مدى العصور ، لم يكن بدٌ من حياة جماعية . ولكى يتمكن أفراد الجماعات المتعددة من التعايش معا فى علاقات اجتماعية منظمة ، وتكييف أنفسهم وفق البيئة الطبيعية والروحية والاقتصادية ، لم يكن بدٌ من الدين كقوة للوحدة والتماسك . ويأتى بعد هذا التماسك الحرص على الحياة وصيانتها ، وهى المطلب الجوهرى الأول للجنس البشرى . إن الحياة والغذاء وانجاب الأطفال ، هذه كانت حاجات الإنسان الأولية فى الماضى . وستبقى كذلك، ما بقى الإنسان على وجه هذه الأرض . وقد تُضاف إلى هذه الحاجات الأولية أشياء أخرى للترفيه والتجميل ، ولكن ما لم تتوافر تلك الأولويات ، فان الحياة الإنسانية يُقضَى عليها بالفناء . إذاً تكون صيانة الحياة، وتوفير الغذاء ، وإنجاب الأطفال ، هى المقومات الأساسية التى تستوجب الرعاية من قوة أعلى . وهذه الرعاية العليا هى التى تمثل الخير العام للانسان، عليها يتوقف بقاء الإنسان ودوام الجنس البشرى. وهنا يظهر الدين ليضمن للانسان هذه الرعاية من سلطة أعلى منه . وتبدو هذه القوى الخفية — قوة التغذية والتناسل — من المقدسات ، ويقف الإنسان منها موقف الانفعال العميق والاهتمام الشديد — ويعزوها إلى قوة خارقة فوق إدراكه المحدود وطاقاته المألوفة . وهذه القوة هى الطبيعة التى عبدها الإنسان فى شتى الأوضاع والأشكال . وقبل أن يبتكر الإنسان أساليب استنبات تربة الأرض، وتربية الماشية واستخدامها ، ويوم كان يعتمد على الصيد والقنص وجذور النباتات البرية الصالحة للاكل — كانت تلك الحيوانات والنباتات مصدر الرعاية وسرّ البقاء . ولذلك حاول انشاء علاقات مقدسة بينه وبينها ، وتثبت الحفريات القديمة وجود هذه العلاقات .

خلاصة :

يتبين من الأدلة الأركيولوجية والأنتروبولوجية (أى علم الآثار وعلم الأجناس البشرية) أن الإنسان البدائى قد بهرته أسرار الموت والحياة ، وبهرته القوى الخفية التى تهيء له الغذاء والرعاية وكل مقومات وجوده البشرى ، وبهرته القوى المتسلطة على الطبيعة . وإذ قد أعوزته المعرفة الكافية لإدراك الأطوار الطبيعية فى الكون ، والنواميس التى لم تدخل فى نطاق مشاهداته ، اضطر أن يبتكر شتى الوسائل لتوطيد علاقات ودية لاسترضاء القوى المسيطرة على هذه الظواهر الخفية التى أحاطت به . وهذا الإحساس هو الذى ولَّد لديه فكرة « عناية إلهية » من نوع ما ، أكبر من نفسه ، وتتحكم فى مصيره . كان هذا هو التفاعل الذى أحسَّ به الإنسان البدائى فى اختباره العناصر الخفية التى لم يقوَ على تأويلها والتنبؤ بها ، والتى أدخلت الرهبة والخشية إلى نفسه . . . . . لقد اضطر للافصاح عن هذا الاحساس عن طريق إقامة طقوس وممارسات لتوطيد علاقات المودة والتفاهم بينه وبين مصدر كل خير يُغدق عليه فى الحياة فى العالم المنظور وغير المنظور .

ولم يكن يهدف فى استرضاء هذه القوى الخفية والتوافق معها ، إلى مجرد ضمان أسباب العيش والبقاء ، والتسلح بالأمل والثقة فى رحلة الحياة ، وذلك لأن الإنسان البدائى ـ حتى فى أولى أنواعه ـ كان قد أخذ يهفو إلى حياة من وراء القبر ـ حياة أشبه بحياته التى عاشها على الأرض ، لأنه لم يكن يقدر أن يفكر إلى أبعد من هذا ـ حياة ستبقى فيها قائمة ، حاجته إلى الطعام والآلات الغشيمة التى استخدمها . وإذ قد هفت نفسه إلى هذه الحياة الأخرى بجسده الحالى ، لم يكن بدٌّ له من الاستعانة بالوسائل التى تضمن له هذا البقاء . وأقرب شاهد على ذلك ما أثبته لنا علم الآثار فى الحضارة المصرية القديمة .

وحتى إذا حسبنا أن هذه الفكرة ـ فكرة الحياة الأخرى ـ طرأت على الحضارة المصرية بعد أن بلغت مرحلة بعيدة فى التاريخ البشرى ، فاننا واجدون فى الكهوف القديمة لانسان ماقبل التاريخ ، هذه الفكرة عينها فى وضع غشيم . فالانسان القديم قد لاحظ فى عملية الصيد والقنص لتوفير غذائه أن دم الحيوان متى سال ، نجم عنه الاغماء ثم الموت . لذلك حسِب الدمَ السائل الجوهرى الذى قد يعيد الحياة إذا أعيد إلى الجثة .

وإنّا لواجدون الناس حتى اليوم فى بعض القبائل البدائية التى مازالت على الفطرة فى أطراف استراليا وأميركا وجزر البحر وغيرها، يجرحون أنفسهم ويسيلون دماءهم على جثة الميت أثناء مراسم الجنازة . وقد ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فزعموا أن أية مادة مخضبة باللون الأحمر قد يكون لها فعل الدم . وهذه الفكرة تعلل العادة التى كانت شائعة فى العصر الحجرى من حيث دفن الميت فى ثياب حمراء وفى تربة مصبوغة باللون الأحمر ، وذلك لكى تعود الحياة إلى الميت يوما ما .

بهذه الأساليب والممارسات بدأت فكرة الدين ـ على ما نعتقد . والحق أن علوم الآثار لاتقدم لنا إلاّ المواد الغشيمة الأولية ، على أنه من هذه البدايات المبكرة قد تطورت النماذج الكثيرة للاساطير والطقوس والعبادة وللممارسات التى يتألف منهما تاريخ الدين ـ يوم انتقل الانسان البدائى فى عصر كان يجمع فيه طعامه جاهزاً من الغابات والحراج ، إلى عصر أخذ فيه ينتج طعامه ويصنعه لنفسه .

الأديان البدائية

خضع الإنسان البدائى لمشاعره وإحساساته التى تولدت فيه من اتصاله بظواهر العالم الخارجى ، ومن الاختبارات التى استمدها من أسلافه فى الحياة القَبلية ، والتقاليد والعقائد التى تواترت جيلا بعد جيل ، وهو يقبل هذه كلها قضايا مسلَّمة لا يجادلها ولا يناقش فيها ، مهما يكن فيها من الخيال والبعد عن حقائق العلم .

وقد امتازت الأديان الفطرية البدائية بظواهر شتى نوجزها فيما يلى :

١ — التسليم بقدسية الأشياء أو الأشخاص

ومَن يلقِ نظرة على أية جماعة بدائية ، يشعر لأول وهلة بقدسية المكان ، أو الشخص ، أو الشىء ، أو الطقس ، أو الحادث — الذى يتخذه موضوعاً لعبادته . وينظر البدائى إلى هذه الأشياء نظرة إكبار وتقدير تختلف تماماً عن نظرته إلى مجذافه أو رمحه أو أفراد أسرته . وهذه القدسية التى ترهبه وتأسره مستمدة فى نظره من قوة فائقة للطبيعة ، فيها الحياة أو الموت ، فيها الخير أو الشر . وكل شىء مقدس يحمل فى ثناياه نفعاً أو ضرراً حسب الحالة ، ولا يمسه إلاَّ الإخصائيون كالزعماء أو الكهنة أو رؤساء القبائل ، والاقتراب منها

مشحون دائماً بالرهبة والخشية ، والتوقير والاحترام ، أشبه بمخافة الرب ، فى الأديان الراقية .

٢ — مظاهر القلق فى اجراء الطقوس

وفى مواجهة الأشياء المقدسة يتوالد بعض القلق ، ويتساءل البدائى دائماً : هل يمكن إثارة هذه القوة المقدسة للعمل ؟ وهل يكون عملها هذا صالحاً ؟ ومتى بدت بوادر هذا القلق ، خُلقت حاجة ملحة تدعو إلى التصرف والتحكم بطرق وأساليب لإنتاج الخير ، لا الشرّ . هذا هو أساس الطقوس الدينية فى الأديان البدائية .

٣ — امتزاج الدين بالسحر

أشرنا فيما سبق إلى بعض الآراء عن علاقة الدين بالسحر. وقد بذل العلماء والباحثون جهوداً مضنية للتمييز بين الاثنين وتحديد معالم كل منهما ، فلم يكن التوفيق حليفهم فى هذا المضمار ، لأن السحر مقترن بالدين حتى فى أرق أوضاعه . وقد ذهب بعضهم إلى أن هناك فارقاً زمنياً وشكلياً بين الدين وبين السحر . وزعموا أن السحر هو المحاولة الأولى للانسان لإخضاع قوى الطبيعة بإجراءات وطقوس معينة تهدف إلى التسلط على هذه القوى . وتلك كانت طقوساً خرافية طبعاً، ولكن الإنسان وثق بها واطمأن إليها، وفى بعض المواقف أحسّ أن بعض هذه القوى فى غير متناول السحر ، فعكف إلى مراوضتها وتملقها وإقناعها بالأدعية والصلوات آملاً أن تستجيب لدعائه . فكأن الدين قد ظهر بعد أن فشل السحر . وعلى الرغم مما فى هذا التميز من قدر ، فإن جمهرة الباحثين فى الجماعات الدينية والسلالات البشرية قد نبذوه ، وذلك لأنه لا يمكن تحديد تسلسل زمنى بين السحر وبين الدين ، ولأن الطقوس السحرية

متشابكة معاً فى الأديان البدائية ، بل حتى فى الأديان الراقية ، بحيث لا يمكن الفصل بينها .

٤ ـ الاعتقاد بان كل الاشياء لها روح (Animism)

إن بين القبائل البدائية ـ حتى فى هذا العصر ـ تسليما عاماً بأن لكل الأشباح الثابتة ، والخلائق الحيّة المتحركة ـ أنفساً أو أرواحاً ـ وأن لكل مخلوق بشرى نفساً أو أنفساً تغادر الجسد ، مؤقتاً أثناء الأحلام ، وتغادره نهائياً عند الموت. وهم يعتقدون أن لهذه الأنفس والأرواح شكلا وفكراً وإحساساً وإرادة ، وهى مثل الكائنات الحيَّة ، تفكر وتعقل فى اعتدال مزاجها ، وتعتدى وتتشاحن حين تغضب أو يتعكر مزاجها ، وهى تحب المداهنة والمداراة ، والإخلاص لها والولاء فى خدمتها ، ويتوجب على الإنسان أن يتحلّى باليقظة والحذر فى مراضاتها والتوافق معها .

والفكرة العامة لدى الشعوب البدائية هى أن الطبيعة كلها تتملكها وتسيطر عليها ، وتتزاحم فيها ، كائنات روحية ، يقيم لها البدائى وزناً كبيراً ، لأنها مشحونة بالقوة التى تؤثر على مصير الإنسان ومصالحه . .

٥ ـ عبادة الأرواح وتوقيرها

قيل ـ وبحق ـ إن الإنسان عَبدَ كل شىء فكَّر فيه تحت الأرض ، وكل شىء بين الأرض والسماء ، وكل شىء فى السموات . وتارة يُعبد الشىء كأن به حياة وفاعلية ، وتارة أخرى يعبد ، لا لذاته ، ولكن بسبب الروح أو النفس الحالّة فيه . وتارة لا يُعبد الشىء إطلاقاً ، بل يكون فقط رمزاً للحقيقة التى يمثلها هذا الشىء المنظور الملموس . ومن الميسور أن تجرى هذه الأوضاع الثلاثة للعبادة فى وقت واحد ، كما هو الحال فى عبادة الأصنام فى بلاد

الهند ، فالعابدون الجهلاء يحسبون الصنم ذاته حياً ، وآخرون يزعمون أن به روحاً ، ولكن المثقفين أو المتفلسفين يحسبونه رمزاً لحقيقة تجثم وراءه .

ويلي العبادة التي تقترن عادة بالصلاة والمديح ـ التوقير والرهبة . وهذه تشمل احترام القوة المقدسة والاعتراف بوجودها . ويصعب أحياناً معرفة أين ينتهي التوقير ، وأين تبدأ العبادة .

٦ ـ عبادة الأحجار والأشجار والحيوانات

وقد شاع بين القبائل البدائية توقير **الأحجار** من كافة الأحجام ـ من الحصى الدقيق إلى الصخور الكبيرة السائبة . وقد تكون مفردة أو مجتمعة في أكداس . وكثيراً ما تكون هذه الأحجار غريبة في شكلها وتكوينها ، وأحياناً تصيغها اليد البشرية بحذق وفن ، كما هو الحال في الأدوات الصوانية والأسلحة . وأحياناً تنال الأحجار الساقطة من الجو توقيراً ، ومن الشواهد القديمة على ذلك حجر الكعبة في مكة الذي يقبّله كل حاج مسلم تبركاً به . وتوقير الأحجار ذات الأشكال ، والأدوات والآلات ، لم يكن ذائعاً في أزمنة ما قبل التاريخ فقط ، بل قد نجده اليوم في افريقية والهند واليابان وهنود أمريكا الشمالية . وإنا لواجدون اليوم بين القبائل البدائية في جزر الفيلبين عقيدة سائدة تزعم أن أسلحة زعيم القبيلة تختزن قوة تعمل من تلقاء ذاتها. وقد رُوى عن أحد زعمائهم : « لم يكن إنساناً عادياً ... فإن معاصريه قد أصرُّوا على أن فأسه ورمحه يقتلان تلقائياً بمجرد صدور الأمر إليهما» . وليست هذه العقيدة نادرة ، فالفأس ما فتئت مكرمة موقرة في المناطق الريفية في ألمانيا واسكندناوة، وكانت مألوفة في العالم اليوناني الروماني .

وتوقير **النباتات والأشجار** فكرة ذائعة عامة بين الشعوب البدائية، بل في الثقافات المتقدمة أيضاً. وانا لنرى بقايا هذه الظاهرة في استخدام شجرة الميلاد. ويقال ان المحطبين في بعض مناطق أوربا الجبلية يهمهمون حتى اليوم بدعاء يلتمسون

فيه المغفرة قبل قطع شجرة كبيرة . والأشجار والنباتات لاتلهم التوقير فقط ، ولـكنها تمثل قوة إنتاجية هائلة لاينضب معينها . وتأليه الأشجار والنباتات والحبوب إنمـــا هو تقدير طبيعى لقوى الطبيعة الغامضة التى تمنح النماء والاكثار . . فالأشجار تعاون المحصولات فى النماء ، وتـكثر نتاج قطعان الماشية ، وتخصب النساء ، حتى ليقال ان النساء العواقر يلدن اطفالامتى تزوجن هذه الأشجار ! !

وتوقير **الحيوانات** من للظاهر الشائعة فى الأديان القَبلية . وهذا إحساس طبيعى ناجم عن القرابة بين الإنسان والحيوان . وقد ساقت هذه القرابة شعوباً كثيرة إلى الاعتقاد بأن نفس الإنسان عندالموت — أو حتى أثناء الحياة — قد تجوز فى غير عناء إلى جسد حيوان ، والعـكس.وما أكثر الاساطيروالقصص الخيالية التى رُويت عن حيوانات ظهرت فى أشـكال بشرية . والأسد فى أفريقية ، والنمر فى للملايو ، والنسر والدب وكلب البحر فى اميركا الشمالية ، والعجل فى اليونان ومصر ، والبقرة فى الهند وأفريقية واسكندناوه ،والجاموسة فى جنوب الهند ، والـكنغارو فى اوستراليا — هذه كلها من الحيوانات التى تخلع عليها تلك الاقوام صفات من البطش ، أو القوة ، أو الرقة ، مما يجعلها موضع التوقير والاحترام ، والعبادة احياناً .

وفى الاطوار المتأخرة للاديان البدائية اتجهت الشعوب إلى توقير **عناصر الطبيعة** مثل الأرض ، والهواء ، والنار ، والماء ، والشمس، والقمر، والنجوم، والغيوم، والرياح ، والأنهار ، والبحيرات الخ .

٧ ـ الاعتراف بآلهة عليا

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، هل كان لتلك الشعوب البدائية علاقات بإله

متعال ... كائن سام. وانا لنرى فى كثير من الجماعات البدائية اعترافاً بوجود إله فوق الجلد ، خلق كل الأشياء — الإنسان والأرض والبحر والجو ، وهو يرقب من مسافة بعيدة كل شئون البشر . ولئن يكن يرى احياناً مالا يقبله من هذه التصرفات ، فإنه لا يتدخل فى شئون الناس . وقد كان مثل هذا الاعتقاد واضحا ظاهراً بين القبائل البدائية مثل الاقزام فى أفريقية ، وأهل فيجى فى اميركا الجنوبية ، وأهل الغابات فى استراليا . ومن عقائد تلك القبائل أن الإله المتعالى عاش يوما ما على الأرض ، وعلّم الناس الشرائع الاجتماعية والادبية، ثم تقاعد فى عالم الجو، حيث يرقب بعينه من بعيد تصرفات الناس ، واحياناً يوقع بهم صارم العقاب على انحرافهم . فالبرق سلاحه ، والرعد زئيره ، ولكنه لا يُرى ابداً .

ولعلّ مرد هذا الاعتقاد أن الناس راحوا يتساءلون — حتى وهم على الفطرة — من اين جاءتنا هذه الطقوس ؟ مَن الذى بدأ كل هذه الأشياء ؟ من هو الأب الأول ؟ وإذ قد أعيتهم الحيلة فى الحصول على أجوبة لهذه الأسئلة من القوى المحلية التى عاشوا معها وعاشت معهم، اضطروا إلى أن يرتفعوا إلى العلى، إلى قوة خفية غير منظورة، إلى كائن سام . وهنا بذرة الوحدانية التى تطورت فى تاريخ الاديان . على أن هذا الكائن السامى الذى آمنوا به لم يدخل إلى حياتهم ، وظل بعيداً مترفعاً ، فكانت فكرتهم مطارحة فلسفية بدائية أكثر منها حقيقة دينية .

٨ ـ ألوان السحر

يمكن وصف السحر عامة على أنه محاولة ـ بترداد بعض الألفاظ المعينة ، أو القيام بأعمال معينة ، أو كليهما معا ـ للتسلط على قوى العالم لاخضاعها لإرادة الإنسان . ولا يمكن فصل السحر عن الدين فصلا تاماً كما سبق القول.

وللسحر أنواع وأوضاع وأوصاف مختلفة تبعاً لاختلاف البيئات وأساليب العمل . فهناك مثلا ما يسمونه السحر بطريق « التقليد » والمحاكاة . ومثال ذلك ما نشهده فى بعض الجماعات البدائية الزراعية ، إذ يعتقدون مثلا أنه إذا ذهب الزارع إلى حقله وقت تفتح براعم الحبوب ، وقام بأداء بعض الالفاظ والقفزات ، فإن النبات ينمو إلى علو قفزته . وإذا ذهب أحدهم مثلا إلى تل منحدر ودحرج الحجارة من فوق المنحدر وهو يدق الطبول ، ويزعق زعقات عالية ، فإنه قد يُحدث بذلك عاصفة رعدية تهطل الامطار .

وهناك ما يسمى **بالسحر الأسود** . ومثال ذلك أن يصنع أحدهم تمثالا لعدو من الشمع أو اية مادة أخرى ، ويطعن هذا التمثال بالدبابيس ، فإن هـذا العدو يموت. وبين البدائيين أناس يزعمون أن لهم قدرة على إخراج الأرواح الشريرة من المصابين بها ، أو حتى إدخال الأرواح الشريرة إلى أجسام الأحياء . وأمثال هؤلاء هم الأطباء السحرة، وادعياء الطب ، والمشعوذون . وطريقة الساحر أو المشعوذ أن يقع فى حالة هيـــام جنونية هستيرية ليرتفع إلى مستوى عالم الأرواح ، وهناك يتسلط على أرواح معينة — وخاصة أرواح المرض والموت لـكى يطردها ممن تحـــل فى أجسادهم من البشر ، أو يغريها على الدخول إلى أجساد الأحياء .

٩ ـ العرافة أو علم الغيب

فى الأديان البدائية علاقة وثيقة بين السحر وبين العرافة ، أى بين التوافق مع القوى الروحية ، وإدراك ماهو غامض وخفىّ فى الحاضر والمستقبل . ويُظن أن هذا الإدراك يتم بواسطة طقوس معينة فى العرافة والرجم بالغيب. فالعرّاف قد يستخدم قواه السحرية الـكامنة فيه ، أو قد يوطد علاقات بينه وبين عالم

الأرواح ، وخاصة أرواح الموتى ، وبهذه الوسيلة يحصل على معلومات عن أشياء أو أشخاص أو حوادث فى الأرض ، أو فوق الأرض ، أو تحت الأرض. والمعتقد فى بعض الأديان البدائية أن العرّاف يكون على إتصال بروح أو نفس معينة « تُطلعه » على الخفايا والأسرار . وفى بعض المواقف يكون للعرافة مظهر دينى جلىّ يمليه إلهام علوى، إما عن طريق الأحلام أو الرؤى أو كلام الآلهة. وهذه مظاهر آمن بها الأغريق ولها قصَص فى دينهم القديم .

ومن مظاهر العرافة قراءة الطوالع فى طيران الطير ، أو قصف الرعد ، أو ظهور مذنبات فى الجو ، أو الكسوف والخسوف ، أو الحوادث المفاجئة، أو الموت المفاجىء ، أو غير ذلك من الظواهر .

ويبدو أن العرافة ضرورة من مقتضيات الحياة البدائية، بحيث لا يخلو منها أى دين بدائى .

١٠ ـ الأحرام

إن فرض الاحرام طريقة ذائعة عامة فى الأديان البدائية ، فشخص زعيم القبيلة محرَّم دائماً مادام يتمتع بالقوة والنشاط والحيوية والزعامة ، وأما متى شاخ ، فإن هذه الفضيلة تزول عنه ، وفى أحيان كثيرة يقتل . والمظنون أن الزعيم مشحون بقوة عظيمة بحيث يتعرض للخطر الجسيم كلٌّ من يلمسه ، أو ثيابه ، أو أدوات طعامه ، أو حتى البُسط والسجاجيد التى يمشى عليها . ولزام على كل من تعدىّ هذا الحرم أن يتخذ اجراءات معينة لإزالة الآثار الخطرة التى قد يتعرض لها المتعدى . وعند المثول بين يدى الزعيم ينبغى التحوط فى حذر دقيق لمراعاة الحَرْم .

وقد روى القصَص الدينى فى الأديان البدائية حوادث عن رجال ونساء ماتوا فزعاً وذعراً بعد أن علموا أنهم أكلوا سهواً من بقايا طعام الزعيم !

وهناك أحرام على أشخاص آخرين ، فالرهبة التى يحسّ بها الناس فى حضرة الملوك والكهنة ،قد تنسحب إلى أشخاص آخرين فى ظروف معينة .ففى رقاع كثيرة من العالم يُحسب المحاربون مثلا محرّمين قبل المعركة وبعدها،ومثلهم صيادو الحيوانات وصيادو الأسماك.ويوضع حرْم عادة على كل من اتصل بالميت. وقد يمتد هذا الحرم حتى إلى النادبين المأجورين. كذلك لا يجوز لمس الذين يقتلون الناس إلا بعد إجراء طقوس معينة للتطهير من عدوى الموت وغضب الروح الراحلة.

وقليلون بين القبائل البدائية هم الذين يخلون من الحرم فى طور ما من أطوار حياتهم ، فالطفل المولود حديثاً ،والمرأة عند الولادة ، والمرأة التى ترملت حديثاً ، والمشتركون فى حفلات دينية — كل هؤلاء وغيرهم ، هنا أو هناك ، يلحقهم الحرم الموقت .

وليس هذا كلّ ما فى الأمر، فهناك أعمال، وأشياء، وألفاظ مقدسة، وأماكن يشملها الحرم . فالأسلحة الحادة ، والحديد ، والدم ، والرأس والشعر (لأن به روحاً)والشعر المقصوص، والأظافر المقصوصة (لأن بها بعض الروح حتى بعد فصلها عن الجسد) ، وأطعمة معينة ، والعقد والخـــواتم ، وغيرها كثير قد يشملها الحرم .

١١ ــ طقوس التطهير

أشرنا إلى طقوس التطهير فى حديثنا عن الأحرام ، وذلك لأن الأحرام فى نظر البدائيين كانت مصدر خطر عند الاعتداء على حرمتها ، لما فى ذلك من إثارة القوى المعتدى عليها، وحملها على الإنتقام وتوقيع الجزاء، وما قد ينشأ فى نفس المعتدى من إحساس بالذنب وكره للدنس. وهـذا التدنيس قد يعرّض الجماعة كلها للخطر والأذى ، فما لم يُطهر المعتدى على الحرم ويغسل دنسه ، فإنه يُنبذ من المجتمع ، بل قد يحكم عليه بالموت .

على أن مصدر التلويث والتدنيس ليس مقتصراً على الاعتداء على الاحرام، فهناك الولادة ، والموت ، وسفك الدماء ، والدم ذاته ، والاختلاط بالأشخاص المحرومين — كل هذه مصادر للتلويث والتدنيس . بل قد تكون هناك أحوال خارجة عن الطبيعة ، مثل وجود روح نجس يسكن فى أسرة أو قرية ، مما يتطلب إجراء طقوس معينة للتطهير، وطرد هذا الروح النجس من مكمنه .

ويتم تطهير الدنس الطقسى بطرق مختلفة ، منها الاصوام ، وقصّ الشعر والأظافر ، والزحف وسط أبخرة من الدخان الطقسى ، أو المرور والقفز فوق النيران ، أو الغسل بالماء أو الدم ، أو إحداث جروح فى الجسم ليخرج منها الروح الشرير مع الدم . وإن سكن روح نجس فى جماعة ، أو دخل رجلا أو امرأة ، فإنه يمكن طرده بادخال روح أقوى منه ، ويكون دخوله فى هذه الحالة مطهراً .

فى الواقع أن وسائل التطهير لاتقع تحت حصر .

١٢ — الذبائح والتقدمات

إن الفكرة البدائية فى الذبائح والتقدمات تعنى تقديم أو تدمير (إحراق) شىء ما من الجمادات أو النباتات أو الحيوانات أو الانسان لحمل الروح الشرير على مغادرة الجسد إلى عالم الأرواح أو الآلهة . وأبسط أنواع الذبائح هى التقدمات ذات القيمة لمراضاة الروح الشرير . وقد شملت هذه التقدمات — فى أولى أطوارها — الذبائح الحيوانية ، بل البشرية أيضاً . وذلك لأن الأرواح الشريرة — مثلها مثل الانسان تفتقر إلى الحيوية والقوة الكامنتين فى الحياة وفى الدم .

وحين يكتشف اليوم الرجل البدائى أن قوى معينة تسلك مسلكاً غير عادى ، أو تحيد عن الطريق المألوف — كما يحدث فى حالات المرض أو القحط

أو المصائب الأخرى، يعمد إلى تقديم الذبائح للقوى التي يعجز عن قهرها . وهذه ذبائح **استرضائية** . وحين يحسُّ أنه أساء إلى القوى بتصرفاته، يعمد إلى تقديم ذبائح للتكفير ، وهذه ذبائح **كفارية** ، يكفر بها عن سوء فعاله . أو قد يأمل البدائي أن يفتح الطريق لكي تنساب إلى نفسه قوى خارقة للطبيعة ، وهذه هي الذبائح **السرية المقدسة** ، مثل إقامة وليمة عشاء مقدس للقوى الروحية. وكل هذه الذبائح تحمل سمات الدين ، ولكن السحر منطو أيضاً بين ثناياها .

وإذا انتقلنا مرحلة أخرى ، إلى ما فوق المستوى البدائي ، نرى في تقديم الذبائح عنصراً هاماً في نشوء وتطور ما نسمِّيه الآن بالعبادات الدينية الرسمية . فالبدائي لم يكن يقدم الذبائح والتقدمات بدون تلاوة ألفاظ معينة ، ألفاظ التكريم والاسترضاء . وهنا منشأ عنصر الحمد الذي نراه في العبادات الدينية، والذي تطور إلى ترانيم وأغان وتسابيح . وبعد الحمد يحق للعابد أن يتقدم بالطلبات والمنح والبركات . وهنا منشأ الصلوات والأدعية الطقسية . كما أن تنوع أساليب العبادة والذبائح في الأديان البدائية لم يكن يُقدَّم إلا في أماكن معينة لأداء هذه الطقوس. وعلى مسار الزمن، ومرّ الحقب، قامت المعابد والهياكل لهذا الغرض . ولكي تكون هذه الحفلات والممارسات مقدسة ، لم يكن بدّ من قيام أشخاص معينين ، وهنا منشأ طبقة الكهنة في الأديان اللاحقة ، وهم الذين كرسوا حياتهم للعناية بالأماكن الدينية ، وإقامة الشعائر والطقوس ، وكشف إرادة الآلهة بالعرافة والتنبؤ .

١٣ ـ الأساطير

إن رواية الأساطير شائعة بين الجنس البشرى كله ، وهي عند البدائيين متصلة بحياتهم كلها ، وذلك لأن الأساطير وسيلة لدى بعض القبائل لتعليل

العادات والعقائد والممارسات والاحتفالات وتوطيـــد سلطانها فى النفوس . فالبدائيون كثيراً مايجدون أنفسهم أمام عادات وطقوس يصعب عليهم تأويلها وفهم معانيها . ومن الطبيعى ، فى مثل هذه الحالة ، ان يحاولوا تأويلها بالقول : إن آباءنا لقنونا هذه الأشياء — ثم يعودون إلى الوراء ، إلى أصول بعيدة ، إلى آباء لا يذكرونهم ، وإلى أبطال خياليين أسطوريين ، أو إلى آلهة عليا — كل هـذا لـكى يثبتوا قوة وصلاحية هذه العادات والطقوس الموروثة المتواترة — فالأساطير من هذه الوجهة إنما هى لتزكية العادات والتقاليد القبلية .

ومن الأساطير التى كان لها شأن فى تاريخ الأديان البدائية محاولة تعليل الخليقة ، وقد تعددت هذه الأساطير فى كثير من المناطق . وراح الناس — حتى فى عصور سذاجتهم — يتساءلون: مَن الذى خلق هذه الأرض ، وكيف خُلقت وكيف صارت صالحة لسكنى البشر . ومن تلك الأساطير أن الإله الأعلى ، أو البطل الدينى ، غطس فى المياه ، وجاء بالرمال التى صنع منها الأرض ، أو أنه أخرج الناس والحيوانات والنباتات من كهف ووضعها فى الأرض ، أو أنه كافح مع جبابرة للحصول على المواد التى صنع منها الأرض .

وهناك أنواع من الأساطير تعبّر فى أوضاع خيالية عن مظالم ومساوى، النظم العائلية والاجتماعية . وهذه ، مثل الأحلام ، حافلة بالرموز ذات المعانى . وبعد أن تُروى مراراً وتكراراً تصير متنفساً لتوتر خفىّ ، ويكون لها أثر فعال فى إزالة هذاا التوتر الكامن فى النفوس .

وهناك صنف آخر ، هو الأسطورة شبه التاريخية . وهى التفن فى اصطناع حادث أصلى تاريخى يقترن عادة بحياة بطل أو رائد من الرواد ، وسبكه فى قصة مذهلة تثير الإعجاب ، تتخللها حوادث وروايات تهز المشاعر ، وتلفّ اسم البطل بأستار من السحر ، حتى تغدو شخصيته صورة متلمعة فى عالم الأساطير الدينية ، حتى يبدو شبه إله .

١٤ ـ الموتى وعبادة الأسلاف

نحن هنا أمام مجموعة هامة من الآراء ، ذلك لأن فكرة فناء شخصية الإنسان بعد الموت ، يصعب التوفيق بينها وبين اختبارنا اليومى. فالراحل الذى زاملنا زمالة عزيزة ، وعاش بيننا سنوات طوالا ، يترك وراءه فراغاً رهيباً فى حياتنا ، ولامناص من أن نكيّف أنفسنا وعاداتنا لتحمّل فراقه . وفى هذا التكييف كثيراً مانفكر فيه ، وتبقى معنا أمداً طويلا مؤثراته وذكرياته ، ونتخيله حيّـا فى أحاديثنا وأحلامنا . هذه كلها اختبارات عرفها جيداً أسلافنا الذين عاشوا فى فترة ماقبل التاريخ ، كما نعرفها نحن اليوم . فلا غرابة بعد ذلك أن نرى الإنسان فى عصر ماقبل التاريخ وممثليه الذين خلفوه ،يحسّون إحساساً دقيقاً دفيناً بأن الموتى الراحلين ليسوا أحياء وحسب ، ولكنهم يفتقرون إلى حاجات الحياة الأرضية التى شغفوا بها . على أن أسلافنا أحسّوا فى الوقت عينه ـ بسبب هذه العقيدة ـ بشىء من الضيق والقلق . وكان هذا مبعث حيرة لهم ، لأن الموتى لايسهمون فعلا فى الحياة العادية التى ألفوها على الأرض .

لهذا كله نرى أسلافنا البدائيين يتخذون كل حيطة لتوقّى تدخل الموتى فى شئون الحياة الأرضية وخلق الاضطرابات فيها . فكانوا مثلا يكدسون كومة من الحجارة على جسد الميت، أو يربطونه بحبال متينة، وأحياناً كانوا يغرزون وتداً إلى صدره لكى يقيدوا الجسد إلى الأرض، فلا يكون له فكاك منها. وكانت تلك الوسائل لمنع الجسد من « المشى ». وفى الوقت عينه كانت تُترك التقدمات فى مكان الدفن لاسترضاء الميت. ومازالت بعض هذه العادات باقية حتى اليوم فى كثير من رقاع العالم . وفى أكثر من بلد فى العالم مايزال الميت يُحمل على الأكتاف إلى لحده ، وكثيراً ما يسير حاملو نعشه طريقاً متعرجاً ملتوياً لتضليله حتى لايعود مرة ثانية . ومن العادات المألوفة حمل النعش إلى

خارج المنزل من غير طريق الباب المفتوح ، كأن يُحمل من النافذة أو من فتحة في الجدار تُغلق توًّا بعد خروجه . ويضع زنوج الكونغو أشواكًا على القبر في طريق العودة المؤدى إلى القرية ، وذلك لكي تدمى أقدام الميت ، وتحول بينه وبين العودة إلى بيته . وأحيانًا يقيمون حواجز طبيعية مثل أسوار حول القبر ، أو نباتات شوكية حادة ، أو حفر أخاديد عميقة في طريق العودة .

ويبيّن من هذه العادات أن هناك عداء بين الأموات والأحياء . على أن هذا التأويل ليس دقيقًا . وهو يصدق على حالات معينة دون غيرها — مثل الموتى الذين أخفقوا في حياتهم شأنهم في الحياة، أو الذين قضوا بطريق العنف والقهر ، أو الذين قُطعوا من أرض الأحياء في سعران شبابهم ، أو الذين ماتوا في ألم روجع من الأمراض القاسية ، أو الذين قُتلوا في الحوادث المفاجئة أو في عراك مع غيرهم ، أو الذين ماتوا وهم بعد في سبيل هدم . مثل هؤلاء تحت غرسهم على الضغن والحقد بحيث يُحتمل أن ينتقموا لأنفسهم من الأحياء . على أن كل الموتى ليسوا أعداء ، وكثيرون منهم من الأصدقاء الأوفياء ، خاصة الأسلاف . لذا قامت الحضارة الصينية ، على إعلان مقالها بأن أرواح الأسلاف تواقة دائمًا إلى مساندة ذراريهم ، وهم لا شك فاعلون هذا إذا قدّم لهم الأحياء التكريم اللائق بهم .

والحقيقة التي نرجح — أي مصالحة الموتى الأعداء واسترضاء الأصدقاء منهم — كانت [illegible] عند القبور ، وخاصة في الأعياد [illegible]

[illegible]

الأفران الصغيرة والأرغفة الخشبية والكراسى وما شاكل ذلك) . وفى الأزمنة السحيقة كانوا يرسلون الزوجات والخدم إلى القبور والمدافن، وهناك إما يذبحونهم أو يحرقونهم ، أو يدفنونهم أحياء مع الميت . وإلى عهد قريب تعيه ذاكرة الأحياء، كان « الملوك » فى أفريقية يدفنون معهم مئات من الرجال والنساء أحيــاءً .

وليس يتسع المجال بعد هذا البيان أن نقوم بجولات فى رقاع الأرض المختلفة لتعيين العادات والعقائد والأوضاع المختلفة التى تراعيها الشعوب والقبائل البدائية . ولــكن حسبنا أننا أجملنا الخواص والظواهر المتعددة التى تتألف منها الديانات البدائية . ومن الشيِّق أن بعضها قد انتقل إلى الطبقات الجاهلة فى الأديان الراقية ، ومافتئت تراعى حتى اليوم .

الأديان القوميـة

مصر ـ بابل ـ اليونان ـ الرومان

ليس من اليسير أن ننتقل طفرة واحدة من الأديان البدائية بما فيها من أسرار ، وبروق ، ورعود ، وجبال ، وأرواح ، وعبادة أسلاف . . . إلى الأديان القومية الأكثر تعقيداً، التي نشأت — فى مصر وبابل وبلاد اليونان وإيطاليا — بعد أن التأمت القبائل وصارت أمماً، ونهض ملك ، أو مدينة ، ليربط قبائل كثيرة ومدناً عديدة إلى وحدة متآلفة . وما ماردوخ فى بابل ، وأمون فى مصر، وزيوس فى اليونان ، وجوبيتر عند الرومان — إلاَّ امتداد للآلهة القديمة ، وقد خلعت عليها لغات أكثر رقياً ، وثقافة أعلى شأناً ،وتقاليد تاريخية أبعد أثراً — صفات وسجايا متنوعة ، ومنحتها قوى تتفق وهذا التطور الجديد .

وفيما بعد لم تقدر ، حتى الأديان الراقية الكبرى ، أن تتخلص كلية من أصولها العميقة ، ولم تقوَ على انتزاع جذورها من التربة البدائية التى غذّتها أولا . وقد وجد الباحثون والمؤرخون والمنقبون لذة ومتعة فى دراسة أصول الأديان المختلفة التى اندثرت معالمها ، والتى كانت من العوامل الهامة للانتقال

من عبادة الأرواح البدائية، وعبادة تعدد الآلهة ـ إلى الأديان العليا الراقية التى تحمل رسالة عالمية ، وتخدم حاجات الإنسان الروحية .

وفى هذه الدراسات التاريخية التى تأخذنا من مرحلة إلى أخرى فى تطور العقائد والأديان ، نرانا أمام تفاصيل دقيقة مطولة ، ومتناقضات عجيبة مذهلة ، تزحم عقل الباحث ، وتستلب لبّه ، وتثير فضوله . لذلك سنضطر إلى الإيجاز فى التفصيل والتحليل ، حتى لا نضلّ فى متاهات العقائد والديانات التى تفتقت عنها أذهان البشر، وتعلقت بها أرواحهم وقلوبهم على مسار التاريخ.

١ — مصر

لعلّ مصر تقدّم لنا أبسط صورة فى التطور من عبادة الأرواح ، إلى عبادة الآلهة المتعددة، والأخلاقيات القومية المنبثقة من هذه العبادة. وذلك لأن مصر — على الأقل فى بكور تاريخها — لم تعانِ تدخلا من الغريب الدخيل، كما حدث فى ما بين النهرين ، وانقضت فترات من الزمن طويلة ، كانت سيدة مصيرها . على أنه فى الدلتا (مصر السفلى) كان الاتصال مستمراً مع العالم الخارجى، والسائحين الذين وفدوا فى أفواج كبيرة ، حاملين معهم آراء وعادات جديدة اقتبس المصريون كثيراً منه .

وكان هذا الاكتفاء الذاتى — نسبياً ـ مردّه إلى التخوم التى صانتها قروناً طوالا ، فالبحر الكبير فى الشمال، والصحراوات الشاسعة فى الشرق والغرب، والجبال الإستوائية وشلالات المياه فى الجنوب . وقد ظلت مصر فترات طويلة من التاريخ مكتفية بذاتها ، يغذيها نهرها السعيد بخيراته ، لذلك اتسع الوقت والمجال لدى أهلها للتفكير فى الإلهيات والأخرويات ، كما سنرى فيما يلى :

عبادة الحيوانات والآلهة ذات الرؤوس الحيوانية:

بدأت الآلهة المصرية القديمة على شكل حيوانات ، وكان لكل جماعة معبودها وحارسها فى الحياة الريفية البدائية. من ثم نرى مثلا تينيس وأبيدوس يعبدان ابن آوى ، والفيوم تعبد التمساح ، وطيبة تعبد آمون فى شكل كبش ، ومنف تعبد إلهين هما اللبؤة والعجل أبيس ، ودندره تعبد هاتور ، وهى بقرة ، وأدفو تعبد الصقر. وجماعات ومدن أخرى قدمت عبادتها للقرد ، وفرس البحر والحيَّة ، والقط ، والضفدعة وغيرها من المخلوقات .

هكذا بدأت معتقدات المصريين القدماء بأن الآلهة تتقمص أجسام الحيوانات المختلفة لتجول بين الناس، وترصد حركاتهم وأعمالهم. ومن أشهر هذه الحيوانات العجل أبيس ــ كما أسلفنا القول ــ ولهذا الإله شروط خاصة ينبغى أن تتوافر فيه عندما يبحث الكهان بين آلاف العجول . فجلده أسود وعلى جبهته نقطة مثلثة الشكل بيضاء ، وعلى جانبه الأيمن علامة شكل الهلال ، وتحت لسانه علامة أخرى مميزة تشبه الجعران المقدس . فإذا عثروا عليه أذاعوا البشرى فى طول البلاد وعرضها، واحتفلوا به يوم الفطام إحتفالاً لا مثيل له فى الروعة والفخامة. فرجال الدين والحكماء يسيرون أمامه ويقتادونه عبر النهر فى قارب مطلىّ بالذهب حتى يصلوا إلى معبده العظيم بمفيس ، حيث يبقى العجل موضع الرعاية والتكريم طول حياته . أما يوم يموت فحزن البلاد عليه شامل ، ويستمر الحداد عليه حتى يُذاع خبر العثور على عجل جديد له السمات عينها .

ولكن يبدو لنا أن هذه الحيوانات والطيور لم تُعبد من أجل خواصها الحيوانية فقط ، بل من أجل قواها البشرية (وأحياناً الفائقة للبشر)، ومن أجل الخواص التى امتازت بها أو مثّلتها . وذلك اعتقاداً منهم أن الخواص الإلهية يمكن أن تظهر فى الحيوان أو الإنسان أو فى كليهما . ولذلك صوروها فى

أجساد بشرية تحت رؤوس حيوانية أو العكس. فالإله « أنوبيس » مثلا حارس المدافن والمقابر ودليل الموتى ، كانت له رأس ابن آوى . «وتوت» إله العلم حمل فوقه رأس « ابيس » .

تلك كانت عبادة قدماء المصريين فى مراحلها الأولى ، يوم كانت الجماعات مستقلة ، يتباعد بعضها عن بعض ، ولكن فى أثر الحروب والغزوات التى ضمّت جماعات أو مدنا بعضها إلى بعض، تضامّت تبعاً لذلك هذه الآلهة المتفرقة وكوّنت مجاميع ، كما حدث فى مصر السفلى (الدلتا) ومصر العليا .

مجموعة ازيس — اوزيريس — حورس :

ظهرت هذه الأسرة متأخرة فى تاريخ مصر ، ولكن أفرادها قد ألهبوا خيالات العامة إلهاباً لم يدانه آلهة غيرها .

ولأوزيريس أصل يرجع إلى ما قبل التاريخ كما تقول بعض الأساطير . ومما يقال انه وفد من ليبيا أو من سورية فى شكل إنسان ، وكان فى الأصل إلهاً زراعياً . وإلى القارئ الكريم أسطورة تتحدث عن هبوط أوزيريس إلى أرض مصر :

هبط أوزوريس إلى الأرض فى صورة إنسان بالقرب من مدينة (طيبة) حيث نزل عند كاهن متواضع . ولم تكن طيبة مدينة عظيمة مشهورة كما عرفناها فيما بعد، فليس بها آنذاك شوارع جميلة متسعة ، ولا معابد كثيرة، ولا تماثيل متقنة ضخمة الصنع ، ولا قصور أنيقة البناء ، بل كانت مصنوعة من خشب وبوص وطين . أما قصر الملك ومساكن الأمراء والنبلاء فكانت مبنية من الأحجار .

وانهالت الأسئلة على أوزوريس وإيزيس فى طرقات المدينة وأزقتها .

فتوقف الناس عن أعمالهم، يتفرسون فيهما مبهوتين، إذ لم يسبق لهم أن شاهدوا كائناً بشرياً فى مثل هذه المهابة والقوة والجلال ، ولا امرأة فى مثل هذا الطهر والوداعة والجمال ، حتى أن ملكهم وملكتهم تضاءل تأثيرهما وهيبتهما بجانب هذين الزائرين الشبيهين بالآلهة، وأحس الشعب بالغريزة أنهما ليس من سكان الأرض ، وقدم لهما رجل الشارع كل تبجيل وإكرام .

وانهالت الأسئلة على منزل الكاهن حيث حل أوزوريس : من أين جاء الغريبان ؟ كيف وصلا للمدينة ؟ هل فى قوارب عن طريق النيل أم من التلال والوديان على ظهور الاتن ؟ من هما وما الغرض من قدومهما ؟ إلى غير ذلك من علامات الاستفهام ، أما الكاهن وأهل بيته فاحتفظوا بالسر ولم يزيدوا على القول بأن الغريبين جائلان، ظهراً عند المعبد، وقبلا النزول فى البيت فترة من الزمان.

وكلما مرت الأيام ازداد الناس حيرة من أمرهما، وازدادوا لهما احتراماً وخشية تقرب من العبادة، وجال بينهم الغريبان ينصحان الشعب ، ويأسوان الجراح ، ويصنعان خيراً ورحمة ، فحيثما اشتد الكرب وثقل المرض أو وقع الجور ، ظهر أحدهما بجانب الملهوف والسقيم والمظلوم .

وكان أوزيريس مشغولا طول النهار فى المزارع والحقول ، يرافق الزراع والعمال، ويشرح لهم أساليب جديدة فى الزراعة والصناعة ، يعلمهم كيف يصنعون المحراث ويستخدمونه فى شق الأرض وتقليبها ، وكيف يصنعون الشادوف ، ويرفعون به الماء لرى الزرع ، بدلا من نقله وحمله فوق الظهور .

وفى هدأة الليالى القمرية كان يجلس حوله لفيف من أهل الريف من الشباب والشيوخ ، وهم يستمعون إلى أنغامه العذبة فاغرى الأفواه مسحورين ، ولم يكتف بالعزف وحده ، بل اصطفى من بينهم نخبة من الشبان دربهم على العزف بالناى، فكانت الجوقة المصرية الأولى التى أطربت وأبدعت وهزت أوتار القلوب .

ولم يطل الوقت حتى سمع فرعون مصر بالخبر، وأخذ علماً بنشاط الغريبين في مملكته. فاستدعى أوزوريس إلى القصر ودار بينهما الحديث التالي :

الملك : مَن أنت ومن أين جئت ؟

أوزوريس : أنا غريب قادم من أرض بعيدة، وقد سمعت كثيراً عن أرض مصر، فطاب لى أن أزورها وأشاهد أهلها، وأمكث فيها بعض الوقت ثم أعود من حيث أتيت .

الملك : فأين الأرض التى تتحدث عنها . لقد شقّ جنودى طريقهم إلى أبعد الحدود ، ولم نسمع شيئاً عن بلادكم تلك من قبل ؟

أوزوريس : بلادنا بعيدة جداً ناحية الغرب بحيث لا يستطيع إنسان الوصول إليها بدون دليل .

الملك : لكن كيف جئت أنت ، وبما أنك استطعت المجىء إلينا، فأنا فى استطاعتى الذهاب إلى هناك ، اشرح لى الطريق فإن لى رغبة فى زيارة تلك البقاع .

أوزوريس : كلا أيها الملك . فقد قلت لك انه ليس فى مقدور إنسان أن يفعل ذلك .

الملك : فأنت عاجز عن العودة إلى موطنك .

أوزوريس : لقد بدأت الرحلة وسأحاول الرجوع . ولست أظن أنى بالغ أرض الوطن ، وأنا مقيد بهذا الجسد الفانى .

الملك : لقد سمعت كثيراً عن حكمتك ومهارتك، وأود أن تحضر إلى القصر لتلقى دروساً على الوزراء والحكماء والسحرة .

أوزوريس : بكل سرور . لكنى لا أستطيع أن أهمل رسالتى بين الفقراء من عامة الشعب، ولا أن أتهاون فى إسداء المعونة إليهم ، كلما احتاجوا إلى ذلك.

وذهب أوزوريس إلى القصر، وجعل يلقن العلماء والحكماء مبادىء وتعاليم جديدة كل صباح . وتوسل إليه رجال الحاشية أن يقيم فى جناح القصر حيث ينعم بأشهى طعام وأفخر لباس ، لكنه رفض مفضلا مسكن الكاهن المتواضع — الذى استضافه أولا — على أجنحة القصر وأطايب الملك.

وكثيراً ما كان يخطب فى جموع الشعب عن العبادة والمعابد التى يتلون فيها الصلوات والدعوات ، فيشرح لهم كيف أن التماثيل الحجرية التى يعبدونها ويتقربون إليها أصنام لا تسمع ولا تعى ولا تستجيب ، لأنها صماء بكماء لا حول لها ولا قوة . وإنما يهيمن على الناس كائن إلهى يستطيع حمايتهم والاستماع إليهم وإمدادهم بما يحتاجون، فالشمس التى تمدهم بالنور والدفء صورة ملموسة ومظهر واضح لقوة الكائن الأعلى ، والنيل الذى يروى أرضهم ويغذى زرعهم هبة لهم من إله السماء . . ويستطرد فى حديثه إلى القول بان من عاش نزيهاً مستقيماً غير محب لذاته ، استطاع — رغم كونه إنساناً — أن يدرك الملكوت الذى يحتله ذلك الإله ، ويستمتع ببهائه وسناه .

وشاهد الناس أعمال هذا المعلم القدير وعجائبه واختبروا نبله ومحبته حتى مال بعض مشاهديه وسامعيه إلى الاعتقاد بأنه هو الإله الذى يتحدث عنه .

وبهذه الطريقة استطاع أوزوريس أن يلفت أنظار المصريين إلى أعلى، ويغرس فى نفوسهم روحاً إلهية والإيمان بالكائن الأعظم .

اسطورة ايزيس :

ولإيزيس أسطورة خيالية مؤثرة ، أغدقت عليها عطفاً بالغاً. فقد جاء فى « نصوص الأهرامات » وهى أقدم المصادر التاريخية — أن اوزيريس إله

الخير قتله أخوه « ست » ، بإغراقه فى النيل ، ولكن أختيه ايزيس ونفتيس وجدا جسده وبكياه بكاء مراً ، وبينما كانت إيزيس تحتضن جثة أخيها (وزوجها فى الوقت عينه) انتعش فترة من الزمن ، وعادت إليه الحياة ، وحملت منه ، فولدت ولدها حورس سراً ، وتولت رعايته وتربيته فى الدلتا دون أن يكتشف أحد أمرها . ولما شب عن الطوق ، بحث به لينتقم لأبيه . وقد أفلح فى العثور على جثة أبيه . وأمام محكمة الآلهة ثبت أن « ست » هو قاتل أوزوريس ، ولذلك صار [illegible] حورس ملكا خلفا لأبيه . وكان « ست » قد انتزع عين أخيه الثالثة ، وثبتها فى جبهته إقراراً له بالملك . ولكن حورس استرد منه العين ، فصار ملكاً إلهاً وفعلاً . وعلى الفور أخذ حورس العين وثبتها فى جثة أبيه ، فاستيقظ وانتصب ، واستعاد قوة أعضائه . على أن أوزيريس بعد ذلك لم يبق على الأرض ، بل انطلق إلى العالم السفلى ليكون دياناً للموتى ، بينما صار حورس رباً فى العالم ، وحاكم مصر (مع ملوكها) والشمس بكل قوتها وجبروتها .

عبادة الشمس

ولم يكن « حورس » هو إله الشمس الوحيد ، بل كان هناك آخرون غيره ، أحدهم « رع » الذى جاء ليكتشف « حورس » . وكان هذا الإله « رع » يطل على المصريين من جبل المشرق كل صباح ، مزهواً بأشعته الذهبية ، مظفراً بانتصاراته على قوات الظلام ، بادئاً رحلته النهارية فى زورقه السابح فى البحر السماوي ، [illegible]

فى ائتلافه مع « رع » وتلك كان الخطوة الأولى ، فقد افلحوا بعدها فى ائتلافه مع آلهة الشمس الأخرى، التى كانت تحت اسم « حورس ».

ولهذا السبب اتخذ الفراعنة المتأخرون فى عصر الأهرامات (٢٦٠٠ — ٢٢٠٠ ق . م .) لأنفسهم لقب « ابن رع » . وبنيت مسلاتهم رموزاً هائلة الدلالة على أشعة الشمس . أما الفراعنة الذين رقدوا فى نومهم الطويل داخل أحجار الأهرامات ، فقد كانوا أيضاً رموزاً للشمس ، وكانوا واحداً معها فى الموت كما فى الحياة . من ثمَّ كانت الشمس — أبوهم فى الحياة — حياتهم الخالدة فى الموت أيضاً .

وفى عصر الامبراطورية الجديدة — بعد ألف سنة من هذا التاريخ — صارت ملكة مصر رئيسة كهنة الشمس ، وعن طريق الفراعنة الذين جسَّموا هذا الإله ، غدت الشمس أباً لأبنائها الذين صاروا آلهة بالولادة .

وفى الوقت عينه يتخذ الإله الشمس لقباً مزدوجاً « آمون رع » . وكان « آمون » هذا إلها محلياً فى طيبة بمصر العليا ، وإلها فى معبد الكرنك على مقربة منها . ولما غدت « طيبة » بقوة الفتح والغزو المدينة الحاكمة فى مصر كلها (حوالى ٢٠٠٠ ق . م .) ارتفع شأن آمون وصار إلها قومياً ، واتحد مع « رع » القاهر القوى . وحول « آمون رع » قامت أسرة إلهية تتألف من زوجته « مت » إلهة طيبة ، وولدها « كنسو » إله القمر . وكان الكبش شعار « آمون رع »، وأمامه وقفت الكوبرا للدلالة على أنه ملك الآلهة ، وفوق رأسه قرص الشمس المجنح .

خلاصة :

وبعد هذه الجولة يمكن أن نذكر بإيجاز بعض الآلهة والأرباب الذين انتشرت عباداتهم عند قدماء المصريين .

١ — «رع» إله الشمس، مصدر النور وواهب الدفء. وقد كانت عين شمس أو هليوبوليس مركزاً لعبادته. ثم انتشر الإيمان به فى جميع الأقاليم.

٢ ـ آمون وترجمته الإله المستتر، وما زال مجهولا كيف ومتى بدأ الإيمان به. وكانت «طيبة» فى الوجه القبلى مركزاً لعبادته. وقد ائتلف بـ«رع» فيما بعد وصار يُعرف بالإله «أمون رع» كما تقدم.

٣ ـ «اوزيريس» هو الإله الذى هبط من السماء، أو الإله المتجسد الذى وفد من ليبيا أو سورية. وهو الذى يرسم للناس سبل المحبة والتعاون والسلام فيمكث بينهم فترة من الزمن، مجاهداً فى سبيل الخير والبر والعدل، إلى أن يغدر به أخوه ست ويقتله مفرقاً أجزاء جثته فى بقاع مختلفة.

٤ ـ «ايزيس» زوجة اوزيريس تعاون زوجها فى رسالته على الأرض ثم تستعين بالسحر بعد مصرعه، على جمع أجزاء جثته وإعادتها إلى الحياة. ويحاول اوزيريس استعادة ملكه الأرضى، ولكنه يخفق، فيختاره مجمع الآلهة سيداً على عالم الأموات، وقاضياً أعظم فى وادى الظلام.

٥ ـ «ست» عدو الإنسان، إله الخبث والحقد والشر، أحكم المكيدة ضد أخيه حتى قتله واغتصب الملك.

٦ ـ «تحوت» واضع الحروف ومعلم القراءة والكتابة، هو إله الحكمة وحارس القانون.

٧ ـ «حورس» ابن اوزيريس أخفته أمه حتى بلغ الرشد، ثم تنصفه الآلهة؛ فينتقم لأبيه، ويأخذ الملك بالميراث.

٨ ـ وعدا هؤلاء، آلهة أخرى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال — لا الحصر — الإله «بتاح» الذى عبده أهل ممفيس، وكان إلهاً غريباً غامضاً قيل عنه انه هو الذى خلق العالم من الطين، وكان ملفوفاً من قمة رأسه إلى

أخمص قدمه بالضمادات — كأنه مومياء — للدلالة على أن تاريخه غارق فى القدم لا تُعرف له بداية . وهناك أيضاً « مات » إلهة الحق ، التى ترسمها النقوش المصرية واقفة عند باب قاعة الدينونة ، حينما كان يوزن قلب الإنسان . و « هو » إله الذوق ، و « انوبيس » حارس المقابر ، وغيرهم كثيرون .

أجل ، كان المصريون يؤمنون بتعدد الآلهة ، فهم لم يعبدوا فقط آلهتهم التى ولُدت ونشأت فى مصر ، بل قد عبدوا أيضاً آلهة مستوردة من الخارج مثل « أناهيتا » من بلاد فارس ، و « عشتار » معبودة بابل وفلسطين .

الحياة الأخرى فى دين قدماء المصريين :

لم يكتف المصريون بالإيمان بحياة الروح فى العالم الآخر ، بل جاوزوا هـذا الاعتقاد إلى عقيدة مؤداها أن الأجسام تقوم كما هى مرة أخرى ، لتستأنف وجودها فى حياة أكمل . لهـذا بذلوا أقصى الجهد ، وعصارة الفكر والبحث ، فى العناية بالأجساد بعد الموت ، وتحنيطها وإخفائها ، حتى تعود إليها الأرواح يوم البعث ، وتستمتع بالخلود فى فردوس السلام الكامل .

ولم تكن السماء عند المصريين منازل تضيئها الثريات ، ولا طرقات مفروشة بالذهب ، ولا قصوراً فخمة تحوى ثمين الجواهر ، بل كانت سماؤهم استئنافاً لما يؤديه الإنسان على الأرض . فالسماء فى عقيدتهم واد خصيب ، تتخلله قنوات لا حصر لها ، يمدُّها النهر السماوى بالماء النقى العذب . هناك الحنطة والشعير والحبوب موفورة لكل طالب ، والعنب والتين يغذيانه بأطيب الثمار وأحلى الشراب ، وأشجار الجميز منتشرة يتفيأ الإنسان ظلها حيثما أراد.

لم تكن حياة الإنسان الأخرى إذاً حياة الكسل والجمود ، بل كان عليه أن يحرث ويبذر ويحصد ويدرس ، كما كان يفعل فى حياته الأولى ، مع فارق عظيم هو أن عمله فى السماء كان سهلا يشيع فى نفسه الغبطة ، ليناً يبعث فى قلبه الحبور . فلا حاجة لخزن الطعام وإدخار المال ، ولا خوف من هبوط النيل

أو جفاف الأرض ، فقد رتبت هذا كله الآلهة ونظمته ، بحيث يُرفع عن كاهل الكائن السماوى ، كل ثقل وكرب ، ولا يعتوره هم أو حزن فيما بعد .

الدينونة

وبعد الموت كانت الارواح — رجالا ونساء — تتجه إلى الوادى الرهيب ، وهو على شكل نصف دائرة ، رسبت على جوانبه صخور وجبال شامخة . وفى بطنه جرى نهر الدينونة المخيف . تلك كانت مملكة الظلام ، فمياه النهر عكرة داكنة تنبعث منها أبخرة خانقة لا يستنشقها إنسان ويعيش ، وعلى طول مجراه مناظر مروعة يرتعش أمامها أشجع الشجعان . ولم يكن بدٌّ من أن تقطع الأرواح هذا الطريق قبل ولوجها فردوس النعيم .

كان الوادى مقسما إلى اثنتى عشرة منطقة، يشير كل منها إلى ساعة من ساعات الليل البهيم، ومدخله محصّن بأسوار مرتفعة وبوابات ضخمة يقوم على حراستها وحش دميم. وعلى شاطىء النهر وفى ثنايا الصخور كمنت الأفاعى ذوات الأعين النارية والفحيح الذى يخلع القلوب، وأطلت الثعابين القاتلة من جحورها متربصة كلها بالحجاج ، الذين لم تتهيأ لهم أسلحة النصر فى هذه الرحلة المريرة .

ولم يكن فى استطاعة الروح أن تجتاز الوادى المظلم بمفردها ، لهذا كانت تتجمع الأرواح حول المدخل الرئيسى، حتى إذا اقترب «رع» عند مغيب الشمس ازدحم الأموات الأرواح محاولين التسلق والدخول فى الزورق الإلهى، وينجح عدد منهم فى الحصول على أمكنة فى القارب ، أما الذين تنقصهم أسلحة البر ودرع الفضيلة، فتجرفهم الزحافات أو تبتلعهم المياه الحالكة، أو تلتهمهم أفواه التماسيح.

ثم يدخل الزورق ، ويبدأ الأموات رحلتهم فى ظل روح الإله « رع » . على أن ذلك لم يعفهم من مواجهة الأعداء المنبثين على جانبى النهر ، والأرواح الخبيثة التى تحاول أن تقلب الزورق وتحطمه بمن فيه . لكنهم استناداً على ذراع « رع » يتمكنون من صدّ الوحوش الهائجة فى المناطق الخمس الأولى . أما عند

المنطقة السادسة حينما ينتصف الليل فلا حول ولا حيلة للإله . بل أن « رع » يتخلَّى عنهم متنحياً مكاناً قصيّاً، ويقفل وراءه الباب كى تواجه الروح مصيرها وحدها ... إنها محكمة أوزيريس العظيم رئيس القضاة وديان الموتى . . .

ردهة كبرى ينتظم على جانبيها اثنان وأربعون إلهاً ممثلين عدد الإمارات فى المملكة المصرية، يجلس كل منهم على عرش عاجى مذهب، يتوسطهم أوزيريس المهيب فوق منصة تعلو تسع درجات ، متربعاً على عرش من ذهب خالص ، فى يده الصولجان وعلى رأسه تاج مصر المزدوج . وأمامه يأتى الإله «اتوبيس» وازن القلوب بميزان الحق الدقيق، ويضع فى إحدى كفتيه ريشة العدل الإلهى، وبجانبه ينحنى « تحوت » حارس القانون ومسجل الأحكام ، ومن ورائه هوة سحيقة احتفرها زبانية الجحيم ، ومنها يبرز تنين لعين ، وقد كشف عن أنيابه منتظراً فرائسه بابتسامة ساخرة .

إنه لمشهد ترتعد له فرائص الروح حينما تدخل بهو المحكمة، فتغيم أمامها الصور ، وتتراقص أشباح الآلهة ، لكن القاضى الأعظم يعطى فرصة، فيصبر حتى يستفيق الميت من الذهول . ثم تبدأ المحاكمة على الفور فتنهال الأسئلة على النحو التالى :

— هل ارتكبت جريمة أو نطق لسانك بالكذب ؟

— هل غدرت بجارك شاهداً بالزور، أو قتلت أخاك عن عمد وإصرار ؟

— هل أعطيت مجداً للآلهة، وهل أحببت قريبك كنفسك ؟

وينتظر الرئيس قليلا حتى يستعيد الميت هدوءه من هول الموقف ، ويبدأ أعضاء المحكمة استجوابه فيما قد يكون ارتكبه من ذنوب وآثام ، فيسألو عن جرائم الكذب والسرقة والقتل والخيانة وشهادة الزور وإيذاء القريب وعصيان الآلهة . ويجيب الميت «الروح» على هذه كلها إجابات مرضية مستعيناً

في صياغتها بما تعلّمه من كتبه المقدسة ، وما تلقّاه في حياته من أفواه الكهان.

ثم تحين اللحظة الأخيرة الحاسمة فور انتهاء الاستجواب ، لحظة قاسية لا يستخفى أثناءها سرٌّ، بل كل شيء مكشوف وعريان . فيتقدم « حورس » ومندان الحرس قابضاً على الميت ، ويخطو به نحو منصة الرئيس الذى يصدر لأمر بخلع قلبه الروحانى ، فيتسلمه « أوتوبيس »، ويضعه فى إحدى الكفتين مقابل ريشة الحق فى الكفة الأخرى ، ويراقب « تحوت » حركة الميزان بدقته المعهودة ، كما يراقبها صاحب القلب الموزون فى رهبة وفزع ، وهو يرى بعينه شراهة الوحش النهم الرابض فى الحفرة من وراء . فإذا رجحت كفة القلب أو تساوت فى الثقل مع ريشة الحق فى الكفة الثانية، رضى عنه أوزيريس وسجله « تحوت » فى قائمة الفائزين .

ويا ويل مَن حذف اسمه من كشف المقبولين !

ويا ويل من غشّ الآلهة فيفضح غشه الميزان !

ويا عذاب من يوجد قلبه فى الكفة إلى فوق!

فلا الدموع ولا النحيب ولا التوسل ولا التوبة تشفع فيه الآن ، وسرعان ما يتقدم الحراس الأشداء فيقودونه ويسوقونه إلى حيث يتلقفه الوحش الخبيث بين فكيه، ويغرق به داخل الهوة التى لاقرار لها، هائماً بالروح أعواماً وأدهاراً فى بحيرة من نار .

أما المكتوبون فى سفر الحياة فيخرجون من بهو المحكمة إلى الباب الخلفى، حيث ينتظرهم « رع »، ويحملهم معه فى قاربه إلى المنطقة السابعة فى وادى ظل الموت . ومن هنا تبدو أمامهم الرحلة أكثر سهولة وأخف عبئاً ، لأنهم نالوا قوة بعد اجتيازهم أقسى امتحان . فيعبرون منطقة بعد أخرى ساحقين أعداءهم دون كبير عناء، حتى يقتربوا من آخر الأقسام .

لكن أظلم ساعة فى الليل تسبق الفجر ، وكان على الأرواح أن تجتاز

الخطر الأخير الجاثم أمام زورق الزمان . فقد ربضت فى مصب نهر الدينونة أفعى هائلة الضخامة، بحيث لم تترك كتلتها مكانا للزورق ينفذ منه ، لا من حولها ولا من فوقها ، ولم يكن بدٌ من أن يشق الزورق طريقه فى جوفها .

وعلى شدة ما انتاب المناطق السابقة من سواد حالك وعتمة عماء ، فإنها لا تُقاس بهذه الظلمة الكثيفة فى بطن الحية الرقطاء — هذه الكثافة المظلمة يُحتمل أن تتيه فيها الروح وهى على عتبة عالم النور ، لو لم تكن قوة « رع » حارسة ومسيِّجة من حولها.

وفى نهاية المطاف يظهر قبس من النور ضئيل ، وبسرعة تزداد الخيوط توهجاً وإشراقا . ثم تنفتح البوابة الأخيرة على مصراعيها ويبرز منها الزورق الذى يطوى ملايين السنين سابحا فى نور الشمس الوضاء ، فتستقبله الآلهة بأناشيد النصر وأغاريد الفرح .

وعندما ينشر « الإله » أشعته الذهبية حول الأرض يشترك الأضياف الذين حملتهم سفينة الزمان مع أجواق الأرواح الأبرار السابقين فى أغنية حلوة شجية ، ترحيبا بدخول الفوج الجديد إلى حقل السلام فى فردوس النعيم.

اخناتون والوحدانية

كنا نبحث حتى الآن المعتقدات الخاصة بتعدد الآلهة ، ولكن تاريخ الدين فى مصر يقدِّم لنا فى فترة معينة محاولة رفيعة الشأن ، ثاقبة الفكر ، بإدخال الوحدانية الإلهية لإصلاح الأوضاع الدينية القائمة يومئذ .

وكان منشأ هذا الإصلاح عقيدة اضطرمت فى نفس فرعون شاب ، مال إلى الإيمان بوحدانية الله . وقد التفّ حوله نفر من المتحمسين لهذه العبادة ، آزروه ووقفوا إلى جانبه، فغيّر اسم الإله القومى من « آمون » إلى « أتون »، كما غيّر اسمه هو من « امينوحتب» إلى «أخناتون » . وأذاع فى قومه أن يعبد

« أتون » الإله الواحد الأحد ، خالق كل الأشياء ، والضابط كل المخلوقات وفى تلك الفترة من تاريخ مصر ، كنت تسمع الكهنة يرددون الأناشيد الرائعة فى الهياكل والمعابد ، مثل قولهم :

« ما أعظم أعمالك أيها الإله .
« إنها خافية عن جميع البشر .
« أيها الإله الواحد ، الذى لا إله سواه .
« أنت خلقت الأرض حسب مسرتك .
« قد خلقت الجلد البعيد، لتشرق منه بوجهك .
« لكى ترى عيناك كل ما صنعت يداك .
« الأرض كلها بين يديك .
« لذلك أنت الذى صنعتها .
« فعندما تشرق تحيا الخلائق .
« وعندما تغيب تموت .
« لأنك أنت مصدر الحياة .
« وجميع الناس بك يحيون» .

وقد أمر ذلك الملك الشاب أن تمحى من الهياكل والسجلات العامة أسماء وأشكال آمون وغيره من الآلهة . وحتى اوزيريس نفسه أهمل شأنه ليبيت نسياً منسياً . ولكى يخلق جواً جديداً لبلاط ملكه ، يعينه على تحقيق رغباته ، شيّد أخناتون عاصمة جديدة لملكه جنوب طيبة. وأطلق عليها اسم « اخيتاتون » (أى أفق أتون) . وكذلك أنشأ مدناً جديدة لتكون مراكز لهذه العبادة الجديدة فى بلاد النوبة وسورية (وكانت يومئذ ضمن الأمبراطورية المصرية) .

على أن هـذا الإصلاح الرائع الذى أدخله أخناتون ، لم يكن مقدَّراً له أن يبقى بعد موته ، وذلك لأن فرعون الذى خلفه ، وهو زوج ابنته — استسلم صاغراً لـكهنة الإله أمون القديم ، وغيّر اسمه من « توت عنخ أتون » إلى « توت عنخ آمون » ، وهو الاسم الذى عُرف به فيما بعد فى التاريخ . وعلى مقتضى هـذه الردّة عادت أوضاع العبادة القديمة ، وحذف اسم « أتون » من كافة الأماكن العامة .

وعاد إلى اعتلاء مكانة الـكرامة والتوقـــير والعبادة « أمون رع » و « أوزيريس » و « ايزيس » و « حورس » ، وبقيت هذه الآلهة العديدة فى مركز القوة إلى أن تصدى لهـا عدو هائل ، وأنزلها من فوق عروشهـا ، وأزالهـا من الوجود إلى غير عودة — وكانت المسيحية ذلك العـدو ، بل قلْ الصديق ، الذى أشرق على مصر بنور الوحدانية ، وبدَّد ظلمات جهالتها ، وأنار لها طريق الحق والحياة والخلاص .

٢ — بابـــل

ظهرت المدن، والحكومات ، والكتابات ، والهياكل ، والكهنة ، فى بابل قبل ظهورها فى مصر . ولكن الروح المنبثة فيها كانت أشد صرامة ، وأكثر واقعية ، وأقسى مظهراً ، وكانت من هذا العالم وليست من العالم الآخر . وليس من العسير تأويل هذا الفارق ، فمصر كانت، كما قلنا، مصونة بصحراوات شاسعة من الشرق والغرب، وشلالات من الجنوب، وبحر من الشمال. أما « بين النهرين » (بابل) ، فقد كانت سهلا خصيباً بين نهرين ، وكانت مفتوحة للغزو من جميع النواحى . لذلك لم يسعفهم الواقع بالتفكير فى الأُخرويات ، واقتصروا على الاهتمام بالحياة الحاضرة ؛ وكانت الحياة أمامهم عرضة للزوال، لذلك اقتنصوا كل ملاهيها وملاذها على عجل، وفى نهم .

آلهة (بابل)

يقال انه كان فى بابل القديمة ٤٠٠٠ إله ، على أن كثيرين منها كانوا خدماً ورسلاً ومحاربين لآلهة أكبر . وقد مثّل هؤلاء كل جزء فى الطبيعة — السماء والهواء والأرض والمياه والشمس والقمر – وكان يتمّ بينها التزاوج والتناسل.

وقد انقسمت هذه الآلهة إلى مجاميع إختصت كل مجموعة منها بشىء معين أو مدينة معينة .

وعلى مرّ الزمن غدت واحدة بين هذه الآلهة الكثيرة واسمها « عشتار» معبودة رئيسية فى البلاد كلها ، وهى الإلهة الام ولكنها عذراء فى الوقت عينه. وباتصالها بالإله « تموز » – وهو إله الشمس ويقظة الربيع – جعلت من نفسها محبوبة بما لها من حق وسلطة . وكانت هى فى الوقت عينه إلهة الخصب ، تمنح الأمهات أطفالهن، والزروع والنباتات خضرتها وأيراقها . وكانت أيضاً كوكب الزهرة «ملكة السموات والنجوم ».وكان مقدّراً لها أن تنتشر عبادتها إلى الغرب،

إلى فلسطين ومصر . وحتى أتباع زرادشت (دين فارس) لم يقووا على مقاومة نفوذها ، وبعد تغيير إسمها إلى « أناهيتا ، (أى الطاهرة) ، جعلوا لها نفوذاً لايقلُّ عن نفوذ « أورمازد » نفسه ، كما سيجيء فى الحديث عن دين فارس فى فصلٍ « أديان الشرق الأوسط » .

ماردوخ

أما المنافس الاقوى والأعظم للإلهة « عشتار »، فقد كان « ماردوخ » . وقد آتته سلطته عن طريق حظوظ سياسية ، وذلك لان الملك السادس فى الأسرة الاولى لحكام بابل ، واسمه حمورابى (٢٠٦٧ — ٢٠٢٥ ق ٠ م ٠) (وهو المشرع العظيم وواضع القانون المعروف باسمه) ، كان قد جعل مدينته عاصمة مملكة قوية تمتد من الخليج إلى الولايات الوسطى ، التى يحتضنها نهرا الدجلة والفرات . وقد كان عمله هذا إنجازاً بارعاً ، إذ غدت بابل من ذلك التاريخ ، إلى عشرين قرناً لاحقاً ، من كبريات مدن العالم . وبازدهار قوتها ، قفز إلهها « مردوخ » إلى مرتبة العظمة أيضاً تبعاً لها . وامتصَّ جميع الآلهة المحيطة به ، وسلبها حكمتها وقوتها ، حتى صار ربَّ السموات والارض .

الأساطير البابلية والشعر القصصى

كان للسومريين ـ وهم سكان بابل الاقدمون ـ خيال خصيب . وقد طاب لهم أن يرووا القصص عن آلهتهم وأبطالهم ـ ولسنا نقدر فى هذا المجال أن نسرد كل أساطيرهم وأقاصيصهم الشعرية ، على أننا سنكتفى ببعضها، مما له علاقة بأسفار العهد القديم فى كتابنا المقدس .

١ — الخليقة :

تقول أسطورة سومرية قديمة ان نظام العالم الحاضر نشأ فى الأصل عن نزاع بين آلهة الشر والفوضى ، وآلهة النور والنظام . ولكن الكهنة البابليين

أعادوا كتابة المواد التي ورثوها، وجعلوا «ماردوخ» بطل النزاع ضد آلهة الفوضى، وخالق العالم والإنسان. وبعد أن رووا قصة مطولة عن هذا النزاع، ذكروا فيها أسماء الآلهة المتنازعين، انتهوا إلى أن «مردوخ» أمسك بزعيمة الآلهة «تيامات»، وشقها نصفين، وخلق بأحد النصفين القبة التي تمسك بالمياه فوق السموات، وخلق بالنصف الآخر الغطاء للعلق فوق المياه تحت الأرض. ثم أنشأ محطات للآلهة في السموات، وخلق الإنسان من دم أحد الآلهة الذين صرعهم. من ثم صار «ماردوخ» ربّ الارباب، وسيد الآلهة.

٢ — الطوفان:

قصة الطوفان الأصلية كانت سومرية، وكان مبعثها الاختبارات المريرة التي تذوقها القوم من الفيضانات الكاسحة لنهرى دجلة والفرات. وقد رُويت القصة في قصص شعرى مؤداها أن الآلهة استشاطت غضباً وحنقاً، وقررت أن تعاقب الانسان على شره وفساده بإغراقه بالطوفان. على أنها قد كشفت هذا السرّ إلى رجل واحد، فابتنى لنفسه فلكاً، ويقول الرجل في قصته:

«أدخلت إلى الفلك أسرتى وأهل بيتى، ومواشى الحقل، والوحوش، وعدداً من الصناع المهرة. ولما أنزل ربّ الظلمة مطراً غزيراً أغلقت باب الفلك، وراحت تزأر الرعود، وتبرق البروق، وأظلم الأفق بغمامات سوداء، واستمر تهطال المطر حتى غطى وجه الأرض، فخافت الآلهة وتسلقت الجبال، وصرخت «عشتار» كامرأة تعانى أوجاع المخاض . . .

«ولما اقترب اليوم السابع هدأت العاصفة، وكفّ المطر، وأمسى كل الناس طيناً، ففتحت النافذة، وأبصرت النور، ثم جثوت وبكيت وسالت الدموع على وجنتيّ. ونظرت إلى الأرض كلها فاذا هى بحر طامٍ. وبعد اثنى عشر يوما ظهرت اليابسة، واستقر الفلك على الجبل، فأرسلت حمامة طارت

هنا وهناك ، ولما لم تجد مستقراً عادت إلى الفلك . وبعـــدها أرسلت سنونوة ، فعادت أيضاً لأنها لم تجد مستقراً . وبعد ذلك أرسلت غراباً فلم يعد . . . . وسارعت إلى تقديم ذبيحة شكر على قمة الجبل . . . ».

٣ ـ هبوط عشتار إلى أرض الأموات :

هبطت عشتار إلى الهاوية لتنقذ حبيبها « تموز » الذى كان قد مات ، وهو إله الشمس والربيع الذى يخفت نشاطه عادة فى فصل الخريف . وإذ تقف عند الباب تأمر إلهة الموتى أن يُفتح لها . ولـكن إذ تجوز الأبواب السبعة ، يأخذ منها البواب عند كل باب قطعة من ثيابها لتدخل الدائرة الداخلية للعالم السفلى عارية تماماً . وهناك تبقى فترة من الزمن تتجرع فيها غصص الألم ، لأن إله الوباء يصيبها بستين مرضاً على التوالى ، وفى الوقت عينه يُصاب الناس والحيوان فى العالم العلوى بجدب وعقم ، ويهجر الحبّ والخصب الأرض ، فتغضب الآلهة الأخرى ، وتبعث برسول إلى الهاوية . وتأمر إلهة الموت ، وهى مكرهة ، أحد أعوانها أن يرشّ ماء الحياة على عشتار ، فتعود إلى الصحو والازدهار ، وتبدأ رحلتها إلى العالم الأعلى ، وفى طريق عودتها تسترجع عند كل باب قطعة الثياب التى أُخذت منها .

هـكذا كان الاقدمون يعللون اختفاء إلهة الخصب والحب عند حلول فصل الشتاء ، وعودتها فى فصل الربيـع .

الذبائح والسحر والتنجيم

لـكى يضمنوا نِعمَ هذه الحياة ، لجأ البابليون إلى كهنتهم لتقديم الذبائح ، وطلبِ التعاويذ والرقى ، والأدعية الطقسية ، وقراءة النجوم . وكانت الادعية والصلوات مطولة ، ولـكنها لينة عذبة تطرب لها الآلهة . وإذا لم تستجب الآلهة فى رقة وعطف ، كانت هناك التعاويذ والرقى ، قوية آمرة ، تخضع لها الارواح

الشريرة . وقد أغدق العابدون المال على كهنة عشتاروث لكسب رضاهم ، ولم يكن فى وسعهم إلا الدعاء والتضرع لإخراج الروح الشريرة من جسم الطالب .

أما الكهنة أنفسهم فقد كان لهم نظام محكم للقيام بخدمات كثيرة يقدمونها لعملائهم . وقد تلقنوا مدى الاجيال (منذ سنة ٣٢٠٠ ق ٠ م ٠) أن يؤدوا واجباتهم فى جمعيات (نقابات) هيكلية ، وقد كانت تلك وحدات قانونية تمتلك الاملاك والاموال ، وتُدار على الاصول التجارية فى الايرادات والمصروفات، التى كانت تكتب أرقامها على لوحات من الفخار . وكانت تلك الجمعيات تدير أبنية الهيكل الهائلة التى كانت تبنى من الطوب المجفف فى الشمس ، وتشمل مساحات واسعة ، فى وسطها يقف جبل صناعى قام فوق قمته معبد صغير. فى تلك الأبنية قام الكهنة بطقوسهم ، وفيها أنشأوا مدارس لتعليم الناس القراءة والكتابة والحساب ، وفيها أيضاً مارسوا العرافة لقراءة علامات الأزمنة والإنباء بالمستقبل .

وكانت العرافة من أهم وظائف الكهنة . وقد تخصص فريق منهم فى تأويل الاحلام والحوادث الطبيعية ، على أن أبرز أساليبهم فى العرافة كان التنجيم ، وهذه ترجع أصولها إلى السومريين، وكان لهم فى هذا المضمار القدح المعلى. وفى سبيل إحكام مانسميه بالأسلوب العلمى فى قراءة إرادات الآلهة فى أوضاع الاجرام السماوية ، احتفظ العرافون بسجلات دقيقة مفصلة عن حركات الأجرام السماوية ، فهدوا بذلك الطريق لعلم الفلك الحديث ، وابتكروا آلات فلكية لقياس أبعاد الفضاء وأزمنة الكواكب فى منتهى الدقة والضبط .

٣ — اليونان

رسم هوميروس الشاعر الأغريقى فى قصيده الرائع « الالياذة والاوديسا » صوراً براقة متلمعة لآلهة اليونان . وفى تصوره لم تسكن الآلهة تعيش فى أماكن منفصلة متباعدة، بل كان مقرها الرسمى فى « الأكربول » فوق جبل « الاوليمب ». وهناك نجد « زيوس » ملك الجو وصانع الأمطار ، (وهو بعينه جوبيتر عند الرومان)، أكبر الآلهة وأجلها شأناً ، وقد وفد من خارج بلاد اليونان وسلب سلطة آلهة محلية كثيرة ، وأخضعها لسلطانه ونفوذه .

وهناك أيضاً « هيرا » زوجته ذات الذراع الأبيض، وابنته المحبوبة ذات العيون الرمادية « أثينا » ربة الحكمة ، وإبنه المدلل « ابولو » الذى يبرىء ويؤذى ، وأرطاميس الإبنة الخجول التى كثيراً ما تختفى فى شعاب الجبل ومعاقله ، و « أريس » محطم التروس المحارب الصنديد ، وهو أيضاً من أبناء زيوس ، و « افروديت » إلهة الحب ، ابنة زيوس من زوجته « ديون » ، والتى تزوجت من أخيها لأبيها وهو إله النار والحديد الأعرج ، وهو ابن زيوس من زوجته « هيرا » التى خانته وعشقت « أريس » .

وهناك أيضاً « ديونسيوس » ابن زيوس من زوجته « سميل » . وأهم الجميع فوق جبل الأوليمب نجد « هرميس » ، المرشد السماوى ، الذى كان ثمرة الحب بين زيوس و « مايه » . وهو قبل كل شىء رسول الآلهة ، ولكنه ماكر حاد الذكاء ، ولا يتورع عن التواطؤ مع اللصوص حينما يخلو إلى نفسه ، كما يفعل عادة عند مغادرة « الأوليمب » لارشاد الأنفس من الهاوية واليها — ولا يفوتنا أن نذكر « بوسيدون » إله البحر، و « هيدس » إله العالم السفلى ، وكلاهما أخ لزيوس .

هذه هى أسرة آلهة الإغريق ، كما وصفها هوميروس شاعرهم القديم . وقد كانت آلهة القوى الطبيعية ، فى مستهل عصورها، ولكنها فقدت هذا السلطان

تدريجا . وارتقت وظائفها ولم تعد آلهة بدائية كتلك التى تمثلت فى الحيوانات والنباتات والأحجار ، ولم تعد شخصياتها قوة غامضة ، نذير شؤم ونحس ، بل قد خرجت إلى ضوء النهار ، وعُرفت أوصافها وأهدافها ، وتميزت بعضها عن بعض، وكانت تلك الآلهة فى الواقع رجالاً ونساءً من الأرض ، تشبعت نفوسهم بأفكار ورغبات وأمزجة وشهوات بشرية . ولئن حُسبوا من الخالدين ، فما كانوا مجهولين مرهوبى الجانب . ومن ناحية الفن والجمال كانت آلهة الإغريق جميلة فى شكلها، جذابة فى مظهرها، فاتنة فى سحرها، متحضرة راقية ، متناسبة الأوضاع والأحجام،أجمل وأروع من كل الخلائق البشرية.والحق كانت الصورة التى رسمها هوميروس للآلهة أثمن هبة قدمها للفنانين الأغريق فى الأجيال اللاحقة، فصاغوا الآلهة فى تماثيل من الرخام والبرونز ، متناسقة فى أشكالها ، بريئة من كل عيب جسمانى، تستلب الألباب، وتبهر الأنظار، وهى تطلّ من الأكربول بعيونها الناعسة الساحرة، جاثمة فى نوافذ وفوق أعمدة الهياكل ، كأنها سادة الأرض من عالم غير هذا العالم .

على أنه كان لهذه الآلهة سلطة عظمى على حياة الانسان ، للخير والشر على السواء. فبإرادتها كانت تسقط المدن، ويموت الناس، وتهزم الجيوش. وقد أدرك الناس انه يقتضى القيام بطقوس الذبائح التقليدية فى كل مناسبة ، والا صبّت الآلهة جام غضبها على الأهلين . ومع كل هذا فإن قوة الآلهة كانت محدودة إلى حد كبير ، وكان هناك مَن هو أقوى من زيوس ، أى قوة القضاء والقدر التى لا ترحم . وهذه لا تقف وحدها ، بل تعمل معها قوى خفية غامضة : الحماقة العمياء، والرعب ، والنزاع ، والفوضى ، والإشاعات ، والموت . فالآلهة — وإن تكن قوية — محتواة فى نطاق الطبيعة والتاريخ ، وليست قواها بلا حدود ، وإن تكن فى ذاتها خلائق فائقة للطبيعة .

دين اليونان وشعراء التراجيدى (المأساة)

تدور روايات (التراجيديا) التى وضعها فطاحل شعراء اليونان — أشيلس

وسوفوكليس ويوربيدس ـحول موضوع خطـــير ، هو أن مصائب الناس والنائبات التى تحلُّ بهم ، انما هى القضاء الرهيب الذى تنزله الآلهة . هذا ما فصلته الأساطير القديمة منذ القديم ، على أنه لم يكن واضحاً ، هل كانت تلك الآلهة مسوقة بهدف عادل وإرادة حرة ، أم كانت خاضعة لأحكام القضاء والقدر المتصلبة التى لا تلين ، والتى يخضع لها حتى الآلهة أنفسهم، وهم خدامها ومنفذو أغراضها طوعاً أو كرهاً . وقد تصدى أولئك الروائيون الفطاحل لمعالجة المشاكل الإنسانية التى أثارها هذا الاضطراب الفكرى ، وفى قصَصهم الروائى الشعرى أبدعوا صوراً فكرية لا مثيل لها فى الأدب القديم .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد رفع أشيلس وسوفوكليسَ مرتبة الإله زيوس، وأحلّوه مكانة عليا، كمنفذ للعدالة العالمية. أما الآلهة الأخرى فبقيت إلى جانبه ، خاضعة لإرادته ، يسيطر عليها باسم العدالة التى يفرضها بقوته وسلطانه . ولم يعد القضاء والقدر قوة عمياء .

وأشيلس بالذات يضع زيوس فى مكانة علياء ، بحيث إما يأمر قوة القضاء والقدر ، أو تستجيب هى لخدمته وتنفيذ مقاصده . والواقع أن زيوس نفسه هو الذى كان يبعث بالقوى المنتقمة لعقاب خطايا الناس وذنوبهم، التى تكدست جيلاً بعد جيل من فعال الخاطئين المذنبين .

أما سوفوكليس الحكيم، ذو القلب الرقيق الحنون، فقد خلع على أخلاق زيوس بعضا من صفاته الإنسانية الخاصة، وراح يرطِّب أحكام زيوس الإله العظيم بعناصر الرحمة والحنان ، وكان اشيلوس قد رسمه قاسيا رهيبا فى غيرته الأخلاقية .

وبعد قرن من تاريخ هذين الشاعرن ، يجىء يوربيدس ، وقد أشبع عقله وفكره بالشكوك التى ولدتها سفسطة السفسطائيين، أوجرأة العقلاء المفكرين، وراح يرفع صوته مشككاً الناس فى طاعة الآلهة ، بل ذهب إلى أبعد من هذا الذى فى التساؤل حول عدالة الآلهة ونزاهتها وأمانتها . ولئن لم يكن

زيوس واحداً منها ، فقد تهجم فعلا على ابولو وافروديت وغيرهما من الآلهة الصغار . وكثيراً ما أشفق فى قصائده على الإنسان المنكوب البائس، الذى قذفت به الآلهة الظالمة القاسية إلى هذه الأرض .

على أن يوربيدس لم يجحد الآلهة كلية ، ويبدو أنه كان يبحث عن فكرة عن الله، بريئة من أخطاء الاساطير والتقاليد.

الفلاسفة والآلهة

اتضح منذ البداية أن فلاسفة الاغريق ذهبوا إلى أبعد مما وصل إليه هوميروس . وقد بدأت الفلسفة اليونانية بنظرية وحدة الكون ، أى أن كل شيء فى الكون — فى وضع ما أو آخر — من عنصر واحد . وقد قال بعضهم ان هذا العنصر هو الماء ، وقال آخرون انه الهواء ، وقال غيرهم انه النار . ومهما يكن ، فقد اتفق الجميع على أن هذا العنصر يتضمن قوة الإبداع الإلهية. أما الفيلسوف «زينوفانس » فقد قال ان القوة الخلاقة هى « إله واحد اعظم من جميع الآلهة والناس ، لايحا كى الإنسان الفانى ، لا فى شكله ولا فى عقله ، يرى كل شيء ، ويعرف كل شيء ، ويسمع كل شيء . ولكن الناس ارادوا أن يروه على شاكلتهم، فصنعوا له اجساماً بشرية».

أما الفيلسوف افلاطون فقد انتقد فى « جمهوريته » الفكرة البشرية فى تصوير الآلهة ، وخشى النتائج السيئة فى تلقين الشباب هذه الاساطير الهوميرية فى أوضاع غير نقية . كذلك انتقد الاديان السرية ، وذلك لأنها لاتمارس العدل حباً فى العدل ذاته ، بل لكى تظفر بالمنافع والفوائد التى « تزخها السماء من عليائها على المتقين » .

ولم ينكر افلاطون وجود الآلهة ، ولكنه قال انها ليست ضالة عنيدة كما صورها هوميروس ، ولا منساقة وراء العدالة المتحيزة كما صورتها الاديان السرية. إنما هى مسئولة أمام قوة عليا ، ومعتمدة عليها فى اداء وظائفها ، وأن

فوقها ، ووراء كل المخلوقات والأشياء ، خالقاً أو صانعاً ، اتصف بـكل القيم والـكمالات السامية ، هو الخير ذاته الذى عرف منذ البدء للمُثـل العليا — التى لم يخلقها هو — تلك المثل التى ألهمته ليخلق عالمًا بما فيه من جبال ، وسهول ، وبحار، وآلهة ، وبشر ، وحيوانات . وهو الذى جسَّم الخير والجمال والحق فى درجات متفاوتة . أما الإنسان فهو نفس فى جسد ، وتفتقر نفسه إلى النمو والتطور نحو « الخير الاسمى »، بحيث لايضطر إلى معاناة الولادات المستمرة من خليقة إلى أخرى ، بل تنطلق نفسه تواً إلى تلك الحالة التى تقدر فيها — مثل الله — أن تشاهد المثـل العليا، وتستمتع بها فى كامل حقها وجمالها وخيرها . أما الآلهة فهى راغبة — من جانبها — عن تلك العبادات الخرافية والطقوس السحرية التى وضعها الناس مغالاة فى تـكريمها ، ولـكنها راغبة فى أن يرعى كل إنسان نفسه رعاية صالحة ، ويسعى جاهداً نحو الخير الاسمى الذى نصبه الله الاله الأعلى أمام عينيه .

وقد رسخت هذه العقائد فى ذهنه وقلبه ، حتى لقد أصرّ فى شيخوخته على أن الإلحاد ، أو الزعم بأن الله لا يكترث بالإنسان ، أو أنه يمكن استرضاؤه بالهدايا أو التقدمات ، كلها مشحونة بالخطر الداهم على المجتمع .

ويمكن الإسهاب طويلاً فى الحديث عن آراء أفلاطون وأترابه من الفلاسفة ، ولـكن حسبنا أن نشير فى كلمة ختامية إلى أن أرسطو الفيلسوف لم يجد فى مطارحاته الفلسفية ضرورة لآلهة اليونان التقليدية ، ولـكنه فى تفكيره عن الـكائن الأسمى ، جعل الله « المحرك الاول » ، أى محرّك كل الأجسام فى السماء وعلى الارض، يجذبها إلى نفسه ، وهو ثابت لايتحرك .

وقد تحرر أرسطو، والرواقيون ، والافلاطونيون الحديثون — شأنهم شأن أفلاطون — من القيود التى قيَّد بها أنفسهم مواطنوهم الاقل شأناً ، وهم يجاهدون سعياً وراء حياة أكثر ملئاً ، وأوفر حرية ، وحكمة أعظم شأناً وأجلّ قدراً .

٤ ـ الرومان

إن ما قلناه عن دين اليونان ، يصدق أيضا على دين الرومان . وذلك لأن الكتابات الكلاسيكية المتأخرة لا ترسم لنا البدايات الأولى التي بدأ بها القوم عباداتهم. ولا بدّ للباحث أن يعود إلى الوراء ، إلى الآراء المستوردة من مصر والشرق الأدنى، وإلى الآلهة المقتبسة من الدين اليوناني ، والثقافة اليونانية .

بدأ دين روما القديمة ، مثل المدينة ذاتها، بداية وضيعة. فقد كانت الأماكن المقدسة خارج تخومها ، فالإلهة ديانا عُبدت في كهف فوق جبل بعيد عنها ، وكان هيكل جوبيتر في مقاطعة أخرى لا تمتّ لها بصلة. وقد خلع الرومان على آلهتهم الأولى صفات وخواص غامضة مبهمة ، فلا شخصية تميّزها ، بل لم يميزوا بين الذكر والأنثى من هذه الآلهة. ولم يعرف الدين الروماني القديم أساطير عن الآلهة ، ولا من أين جاءت ولا كيف جاءت . ولم يكن بين تلك الآلهة تزاوج ولم تلد أنسالا ، ولم يكن في الدين أبطـال نسجت حولهم القصص والأساطير ، كما فعل هوميروس مع اليونان .

ولم يرسم الرومان صوراً لآلهتهم ، ولم يصنعوا تماثيل ، ولم يخلعوا عليها شخصيات معينة إلاّ مؤخراً، بعد أن تلقنوا ذلك من اليونان . وكانت في بادىء الأمر مجرد أرواح وقوى عاشت في الحقول والمزارع . وذلك لأن الرومان شغلوا في أول عهدهم بالزراعة وإنجاب الأطفال والحرب .

دين الدولة الرومانية في بكور عهدها

تطورت العبادات والعقائد الريفيـة الزراعية ، ونسّقت في نظام محكم . وكان لكبار الآلهة كهنة لكل منها ، ولكن الحفلات الدينية القومية لم تكن دائما موكولة إلى أولئك الكهنة ، ففي عهد الملكية كان الملك هو رئيس الكهنة يتولّى كل الحفلات الهامة .

وكانت تلك الحفلات ـ أو الأعياد القومية — عديدة ، قيل إنها كانت ١٠٤ عيداً فى العام ، وفيها كانت تجرى مراسم معينة وتقدم الذبائح والتقدمات.

وهنا قد نسأل : ما هى الآلهة التى كانت تقام لتكريمها تلك الحفلات ، وهنا نرانا أمام سلسلة عجيبة من أسماء الآلهة القومية ، يبلغ عددها ٣٦ إلهاً نذكر منها على سبيل المثال : يانوس Janus ـ جوبيتر Jupiter ـ مارس Mars نبتون Neptune ـ فينوس Venus ـ أبولو Apollo ـ مينرفا Menerva — ميركورى Mercury .

جوبيتر :

وهو زيوس عند اليونان ـــ لايعرُف له أصل تاريخى . ويقال إنه وفد إلى إيطاليا من فوق الجبال كما فعل فى بلاد اليونان . ثم امتص خواص ووظائف الآلهة المحلية الصغرى ، وصار إله الرعد والبرق والمطر ، ولأنه كان إله النور أيضاً، كانت أيام اكتمال البدر مقدسة له . وهو الذى سبق وقدّر مصائر الناس . وقدَّم لهم ايماءات من نور للدلالة على أحداث المستقبل بعلامات فى السماء وطيران الطير .وكان البرق فى يده سلاح تأديب وانتقام للشر والأشرار، وذلك لأنه كان قيماً على شرائع الدولة وأحكام العدالة. وقد بنى له الرومان هيكلا فوق الكابيتول. وفى العصر المتأخر جعلوه حارساً لرومية ، فكان له نصيب فى الأمجاد الإمبراطورية التى اعتزت بها المدينة ، وخُلعت عليه ألقاب تدل على العظمة والنصر ، والقوة والقهر . وكان يتعبد له الولاة وحكام الاقاليم قبل مباشرة وظائفهم . وكانت مواكب الانتصار التى يتقدمها قادة الحرب بعد عودتهم من معارك النصر ، من أروع وأبهى المشاهد فى عاصمة الامبراطورية ، تزدحم فيها الطرقات بجماهير الشعب هادرة بأصوات كالرعد ، حاملة الغنائم والأسرى إلى هيكل جوبيتر .

الاله مارس :

هو إله الحرب وقد كان فى الأصل حامى الحقول والقطعان من القوى المعادية ـ

من حيوان أو إنسان أو قوة فوق الإنسان ، ولكنه اقترن بالحرب ، وتغيّرت طبيعته، بعد امتداد الإمبراطورية الرومانية .وقد خلّف لنا أحد الكتاب وصفاً لطبيعة مارس الهادئة الناعمة قبل أن يصير إله الحرب والنزال ، يرسم فيه الكاتب موكب فلاح وأسرته يدور حول تخوم مزرعته ثلاث مرات ومعه خنزير وخروف وثور ، وهى الضحايا التى كان يقدمها للإله ، مقترنة بسكاتب من الخمر ، وأدعية فى ذلة واتضاع .

أما وقد صار إله الحرب بعد ذلك ، فإن الرومان شيدوا له مذبحاً فى وسط مدينة رومية . وكانت رموزه المقدسة الرمح والترس ، وكان الذئب حيوانه المقدس ، وبعض صغار الآلهة خدمه وعبيده .

الاله يانوس Janus

كان حارس الباب ، يُطلب فى الواقع عند البدء فى أى عمل أو مشروع . كان إله البدايات ، الساعة الأولى فى اليوم ، اليوم الأول فى الشهر ، الشهر الأول فى السنة . ولذلك سمِّى الشهر الأول من السنة على اسمه « يناير January » أما شعاره الأصلى فى رومية فكان « بابا » لاغير ، قام عند الزاوية الشمالية الشرقية ، فى الساحة الكبرى بالمدينة .

الأترسكيون Etruscans

يقول المؤرخون ان « الأترسكيين » بسطوا نفوذهم وسلطانهم على رومية فى القرن السادس قبل الميلاد . وأولئك وفدوا إلى رومية على سفن من شرق البحر الأبيض المتوسط ، وسرعان ما استولوا على كل السلطة وأخضعوا الرومان الأصليين ـ وكانوا على جانب عظيم من النشاط والجد فى العمل ، ومن عشاق التجارة وحسن التنظيم والتدبير ، فاقاموا سوراً حول رومية لحمايتها من الغزاة ، وأدخلوا آراء جديدة على دين الرومان ، وحملوا معهم آلهة جديدة ،

دون أن يعتدوا على العقائد والطقوس القائمة ، وابتنوا هيكلا للالهة « ديانا » فى أشهر مواقع رومية ، وهيكلاً رائعاً من صنعتهم للآلهة جوبيتر ، ويونو ، ومينرفا ، وأقاموا تماثيل للآلهة ، وكانوا هم الذين ابتدعوا هذه الفكرة .

وفى وضع جوبيتر ، ويونو ، فى هيكل واحد ، نرى بداية لفكرة التزاوج بين الآلهة ، فقد أعتبر الاثنان زوجاً وزوجة ، وكانت هذه الفكرة غريبة على الرومان لم يألفوها من قبل . وغدت الإلهة « يونو June » ربّة النساء والبنات وكان يُطلب عونها ساعة الولادة .

أما الإلهة « منيرفا » التى جاء بها « الاترسكيون » ، فكانت تشبه فى أخلاقها « أثينا » إلهة اليونان . وكانت ربة الحكمة وراعية الفنون والآداب . وعلى مرّ الزمن كان الرومان يلتمسون عونها فى زمن الحرب ، لذلك كانوا يمثلونها مرتدية خوذة ودرعاً ، وفى يدها رمح وترس ، كما كانت تفعل شبيهتها اليونانية .

الرومان يقترضون من اليونان

وبينما كان سلطان رومية السياسى يزحف نحو الجنوب فى ايطاليا ، كانت الثقافة اليونانية تزحف من الجنوب إلى الشمال . وقد تأثر الرومان أيما تأثر بالطقوس اليونانية ، وكانت مشبعة بالحماس والخيال والروعة التى افتقر إليها دين الرومان . وقد أبدى الرومان رغبة حارة لاقتباس الآراء اليونانية الدخيلة ، دون المساس بآرائهم وعقائدهم القديمة ، وانضمت إلى آلهتهم ، أرباب أخرى مثل هرقل ، وديونسيوس ، وابولو ، وهرمس ، وأفروديت .

وكان من جرّاء هذا كله أن أضيفت أبعاد جديدة إلى دين الرومان . ويقول أحد المؤرخين انه فى سنة ٣٩٩ق . م . تفشى فى رومية وباء شديد الوطأة ، فأقام الرومان وليمة فاخرة استضافوا فيها أبولو ، وهرقل ، وديانا ، وميركورى ، ونبتون ، لاسترضائهم جملة واحدة ، وإلتماس تدخلهم لرفع الوباء . وتدريجاً راح الرومان يخلعون على آلهتهم صفات وخواص انسانية .

وإلى جانب هذه الآلهة المستوردة ، شغف الرومان بالأساطير والقصص اليونانية ، فاستعادوا بعضاً منها إلى المشاهد الايطالية وأدمجوها فى تاريخهم ، وأعادوا نشرها فى نماذج جديدة لتكون جزءاً من التراث الرومانى .

استيراد من الشرق

لم تكن تلك الملحقات التى أضيفت إلى العقائد الرومانية منحرفة كثيراً عن الاتجاهات الثقافية العامة التى ظهرت فى الحياة الرومانية . على أننا سنجىء الآن إلى متجهات فكرية غامضة خفية . وذلك لأن رومية ، فى تطورها لتغدو قوة دولية مناضلة فى سبيل السيادة على حوض البحر الأبيض المتوسط ، تقف وجها لوجه أمام ثقافات وعبادات تختلف كلية عما ألفته وعهدته فى موطنها . ووقف أهلوها ، الذين كانوا قد بعدوا عن الحياة الريفية الزراعية فى أوائل عهدهم ، واعتنقوا فكرة حضرية إمبريالية — أمام أفكار غريبة خفيت عليهم معانيها ومراميها ...

وكانت الممارسات الرومانية القديمة قد بدأت تخيّب آمالهم ، ولا تنسجم مع عقليتهم الجديدة . وأخذوا يحسُّون بشىء من الجدب والإمحال فى نفوسهم الداخلية ، وتاقوا إلى إشباع من نوع آخر يُخصب أفكارهم وخيالاتهم ، ويجعل للحياة معنى وقيمة . قد راودتهم الشكوك ، فنشطوا للبحث عن أديان وعقائد جديدة .

من ثمّ عكف الرومان على إستيراد الثقافات والأديان السرية لعلهم يجدون فيها إشباعاً عاطفياً لنفوسهم الجائعة . ومن تلك الأديان السرية التى استوردوها دين « باكوس » ، السرّى ، وهو (ديونسيوس) بما حوى من طقوس وممارسات سرية . وقد أقبل الرومان على هذه العبادة ، لا فى رومية فقط بل فى كل أنحاء إيطاليا . على أن الطبقات المثقفة عافت السّرية فى كل أوضاعها وارتابت منها أشد ارتياب ، ولم تتقبل إلاّ أبشع ما فيها ،وهو حفلات السكر

والخلاعة والعربدة . لذلك سنّ مجلس الشيوخ الرومانى قراراً فى سنة ١٨٦ق.م بالغاء هذه العبادة ، على أنها عادت إلى الحياة مرة أخرى ، وسُمح لها بالبقـــاء تحت رقابة شديدة من الدولة .

وفى السنوات التاليات حطّت فى رومية آلهة وعبادات شرقية أخرى ، وبلغت شأواً رفيعاً فى نفوذها وقوة تأثيرها ، نذكر منها « ما » من كبدوكية ، وأدونيس من سوريا ، وايزيس وأزوريس من مصر ، ومثرا من بلاد فارس — كل هذه الآلهة دخلت إلى رومية ، وقد قدَّم كل منها ، على مقتضى عبادته ، إختباراً دينياً وعقيدة فى الخلود كانت تنقص دين الدولة الرومانى ، وكان ذلك الدين قد انحدر إلى الحضيض بعد أن تولاه الساسة اللادريون ، والـكهنة الذين فقدوا إيمانهم واهتزت عقائدهم .

المرحلة الأخيرة

إن تاريخ دين الرومان فى خلال القرن الأخير من عهد الجمهورية (١٥٠ــ ٤٩ ـــ ق . م) يصوّر لنا قوى متنابذة تتحرك الى اتجاه مضاد تماماً للاتجاهات فى العصور الأولى ـ لم يكن الإتجاه جذباً الى مركز الدائرة بل ابتعاداً عنها وخروجاً على المألوف المتواضع عليه من عقائد وممارسات . وكان دين الدولة قد أصيب بنكسة ، وراح يهوى الى الدنى ، وأمسى مجرد أوضاع شـكلية جافة فارغة لاحياة فيها. وصارت رومية إلهاً تعبد ذاتها (Dea Roma) ، فما حاجتها بعد إلى هذه الآلهة القديمة التى لم تَرو لها ظمأ . أما الطبقات المثقفة ، التىأثارتها ـ أو خدعتّها ـ الفلسفة اليونانية ، فقد راحت تسعى فى طريق الإلحاد الذى ولجه الإبيقوريون ، أو مذهب الحلول الذى نادى بها الرواقيون ، وإلاّ فالى مهواة الخيبة وعدم الا كتراث وإغفال كل دين ـ ولنا فى موقف الفيلسوف شيشرون مثال نموذجى : فهو قد مال إلى الفلسفة الرواقية ، ولـكنه لم يحدد موقفه ، وراح يعرج بين آراء وعقائد كثيرة ، لأن شكوكه سدّت عليه كل

المنافذ . وكان الدين فى نظره متعة للنقاش على موائد الطعام ، أو فى مسامرات الأصدقاء إبان الفراغ . وفيما عدا العنصر السياسى الكامن فى الدين الذى كان بمثابة رابط سياسى ، فانه (أى الدين) لم يكن ذا شأن ولا قيمة للمفكر الحصيف.

وبعد إنقضاء جيل من الحروب الأهلية التى هدّت الأعصاب ، حاول أوغسطوس قيصر أن يعيد العالم إلى حالته الطبيعية بإحياء الممارسات الرومانية القديمة ، وترميم هياكل رومية المهدمة ، وحثّ الناس على الانخراط فى سلك الكهنوت ، وبناء هياكل جديدة . على أنه هذا كله لم يكن كافياً . لأن أثره لم يتعدَ رومية ، وحتى هنا لم يلقَ إلا استجابة خافتة . وقد عرف أغسطوس قيصر النفع السياسى الذى قد يعود عليه إذا ما حسبه الناس إلهاً خارج رومية ، وذلك لأن العالم افتقر إلى قوة ، إلى عبادة تربط أجزاءه معاً، وظن فى نفسه أن «عبقرية » البيت الأمبراطورى قد تكون أفضل السبل لتحقيق هذا الهدف . ولتشجيع هذا الإحساس شيّد أوغسطوس هيكلا فى ساحة رومية ، وزوده بكهنة اصطفاهم خصيصاً ، وكرسه ليوليوس قيصر أبيه الذى كان قد تبناه ، وكان مجلس الشيوخ الرومانى قد خلع على يوليوس قيصر لقب « إله » فى سنة ٤٢ ق . م . أما عن نفسه فقد اكتفى أوغسطوس بإقامة معابد صغرى تُعبد فيها فيها « عبقريته » (لاشخصيته) . هنا كانت بداية عبادة الإمبراطور . وقد كان من إمارات الولاء للامبراطورية فى الأقاليم الخاضعة لرومية أن يقدّم الناس الإكرام والتوقير « لعبقرية » الإمبراطور ، وأحياناً للأمبراطور نفسه . ولئن يكن أغسطوس قد أبى فى حياته أن يتلقى التكريم لشخصه ، فإن إسمه قد خلد بعد موته بين الآلهة ، وأقيم هيكل تكريماً له ، وكهنة للعبادة فيه . ولم يلقَ هذا التكريم كل الأباطرة الذين خلفوه ، على أنه على مرّ الزمن ، صار تكريس الإمبراطور كإله جزءاً من مراسم جنازته الإمبراطورية . وأخيراً وضعت هالة الألوهية على كل إمبراطور قبل موته، ومن بينهم كاليغولا ودومتيان ،

وهما اللذان ولغـــا من دماء المسيحيين ابان الإضطهادات المريرة التى اشتعلت نيرانها بسبب رفض المسيحيين السجود أمام تمثال الإمبراطور وتقديم العبادة له.

أما نيرون الطاغية فقد طاب له أنه يجعل نفسه معادلاً للاله أبولو .

أحسّت الإمبراطورية ، وهى تجاهد فى سبيل الاتحاد والتضامن ، انها جدّ مفتقرة إلى أكثر من مجرد الشرائع الشكلية والحكومة العادلة ، ولم يكن بد من وجود ولاء مشترك ، وتوقير موحد ، لمن هو أسمى الكل . وحين رأى القوم أن كثرة الأديان وتعدد الآلهة تبعثر الأفكار ، حاولوا تجميعها وتوحيدها فى شخص الإمبراطور . على أن هـذه الفـكرة لم تلق التوفيق لأنها لم تـكن جامعة شاملة ، ولم تقدر أن تربط الإنسان والمجتمع والـكون فى رابطة واحدة وهدف واحد ، وفشلت فى أن ترتفع فوق مستوى العقائد الدينية الـكثيرة التى اكتظت بها منطقة البحر الأبيض المتوسط آنئذ ، ولم يكن بها من القوة ما يكفل تغيير القلوب والعقول .

ولا غرو أن الصفات الجوهرية والحوافز الأخلاقية الدافعة لا تخلقها العقائد البسيطة الساذجة . وقد اثبتت الحوادث ــ فى رومية ، كما فى مصر وبين النهرين واليونان ــ أن الدين القومى المنبثق عن مزج الآلهة بعضها ببعض من هنا وهناك لم يكن إلا محاولة وقتية ، ولم يلبث طويلا حتى استسلم خاضعاً إلى دين آخر ، أعمق معنى ، وأقوى أثراً ، وأوسع مجالا . .

وكانت المسيحية هى ذلك الدين الذى ترقبته الأجيال المتعبة اللاهثة ، وهو الدين الذى يربط الإنسان والمجتمع معاً ، بل يربط الإنسان وأخاه فى الإنسانية والـكون كله تحت سلطان إله واحد . .

وسنرى فى غير هذ المـكان كيف انتصر هذا الدين فى العالم المتحضر يومئذ .

الأديان السرية

كان فى العالم القديم قول شائع « من الشرق يجىء الخلاص » . ولم يقصد الأقدمون بكلمة «الشرق» الهند والصين واليابان ، بل شرقهم هم ، الذى شعَّت منه أنوار الحضارة أصلا ، وهو الطرف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، الذى نسمِّيه اليوم « الشرق الأدنى » . وإلى هذا « الشرق » الذى ضمَّ مصر وفلسطين وسورية والعراق وبلاد فارس ،تطلع العالم القديم فى القرن الأول قبل العصر المسيحى وبعده ترقباً للأديان الجديدة . وإذ لم يكتف الناس بطقوس الدولة الباردة ،ولم تقنعهم الأساطير الريفية الساذجة ، وقعوا تحت سحر عبادات الشرق القديمة وطقوسها الخلابة . ومع أن مجلس الشيوخ الرومانى حظر فى أول الأمر إدخال الأديان الشرقية إلى رومية ، فإنه اضطر فى آخر الأمر إلى الخضوع تحت ضغط المطالب العامة الملحة . وكإنسان عليل يلجأ إلى كل علاج جديد أملاً فى الشفاء ، تهافت العالم القديم على كل دين جديد يتخيل فيه بعض العون وإشباع رغباته .

وكانت تسمَّى تلك الأديان الشرقية أدياناً «سرية» ، لأنها كانت فى الواقع جمعيات دينية سرية ، وكان التعليم الدينى فيها سراً لا يُلقن إلا للأعضاء . ويمكن تشبيهها الى حد ما بأنظمة المحافل الماسونية التى تشمل طقوساً وقصصاً لا يعرفها الا المنتمون اليها . وكان على العضو أن «ينضم» الى الدين فيطلع على أسراره . وكان كل الأعضاء يؤلفون أخوية مرتبطة بروابط الشعور الدينى .

وكان لكل الأديان السرية مظاهر مشتركة خاصة ، تركزت حول حياة وآلام بطل ما ، بلغ طور الألوهية والخلود بعد أن عانى آلاماً ظالمة . ويمكن لأعضاء الدين السرى أن يشاطروا بطلهم هذا الفوز على متاعب الحياة ومشقاتها والظفر بالخلود النهائى، إذا هم اعتصموا بإلههم البطل ، ومارسوا طقوساً ورسوماً

معينة . وقد حاول الدين السرى أيضاً أن ينظم حياة أعضائه ، فكان « طريقاً للحياة » ، لا وضعاً فقط من أوضاع العبادة . وفى بعض الأحيان ـ كما فى الأديان السرية اليونانية القديمة ـ تضمنت «طريق الحياة» هذه ، الفضائل السامية وحياة فاضلة . ومن الأسباب التى جعلت هذه الأديان السرية مقبولة لدى العالم القديم أنها قدمت للناس ارشاداً للحياة العملية ، وهو أمر يظمأ اليه الجميع .

وكانوا يجتمعون عادة فى هيكل وأما كن للعبادة تحت الأرض فى أغلب الأحيان ، ولم يكن يُسمح للدخول فيه لغير أعضاء الدين . وفى المكان المعين كانت تجتمع الجماعة للاحتفاء بنصر إلههم البطل ، ولممارسة طقوس تضمن لهم مشاطرته هـذا النصر . وكانوا فى أحيان كثيرة يرتدون ثياباً خاصة ويقومون بمراسم للتطهير المقدس . وفى أحيان أخرى يستسلمون إلى هوس دينى فيرقصون فى الشوارع وينشدون أغانيهم المقدسة . وكل هـذا لـكى يكفلوا الانطلاق من متاعب الحياة وهمـومها ، ويضمنوا السعادة والغبطة فى الحياة الأخرى ، وهو ما تصبو اليه نفوس البشر .

وأشهر هذه الأديان السرية وأكثرها شيوعاً كان مصرياً فى أصله . وكانت بطلة هذا الدين إيزيس ، إحدى إلاهات وادى النيل قديماً . وتروى القصة أن زوج ايزيس ـ وهو أوزوريس ـ قتله خيانة أخوه ست ، فراحت ايزيس تبحث عن جسده الميت حتى وجدته بمعونة ولدهـا حورس ، وأخـيراً صار أوزوريس خالدا وقُبل فى زمرة الآلهة . وتدريجاً تعالت إيزيس على أوزوريس وخسفته وصارت هى وولدها حورس مركز الدين السرى . وكان يعبدهـا النساء خاصة . وأكبر دليل على شيوع هذه العبادة فى العالم القديم أنه وجدت تماثيل لإيزيس بعيدة عن موطنها مصر ـ فى أحواض أنهار السين والدانوب والرين ، وبنى لهـا هيكل كبير فى العاصمة رومية ، وانضم الى عبادتهـا كثيرون من أفاضل المواطنين فى رومية يومئذ ، وأُحصى بينهم كثيرون من المثقفين ، وذلك لأنه قد عثر على رسالة بعث بها الشاعر اللاتينى تيبولوس إلى

خطيئته ، وكان قد أصيب بمرض فى أثناء حملة حربية ، يقول فيها : « ماذا تفعل بى ايزيس الآن يا دليا . . العون ايتها الإلاهة » .

وإلى جانب ايزيس كانت آلهة مصرية أخرى كثيرة ، بينها سيرابيس الذى دفنت عجوله المقدسة فى مدافن سقارة ، وانوبيس وهو إله له رأس كلب.

وجاء أحد تلك الأديان السرّية من بلاد فارس . وقد أقيمت أصوله على المتاعب التى عاناها ، والنصر الذى ظفر به ، بطل شاب يداعى مثراس . وكانت عبادته شائعة فى الجيش الرومانى ، فعبدته كتائب كاملة من الجيش . ومن أهم الظواهر فى ذلك الدين ، الطقس الذى كانوا يسمونه الغسل بدم الثور . فكان يوضع كل راغب فى الانضمام لهذا الدين تحت (طبلية) من خشب وقف عليها ثور حىٌّ . وبعد تلاوة الكلمات المقدسة والقيام بالطقوس المقدسة ، كان يذبح الثور ويتساقط دمه على الشخص الجالس تحته ، وبهذا الطقس كانوا يزعمون أنه قد صار للعابد بطريقة سرية ، نصيب فى حياة مثرا الإلهية ، وحق فى الخلود . وقد عثر على قبر لعضو من أعضاء هذا الدين نقش عليه « ولد ثانية يغسل دم الثور للابدية » .

وكانت هناك أديان سرية أخرى كثيرة نشأ معظمها فى رقاع الأرض التى نسميها الآن تركيا وسورية ومصر . وكان شائعاً للإنسان أن ينتمى لاثنين أو ثلاثة من تلك الأديان للتأكد من الضمان . وكان فيها بعض المثل العليا ، ولكنها حفلت بالسحر والشعوذة والخرافات ، واستندت إلى قوة الألفاظ والطقوس المقدسة . والأشخاص الذين حيكت حولهم مراسم العبادة كانوا أشخاصاً خرافيين خياليين لا وجود لهم البتة فى التاريخ . ولم تشبع تلك الأديان الرغبات والأشواق الدينية فى العالم القديم ، بل كانت أشبه بأدوية الدجالين وأدعياء الطب التى يُستساغ مذاقها ، ويرجى منها الخير الكثير ، ولكنها لا تعالج أصول الداء .

أديان الهند

تمهيد

إن شعوب الهند ـ بحكم طبائعها وأمزجتها ـ لا تجد إشباعاً فيما تقدمه حياة الدنيا . فالحياة الجسمانية فى نظر تلك الشعوب ثانوية ، تفضلها حقائق العقل والروح . كذلك لم يروا فى عالم الطبيعة وللمادة الإمكانيات الكافية التى تروى ظمأ عقولهم وأرواحهم ، وحسبوا هذه المظاهر كلها خداعاً باطلا ، وتاقت نفوسهم إلى الخلاص من العالم المادى، ومن مظاهره الخادعة واختباراته المضللة . أما الحقائق الثابتة التى تضمن لهم إشباعاً باقياً خالداً ، فقد جاهدوا لعلّهم يعثرون عليها فى العالم العقلى الروحى . ومن هنا نشأت معتقداتهم فى ناموس « الكرما » وتناسخ الأرواح ، كما سنرى فيما بعد .

والهند بلاد قديمة ، تقطنها شعوب عريقة ، فقبل سنة ٢٠٠٠ ق. م. كان يقطنها ـ وخاصة فى الجنوب ـ قبائل بدائية ، من ذوات الشعر المجعد ، والثقافة الفطرية ، وما تزال بقاياهم مبعثرة فى الغابات والحراج فى جنوب الهند ووسطها . أما فى الشمال والشرق فقد تنازعت ملكيتها قبائل ذات أصل منغولى ، وفى مناطق نهر « الأندوس » سكنت قبل سنة ٢٥٠٠ ق.م. شعوب

مختلطة فى أصولها وسلالاتها ذات حضـــارة برونزية ــ أى من العصر البرونزى .

وحوالى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد هبط إلى بلاد الهند من معابر جبالها الشمالية قبائل من سلالة مختلفة ، هى التى كان مقدّراً لها أن تقهر الهند ، وتصنع تاريخها ، وتصيغ أديانها وثقافتها . وكان أولئك من ذوى القــامات الفارعة ، والألوان الفاتحة ، وقد أطلقوا على أنفسهم لقب « الآريين » وهم من السلالات عينها التى رحلت من أواسط آسيا إلى شمال أوروبا وغربها وشمالها ، وبامتزاج دمائها بلغاتها كونت شعوب اليونان ، واللاتين ، والألمان ، والـكلت ، والصقالبة .

وقد دخل إيران فرع آخر من هذه السلالة عينها ، وكانوا كلهم من الآريين الرحل ، وفى هبوطهم من هضاب آسيا افترقت جماعات عن الأخرى ، فنزل بعضها جنوباً إلى إيران ، ورحل غيرهم إلى الهند جنوباً وشرقاً ، وقد تولدت على مرّ الزمن فوارق بين الإيرانيين ، وبين الهنود الآريين فى اللغات والعادات والأديان ، كما نشهد ذلك جلياً فى التفاوت بين دين الفرس (زرادشت) ، وبين الهندوسية ، على أنه يمـكن تتبع للمتشابهات الأصلية بين الفريقين بدون عناء فى اللغة والدين .

وكان لـكل قبيلة من القبائل التى نزحت إلى بلاد الهند ملك أو رئيس يسمونه «الراجا» . وكانت وظيفته وراثية . وعلى مسار التاريخ اتسعت سلطة هذا الملك بانضمام الأقاليم المتاخمة إلى دائرة ملـكه ، وامتاز عن سائر المواطنين بملـكيــة قصر ضخم ، وحاشية كبيرة ، ومظاهر براقة ، وجيش مقاتل لحمـايته وشعبه ، ولفيف من الـكهنة لضمان الخيرات الإلهية على رعاياه ، وتزكية الآلهة لأعماله وتصرفاته . وإلى جانب المحاربين والـكهنة جماهير غفيرة من الفلاحين والرعاة الذين كانوا يزرعون الأرض ويربون الماشية .

الهندوسية

(وهى دين الغالبية فى بلاد الهند)

من ألذ البحوث وأمتعها فى عالم الدرس ، البحث فى أديان الهند . والهندى بطبيعته إنسان متدين يشغف بالروحانيات كما قلنا . ونحن إذا راقبنا عن كثب مفكريها وزهادها ، وكيف يصارعون مشاكل الحياة والموت ، ويسعون دائبين إلى معرفة الله ، لا يسعنا إلا الإعجاب بزهـــد الألوف والربوات من شعوبها وتقواهم وورعهم .

وفى بلاد الهند أديان كثيرة . ولـكن الهندوسية (Hinduism) هى دين الغالبية . وليس لها مؤسس يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها . ولـكنها دين التطور ، وبين ثناياها وثنية ساذجة ، وآراء فلسفية سامية ، وزهد صادق ــ كل هذه ممتزجة معاً بحيث يصعب الإلمام بالدين كله جملة واحدة .

الـكتب المقدسة : Vedas

قلنا انه فى تاريخ بعيد يرجع إلى سنة ١٥٠٠ ق. م. أخذ قسم من الجنس الآرى يستوطن الأقاليم الغربية فى بلاد الهند . وذهب قسم آخر إلى بلاد فارس، فـكأنهم من السلالة عينها التى أنتجت أجناس الـكلت والتيوتون والصقالبة. أما دين أولئك المستوطنين الأولين فنجده فى أناشيدهم المقدسة Vedas .

وآلهتهم هى الطبيعة والسماء واله المطر واله النار وما شاكلها . والهندوسية دين فرح متهلل، ويخيّل الينا أن أتباعه يعيشون دائماً فى ربيع العالم ، وآلهتهم متلمعة براقة ، ويلتمس الأتباع منها أن يعيشوا مائة من السنين ، ومن ثم يترقبون الانطلاق للقاء أحبائهم فى السماء .

وتقرب بعض أناشيدهم الى الوحدانية . ونرى فى شكل اله السماء Varuna

آثاراً لبداية الإعتقاد بفكرة إله أدبى ، التى كان يحتمل أن تتطور الى فكرة روحية رفيعة الشأن .

ويتجه الميل عندهم الى التفاضل بين آلهتهم المختلفة ، والتفكير فى كل منها بدوره كأنه أسمى من غيره . وما تزال فكرة تعدد الآلهة هى الغالبة حتى اليوم فى الهندوسية . ومع أن دين الكتب المقدسة Vedas قد اندثر تماماً فى بلاد الهند ، فإن الكتب ذاتها ما برحت موفورة الكرامة تُتلى بعض آياتها فى العبادة والحفلات .

والكلمة Veda تشير إلى الكتب القديمة التى يرجع تاريخها إلى ٨٠٠ ـ ٥٠٠ ق. م. وعنها تطور ونشأ العنصر الكهنوتى ، وارتقت الناحية الفلسفية فى الدين . ولم يلبث الدين الآرى الساذج حتى استحال إلى دين قوامه الذبائح والطقوس . ومما يقال ان الكتب البرهمية شملت من مصطلحات «الذبائح» أكثر مما جاء فى كتب اليهود ، أو أية مؤلفات أخرى. وأما الطقوس فوراءها رغبة التملص من الخطية والتصالح مع القوة السامية فى الكون أينما كانت . ومع تطور فكرة الذبائح تطورت الفكرة عن الله ، فهو الآن فى نظرهم جوهر الكون والحقيقة بأكملها ، السائدة كل الأشياء والمتداخلة فى كل الأشياء ، والاسم الذى يطلق عادة على هذا الجوهر غير الشخصى هو «براهما Brahma» ويسمى أيضاً «Paramatma أو الذات السامية» . وليس لهذا الجوهر صفات ولا يوصف إلا بأوصاف السلبية — أى لا يقال عنه انه صالح أو عامل ، لأن هذه الأفكار جامدة ومعينة وثابتة ، والروح اللانهائى يمسى محدوداً متى أطلقنا عليه هذه الأوصاف . والكلمة التى تطلق عادة على النفس البشرية Atma تدل على أن تلك النفس مقترنة ومتحدة بالذات السامية Paramatma ـ و «براهما» هذا ليس خالقاً ، فهو فكرة ذهنية أكثر منه إرادة عاملة ، وإنما يُظن أنه خلق العالم على النحو الآتى :

أخذ براهما يتأمل ويفكر ، وعن تفكيره هذا نشأت بذرة مخصبة ، تطورت إلى بيضة ذهبية ، ومن تلك البيضة ولد براهما (مذكر) خالق كل الأشياء . وهذه الفكرة صعبة معقدة أمام عقل القارئ ، ولكن حسبنا أن نقول هنا إن جوهر الكون ـ الله ـ عندهم هو إله غير شخصى « impersonal » ومع هذا البراهما « غير الشخصى » تقترن النفس البشرية وتتحد فيه .

وهذه الأفكار الدينية الفقهية مضمرة غير محدودة فى كتبهم المقدسة القديمة ، ولكن المفكرين المتأخرين هم الذين صاغوها أفكاراً فى نظام متلاصق . وماتزال هذه الكتب المقدسة المصدر القديم الذى يلجأ إليه المفكرون ورجال الدين .

نظام الطبقات :

ولا بد من كلمة هنا عن كيفية نشوء البراهمة وظهور الطبقات . فالبراهمة كما يؤخذ من مدلول اسمهم يتصلون فى طبائعهم بالعنصر الإلهى . فهم كهنة الأمة لا تجوز الذبائح إلا فى حضرتهم وعلى أيديهم . وهم شعب مختار يقضون حياتهم تحت شروط صارمة وفى مظاهر عابسة . والحق أن تطور البراهمة قد استغرق أجيالا طوالا ، ونشأ عنه مساوىء شنيعة ، ولكن لباب الفكرة هى إنشاء كهنوت ملكى لا يتدنس بلمس الخلائق الوضيعة ، كهنوت مفروض عليه الحياة المقدسة الطاهرة .

والبراهمة هم أسمى الطبقات . أما الطبقات الأخرى فكانت فى الأصل (المحاربين) و (التجار) و (الخدم) . وقد كان المحاربون أولا أسمى الطبقات وأرقاها ، فحل البراهمة محلهم . ويرجع هـــذا التمايز بين الطبقات إلى العصور السحيقة . ولعله راجع إلى رغبة الغزاة الآريين القدماء فى حفظ سلالتهم نقية ، فلا يدنسها الامتزاج بالسكان الوطنيين فى بلاد الهند ، وهم جنس يختلف عن جنسهم ، أسمر منهم فى اللون وأحط فى درجة الرقى . والطبقات الثلاث العليا تمثل الأقسام الثلاثة الأصلية للهيئة الاجتماعية فى عصورها الأولى ، وأما الطبقة

الدنيا فهم الخدم والأجرى فى الهيئة . وبعد هذه الطبقة الدنيا يجىء المنبوذون فى نظـام الطبقات (outcastes) — وهم فى الأصل فريق من سكان البلاد الأصليين حالت وضاعتهم دون اعتبارهم حتى بين الطبقة الدنيا من الخدم والأجراء. وقد قضت الهندوسية فى عصورها المتأخرة أن يوكل إلى البراهمة دون سواهم الوظائف الكهنوتية التى تفرضها الكتب المقدسة . وليس معنى هذا أن كل البراهمة منخرطون فى سلك وظائف الكهنة ، ولكن هذه الوظائف لا تعطى لغير رجالهم . ونظام الطبقات هذا ، بما انطوى عليه من الحظر الدينى فى امتزاج الناس بعضهم ببعض ، والإحساس الحاد السوى بالميزة الاجتماعية واللونية ، هو الرابطة التى تقوى الوشائج بين الهندوس فى الهند ، وهو فى الوقت نفسه الحائل القوى دون تقدم الهند ورقيها . فالإنسان قد يولد فرداً فى طبقته ، أو قد يولد منبوذاً من كل طبقة . وفى أحياء كثيرة يعتبر مجرد لمس المنبوذ دنساً ورجساً فى نظر آخر من أبناء الطبقات . وفى أحياء أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص إذا مرّ به المنبوذ على بعد بضعة أمتار . وفى كل مكان ترى قواعد صارمة تمنع المؤاكلة بين أبناء الطبقات المختلفة ،أو تناول طعام لمسته أيدى أحدهم . والخطر كل الخطر فى مخالفة هذه القواعد . أما التزاوج بين الطبقات فقد حرم من زمن بعيد ، وما يزال هذا الحرمان قائماً فى أشد أوضاعه .

والحق ان لنظام الطبقات فى بلاد الهند على ما هو عليه من صرامة وجمود أبعد الأثر فى حياة الشعب الهندى . فهو يقضى بإقصاء خمسين مليوناً من المنبوذين عن الحياة العامة اقصاء تاماً . وهو ظل قاتم يتبع المرء من يوم مولده إلى يوم حتفه . فهو قد يفكر ما شاء له التفكير ، ولكنه يوم يعتدى على قواعد نظام الطبقات ، فقد أمسى لساعته طريداً محتقراً Pariah لا يُقام لوجوده وزن بين أسرته وأصدقائه والذين عاش فيما بينهم ، أمسى كلباً منبوذاً شارداً outcaste .

تعاليم ثلاثة خطيرة : تجوال الروح ، الأعمال ، الانطلاق .

وعلاوة على الكتب الهندية المقدسة وما احتوته من الأحكام والأناشيد ،

فهناك فِكَر ثلاث تؤثر أعمق الأثر فى العقلية الهندية ـ أولها فكرة **تجوال الروح** . فهم يعتقدون أن الارواح جائلة متنقلة فى أطوار شتى من الوجود . تنتقل من جسد إلى آخر ، سواء أكان فى الإنسان أم الحيوان ، فى طريقها إلى هدفها الأخير . وهذه الفكرة التى تُعرف عادة بتناسخ الأرواح ، والتى لها نظائر فى كثير من بلدان أخرى ، متأصلة تأصلا عميقاً فى قلب الهند .

أما الفكرة الثانية فهى فكرة **الاعمال** (Karma) ،وهى متممة لفكرة تجوال الروح . وهى لا تعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة التى تتنقل فيها الروح ،بل تبين أيضاً شرائط هذا الميلاد ، وما يستتبعها من عدم المساواة الصارخة فى المصير البشرى . وتقوم النظرية على أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتما ، وأن كل شيء يختبره الإنسان فى كل طور من أطوار الوجود المتكررة ، تقرره الأعمال التى يأتيها فى الوجود السابق ، وهى بمثابة كفارة .

والكرما معناها العمل . وفى هذه الحالة العمل الذى لا بدّ منه فى الحياة . فهناك ناموس جامد للعلة والمعلول ، للعمل والجزاء . وقد عرف الهنود الآريون ـ كما عرف العبرانيون فيما بعد ـ أن الجزاء فى هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع العمل ولا يتكافأ معه . لذلك ابتكر الهنود نظرية تناسخ الأرواح لحلّ هذا الاشكال، فجسد الإنسان وأخلاقه ومولده وثروته واختباره وسعادته وآلامه ـ هذه كلها جمّاع الجزاء الذى تستحقه أعماله التى أتاها فى وجود سابق ، صالحة كانت أو شريرة .

والأعمال التى يأتيها المرء فى وجوده الحاضر ، صالحة كانت أو شريرة ، تهيء طوراً جديداً للتكفير والاستغفار . وكأن كل إنسان مربوط إلى عجلة تدور دورات متتاليات لتقرير مصيره المحتوم فى نهاية الأمر . وهو لا يقدر أن يوقف أو يبدل عملية هذا التطور والدوران المستمر ، ولا يمكن لأى إنسان آخر أن يعينه فى ذلك . ولناموس « تجوال الروح » الآن ـ أو على الأقل كان

له من قبل ـ قيمة أدبية خاصة إذ ينطوى على مسئولية أدبية ، ولـكنه يسلب الحياة معناها ويجردها من كل أمانيها الإجتماعية . فـكل فضيلة ، وكل تضحية للذات ، يجب أن تتجه إلى خدمة النفس وخيرها دون سواها . ثم أن فـكرته فى النظام الأدبى لا تعدو خد العقوبة أو المثوبة ، أما فـكرة افتداء النفس أو غفران آثامها فبعيدة عن هـــذا الناموس كل البعد . وكأن الله قد ربط كلاً منـا إلى عجلة دائرة تتناوبها الأفراح والأحزان ، ويبقى هو بعيداً عنها لا دخل له فيها .

ومن نقائص « الـكرما » أيضاً أن الذاكرة لاتتخطى الثغرة القائمة بين وجود وآخر . وقد قيل ان هذا التعليم يعنى « أن مايزرعـــه الإنسان إياه يحصد » ، ولـكن من المتعذر علينا حقاً أن نرى القيمة الأدبية فى عقاب يحل بحياة عن أعمال فى حياة سابقة لها ، إن لم يكن هناك شعور يقرن الحياتين معاً .

أما الفـكرة الثالثة ، أو التعليم الثالث ، فهى فـكرة **الانطلاق** ، وهى تمثل محاولة النفس الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها . فالحياة الشخصية فى عرف القوم شر وأسر وخداع . أما الحياة الحقة فهى استجلاء طلعة « براهما » التى لاتـكتسب إلا بالاندماج فيه ، كما تندمج قطرة الماء فى المحيط الخضم . وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج فى الـكائن الأسمى . وهذا الانطلاق لن يكتسب بالأعمال ، لأن الأعمال الصالحة تنتج ثمارها عن طريق الميلاد المتـكرر ، كما تفعل الأعمال الشريرة تماماً . إنما يجىء الانطلاق عن طريق الاستنارة الإلهية . وقد أفسد هذا ما فى « تجوال الروح » من القيمة الأدبية . لأن الأهمية معلّقة على فضائل التصوف والزهد ، وليست على الأعمال الصالحة التى لاينشأ عنها إلاميلاد أفضل ووجود أرقى من الوجود السابق الذى كان عليه الإنسان ، وليس للأعمال الصالحة شأن فى الإنطلاق المروم . إنما عن طريق التأمل والزهد تقف دورات الحياة ، ويبطل تطور الوجود ، ويتحد الإنسان بالله .

مؤثرات البوذية

ثم ننتقل إلى نواح أخرى : فمن سنة ٥٠٠ إلى سنة ٢٠٠ ق . م . قامت البوذية فى بلاد الهند وترعرعت . ولعلَّ نهوضها فى تلك الفترة من الزمن يرجع إلى تمرد القوم على إجراءات رجال الكهنوت وسوء استعمال سلطتهم ، ولو أن هذا ليس من الأمور المؤكدة على وجه التحقيق . ولم يُعنَ بوذا بالله ، إنما عُنى قبل كل شىء بطريق الحياة السوىّ . والواقع أن ماتضمنته الهندوسية من فضائل ، كدعة النفس ، وبساطة الحيـاة والتواضع ، ترجع فى اكثر إلى مؤثرات بوذا . وإليه أيضاً يرجع الفضل فى احترام حياة الحيوان ، فإن فكرة الامتناع عن ذبح الأبقار وأكل لحمها التى يعتنقها كل هندوسى يرجع تاريخها على الارجح إلى ذلك العصر البعيد من الزمن .

ظهور فكرة التجسد

وقد كان للاحتكاك بين البوذية والهندوسية أثر آخر على الأخيرة . فإن ماانطوت عليه البوذية من الإلحـــاد والآداب الباردة لا يُرضى الإنسان العادى ولايشبع شيئاً من حاجات نفسه الدينية . وكان هذا ، مع المؤثرات الأخرى ، حافزاً للهندوسية لأن تخرج فكرة « المظاهر المتجسدة للآلهة « incarnations » وهى فكرة لم تظهر فى الوجود إلا حوالى سنة ٥٠٠ ق م. أى بعد غزو البوذية لبلاد الهند . وقامت هذه الفكرة على أن Vishnu الإله الحافظ و Siva الإله المدمّر — كوّنا بالاشتراك مع « براهما » ثالوثاً بدت مظاهره المتجسدة فى أوضاع شتى . وكان من نتيجة ذلك أن عُبد Siva إله الدمار تحت اسمه وأسماء أخرى بالاشتراك مع زوجته Kali . وأكثر عبادة هذا الإله قائمة على البطر والفسق . ومع ذلك فقد نشأت فى جنوب بلاد الهند جماعة عمدت إلى كتابة مؤلفات خشوعية دينية حول اسم Siva هى أنبل ما أخرجته بلاد الهند من الكتب الدينية . أما الإله Vishnu فله مظاهر

متجسدة كثيرة : أهمها فى : Rama و Krishna — وقد جاءت قصة Rama وزوجته فى إحدى أقاصيص الهند الشعرية العريقة فى القدم . وأما المظهر المتجسد الآخر Krishna فقد جاءت روايته وقصة شعرية أخرى يعجب بها الهندوس أيما إعجاب ، ويعدّونها « جنّة رائعة قد نضجت ثمارها اللذيذة ، وأينعت أزهارها الفياحة ، ترويها ينابيع دائمة على مدار السنة » .

وفى أواخر تلك الفترة من الزمن ظهرت مؤلفات اصطبغ فيها « كرشنا » بألوان مختلفة . وهو فى تلك المؤلفات المظهر المتجسد للشهوة . وكان لأقاصيص غرامه أعمق الأثر فى إفساد حياة الملايين فى بلاد الهند . وهذا مثل على فساد فكرة التجسد عند القوم . فقد كانت سلاحاً خطراً ، وخول أبطالها ومظاهرها صنّف الناس أقاصيص شتى صالحة وشريرة على السواء . أما الحق التاريخى فقلّما أعاره القوم شيئاً من عنايتهم . وكان من جراء ذلك أن اندمج فى سجل الآلهة عدد لاحصر له من صغار الآلهة تتفاوت أقدارهم الأدبية . فأخذت الهندوسية فى التدهور والانحطاط .

ثالوث الآلهة

وهنا لابدّ لنا من وقفة لنستزيد من موقفنا عن هذه الآلهة الثلاثة :

براهما

هو الخالق بين الآلهة الثلاثة ، ولكن لايعبده إلاّ الأقلون . ولست تجد فى طول البلاد وعرضها أكثر من اثنى عشر معبداً أقيمت لتكريمه . ويقال انه بعد أن خلق العالم ، تنحى عنه ، ويرسمونه فى الفن الهندى شخصية ملكية ذات أربع رؤوس ،وهو يقرأ فى أسفار « الفيدا » ، ويظهر راكباً أوزة بيضاء برية رمزاً لوحدته ووحشته .

سيفا

هو أحد الآلهة الذائعة الصيت فى قارة آسيا ويسمونه « الإله الكبير » .

أما صفاته وخصاله فهى مزيج غريب، بعضها فتان لامع، وبعضها أسود داكن .
فهو الإله « المدمّر ، المهدد ، المكدّر ، القاتل ، الذى يصيب الناس بالمحن والبلايا » ، هو جالب الأمراض والموت ، وهو الذى يقف عند حرق جثث للموتى ، وهناك يكون موضع التكريم والتوقير .

وكان فى الأصل إلهاً جبلياً ، مهمته التدمير والقيام بالغارات المخربة على السهول والأودية ، ولكن الذين أمكنهم التوغل إلى معاقله الجبلية ، استكشفوا أنه يُنمى هناك أعشاباً دوائية فيها شفاء للناس . من ثم لم تكن وظيفته التدمير فقط ، وكان مجيئه أحياناً « بركة متخفية » ، حتى لقد اعتقد القوم أنه كان يدمّر لكى يخلق الشىء جديداً . أليس موت النباتات وجفافها مقدمة لأنواع جديدة من الحياة والاخضرار . ألا يؤمن القوم أن الموت إن هو إلاّ انطلاق إلى حياة جديدة . إذاً لم يكن الإله سيفاً كله شراً ، بل قرنوه بكل أوضاع الإنتاج الجديد ، فى حياة النبات والحيوان والإنسان .

ولهذا السبب رسموه بعين ثالثة ، عمودية فى جبهته ، وصوروه بجسد أزرق وحلق قاتم ، تحيط به الثعابين . ويظهر فى بعض صوره وله خمسة أو ستة وجوه للدلالة على وظائفه الكثيرة ، وصفاته المتنوعة المتناقضة .

وغريب حقاً أن نجد هذا الإله راعياً وشفيعاً للزاهدين والمتصوفين والقديسين . وكثيراً مايصورونه هو نفسه فى موقف المتأمل المفكر العميق ، وقد تلطخ جسده بالرماد والهباب ، وعقص شعره على طريقة الزاهدين .

أما الفكرة الفلسفية وراء هذا كله ، فهى أن الزاهد المتصوف « يدمر ذاته الدنيا لكى يفسح المجال ويمهد الطريق لذاته الروحية العليا » . فالجسد يُذل ويهان لكى تتحرر النفس من كل العواطف والميول والشهوات الدنيوية . ومرة كتب أحد فلاسفتهم يقول .

« إن عبادة الإله سيفا فكرة فلسفية حافلة بالحق والقوة ... القوة التى تدير

الكون ، التى تخلق وتدمر . وما الخلق والتدمير إلا مظهر ان لتغيير مضطرد ..
الخالق هو المدمر ، لا فى غضب وعنف ، بل بحكم طبيعة نشاطه ... فالبيضة تُدمر
متى فقس الكتكوت ، وجرثومة الجنين تمدم متى وُلد الطفل . ومتى كبر
الرجل ، زالت عنه ضعفات الطفولة » .

فشنو :

أما الإله الثالث فهو «فشنو» الحافظ ، وهو دائماً محسن ، جواد ، القيم على المثُل العليا ، والعامل على تحقيقها . وعلى نقيض «سيفا» المركب تركيباً غريباً ، هو النموذج الكامل للمحبة الإلهية ، يرقب من علياء السموات ، وحين يرى شيئاً يهدد القيم العليا أو يعرض الخير للخطر ، يستخدم كل قواه ونفوذه لإسنادها . ولذلك تعبده الجماهير وتؤثره على « سيفا » ، ويستمتعون بالقصص العذبة عن نشاطه وخدمته التى روتها أساطير الكتب المقدسة « الفيدا » ، ويرسمه الهنود عادة بأربع أذرع ، يمسك باليدين صولجاناً وقرصاً من حديد ، رمز قوته الملكية ، وباليدين الأخريين يمسك صدفة بحرية وورقة اللوتس رمزاً لقوته السحرية ونقاوته الطاهرة ، وفوق رأسه تاج وإكليل .

تجسدات فشنو :

تقول التقاليد ان « فشنو » تجسد فى أوضاع كثيرة ، فهو قد تجسد مثلا فى «سمكة» أنقذت الإنسان الأول من طوفان أهلك البشر أجمعين ، وتجسد فى «سلحفاة» أعانت الآلهة على تمخيض شراب الخلود وغيره من المنتجات القيِّمة. وتجسد فى « دب » رفع بأنيابه الأرض التى كانت قد غاصت فى قلب البحار . وتجسد مرة أخرى فى « أسد » مزق شيطاناً كان قد أراد قتل ولده ، لأنه قدم الدعاء للإله فشنو . وتجسد مرة فى « بوذا » وهو مؤسس البوذية . ولعل تجسده فى بوذا ، كان مناورة بارعة للتوفيق بين الهندوسية والبوذية .

على أن أهم تجسداته ، كانت فى «راما» و « كريشنا » . وراما هو الرجل

المثالى الكامل فى القصص الهندوسى ، وزوجته هى المرأة المثالية . وتقول الأسطورة ان زواجه السعيد من «سيتا» الأميرة الفاتنة قد أعقبه متاعب جمة، ذلك أن الملك الشيطان Ravana فى سيلان، قد اختطفها بالخديعة والغواية وحملها إلى وطنه. وفى ضيق شديد خانق لجأ «راما» إلى معونة الإله القرد Hanuman (وهو أول جاسوس بوليس سرى فى تاريخ الكتابات العالمية ، وقد صار إلهاً يعبده الهندوس) . ومضى هذا الإله يبحث من فوق رؤوس الأشجار عن سيتا حتى عثر عليها. ثم أثار «راما» حرباً شعواء على الإله الشيطان حتى قتله ، وبعد أن جازت «سيتا» فى تجربة من النار محرقة لإثبات طهارتها انضمت إلى زوجها. ولهذا السبب يعبد الهنود « راما » بكل توقير كبطل ، وإله متجسد يمثل فشنو ، بل هو فى نظرهم أكبر الآلهة جميعاً .

وحول عبادته قام حوار لاهوتى شيق ، فقالوا ان « راما » إله مخلص بحكم طبيعته واختباره ، ولكن هل يخلص على أساس طبيعة القرد ، أم طبيعة القط ! أى بتعاون الإنسان معه واستمساكه به ، كما يتعلق القرد بأمه حين يقفز من شجرة إلى شجرة، أم باستسلامه إليه كما تستسلم القطيطة لأمها، وهى ممسكة بها بين فكيها ؟ ! لقد انقسم العابدون فريقين ، فريق يتبع سياسة القرد ، وفريق آخر يتبع سياسة القط ! .

وعلى الرغم من عظمة « راما » ، فإن كريشنا أحب منه إلى الناس ، كإله متجسد . وهو فى الواقع يمتاز بشخصية مركبة ، تبدو بمظهرين مختلفين ، ليس من اليسير التوفيق بينهما . فبعض الأقاصيص الشعبية تصوره بطلا حربياً قاسياً صارماً ، يحاول توجيه أنظار الناس إلى « فشنو » الإله الأكبر ، الذى هو تجسده. وبعض الأقاصيص الأخرى تصوره شاباً مرحاً طروباً ، وفى هذا الوضع تعبده يومياً ألوف من نساء الهند. وفى أقاصيص أخرى يصورونه راعياً للبقر ذا فتنة وجاذبية يمسك بمزمار بين شفتيه ، وينشد أعذب الأناشيد التى يهواها الفتيات اللواتى يحلبن الأبقار .

عبادة الرجل العادى

إن الرجل العادى فى بلاد الهند يدين بتعدد الآلهة، وهو يختار من بينها إلهاً أو إلهة، شفيعاً له يضع صورته أو رمزه فى بيته، ويردد إسمه فى الشفق والغسق، فى إكبار وتقدير، وفى الوقت نفسه يكرم كل الآلهة التى يحسبها فوق الطبيعة، والتى يبلغ عددها ٣٣٠ مليوناً !! وأمام هذا العدد الهائل من الآلهة، ينتقل القروى من مزار إلى مزار حسب حاجته. فإذا أراد قضاء حاجة أو إزالة صعوبة، راح يعبد الإله الفيل ابن سيفا. وإذا رام قوة بدنية لعمل ثقيل، مضى يعبد الإله القرد. وفى حالة موت أبيه، يمضى لعبادة الإله راما. وإذا رغب فى صيانة نفسه من الأمراض الوبائية، أو السلامة فى رحلة، أو التمتع بحظ سعيد، مضى إلى آلهة أخرى. ولا تقتصر عبادته على المزارات المتفرقة لمقار الآلهة، أو أمام تماثيلها فى داره، بل قد يعبد فى أى مكان، وقد يرى الحجارة المستديرة المنتشلة من قاع النهر المقدس، والموضوعة على جوانب الطرق رموزاً للإله سيفا، وفى الأشجار المزدانة بالأصباغ القرمزية رمز الخصب والنماء، وفى الكهوف المظلمة رمزاً لإله الموت، وهكذا.

ولا يكتفى الهند العادى بهذا كله، بل تتوق نفسه إلى الحج لزيارة الأماكن المقدسة، حيث يلتمس البركة والخير. والحق ان ملايين من الهندوس يلقون فى الحج رضاء دينياً تغتبط له نفوسهم وتقرُّ به عيونهم. وقد تكون هذه الأماكن المقدسة بقاعاً معينة فوق الجبال أو فى السهول، حيث توجد صخور نسجت حولها الأساطير عجائبَ الأرواح وخرافات الأقدمين. كذلك يعتبر الهندوس بعض أنهارهم مقدسة، حيث توجد مواقع معينة وهيا كل على طول مجارى تلك الأنهار يقف الهندوس أمامها خاشعاً متعبداً، متأثراً بقصص الأقدمين وأساطير التاريخ. ومن عادتهم أن يلقوا الأزهار فى تلك الأنهار، ويستحموا بمائها المطهر، ويحملوا بعضاً من هذه المياه فى أوعية ليتناول منها الموتى عند انطلاقهم، أو استعمالها للشفاء من بعض الأمراض.

وأقدس أنهارهم، نهر «الكنج» . وترجع قدسيته إلى اسطورة تقول انه ينبع من أقدام الإله ، « فشنا » فى السماء ويسقط على رأس « سيفا » ، ثم يخرج من شعر رأسه ! على أن مدينة « بنارس » هى أم مكان يدلف إليه الحجاج لغسل خطاياهم وذنوبهم . وحين يرون قباب الهيكل من بعيد ينبطحون على الأرض ، ويهيلون تراب الأرض على رؤوسهم علامة الإستسلام الروحى . ثم يتقدمون فرحين للاستحمام فى النهر . ويعودون إلى ديارهم واثقين أن كل ذنوبهم قد غُسلت . وإذا قدِّر لأحدهم أن يموت فى تلك البقعة بعد التطهير، فإن هذا فضل عظيم تغدقه عليه الآلهة ، إذ ينطلق توًّا إلى حياة الغبطة والهناء فى فردوس الإله « سيفا » .

البقر فى بلاد الهند

من المشاكل التى تعانيها الهند الآن تقديس البقرة والامتناع عن إيذائها أو ذبحها . وأن المرء ليعجب حين يرى ملايين الملايين من الأبقار الهائمة (يقال ان فى الهند ٣٠٠ مليون من هذه الابقار) — حتى فى شوارع المدن الهامة — بين شعب يشعر بوطأة المجاعة ، ويعانى من الفقر والضيق مايعانيه . ولكن وراء هذه العقيدة تجثم فكرة فلسفية على عادة أهل الهند فى تأويل معتقداتهم . وقد قال المهاتما غاندى نفسه تعليقاً على تقديس البقرة :

« ان حماية البقرة فى نظرى من أعجب المظاهر فى التطور الإنسانى ، وذلك لأنها تحمل الإنسان إلى ما هو أبعد من نوعه . والبقرة تمثل فى نظرى عالم مادون الإنسان كله . وعن طريق البقرة ، يحمل الإنسان نفسه واحداً مع كل حيوانات الأرض . . . فهى أم ملايين من الجنس البشرى الهندى — هى عنوان الإشفاق والرفق ، وحمايتها تعنى حماية الخلائق البكماء كلها » .

وهنا نستشفُّ رقة فى الشعور بلا ريب ، وندرك بعض المعانى لهذا الرمز . ويقول الهندوس ان تقديس البقرة أكثر إنسانية من تقديس القرد أو الأسد

أو النسر . على أن المثقف الهندوسى العام لا يرتفع إلى المستوى الفلسفى الذى شرحه غاندى هنا . فالهندوس قديماً عبــدوا البقرة . وقيل فى أساطيرهم انها أقدس جميع الحيوانات ، كل جزء فيها يسكنه إله من الآلهة ، وكل مايخرج من جسمها من فضلات مقدس ، وبولها من أقدس أنواع السوائل ، يطهر كل شيء يلمسه . بل يستخدمون روثها بعد مزجه بالماء كعقاقير طبية ، وغسل مساكنهم لتطهيرها !

وذبح البقرة حتى اليوم من الجرائم الشنيعة . وكثيراً ما ثار النزاع بين الهندوس والمسلمين بسبب ذلك ، وأدى إلى مجازر بشرية . وفى بعض رقاع بلاد الهند تنال البقرة ، فى بعض المواسم ، التكريم الذى يُخلع على الآلهة ، فتعلَّق ضفائر الزهور حول أعناقها ، وتسكب الزيوت فوق جبهاتها ، والمياه عند أقدامها ،وتمتلىء عيون المشاهدين بدموع الحنان والعطف والامتنان .

وإذا ما وافت المنية إنسانا ، فى بعض المناطق الريفية ، يُمسك بذيل بقرة مربوطة إلى سريره ،لكى يضمن لنفسه عبوراً سهلا من هذه الحياة إلى الأخرى. وإذا لم تسع غرفة نومه بقرة ، يمسك بحبل مربوط إلى ذيل بقرة خارج غرفته !

الهندوسية الحديثة

فى الهندوسية الحديثة نهضتان بارزتان . أولهما تعاليم Vedanta . فإنه فى الخمس مائة سنة مابين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ب م. لم يُعرف إلا القليــل عن تاريخ الهندوسية . ولــكن ظهر فى القرن التاسع زعيم دينى يدعى « سنكاراشا » ، فنادى بما ظنه المبادىء الطاهرة النقية المنطوية تحت الأناشيد الدينية التى تضمنتها كتبهم المقدسة Veda ، وأطلق على نظامه اسم Vedanta وهى الفلسفة التى يشغف بها الهندى المثقف فى هذا العصر . وبراهما فى نظر هذا الزعيم هو الحق ، والأنفس المفردة واحدة فيه . فإذا ما فرغت سلســلة التوالد ، وأبطلت الروح

تجوالها من وجود إلى آخر ، اندمجت فى براهما وصارت واحداً فيه . ويضيف الزعيم إلى ذلك أن الكون ليس حقيقة غامضة مبهمة وحسب ! بل هو وهم وخداع وطيف زائل ، وأنفس الأفراد مندمجة فى الحقيقة مع براهما . وهذا الطيف الزائل ، أى العالم ، هو الحجاب الوحيد الذى يحول دون تحقيق هذا الاندماج وتوحيد الذاتية . والخلاص يجىء عن طريق هدم هذا الحجاب ، وتبديد هذا الخداع المضلل والطيف الزائل. وقد تملكت هذه الفلسفة من عقل الهندوسى واحتلت هذه الفكرة — فكرة وهمية الكون وزواله — مكانة سامية فى تفكير الهنود ، بحيث أضحت تسير جنباً إلى جنب مع التعاليم الثلاثة الأخرى وهى : تجوال الروح — وتأثير الأعمال — وانطلاق النفس أخيراً .

وأما النهضة الثانية فهى فلسفة الخشوع والتعبد Bhakti التى ظهرت فى الفترة ما بين ١٤٠٠ و ١٨٠٠ ب. م. وتقترن بأسماء ثلاثة من كبار الزعماء الذين أسسوا مذاهب السكيين وغيرهم . وهم قد أدخلوا إلى الفلسفة الهندوسية التى تدين بكائن أسمى غير شخصى ، لاذات مستقلة له — فكرة الإله الشخصى الذى يليق له التعبد والخشوع . ولعلهم تأثروا فى ذلك بالآراء الإسلامية التى كانت قد ظهرت فى الهند فى ذلك العصر . ونبغ بين دعاة هذه الفلسفة قديسون أظهرهم « تولسى داس » الذى عاش فى القرن السادس عشر ، والذى نقل الأقاصيص الدينية المقدسة إلى لغة عامة الشعب ، فتناولتها العامة وراحت تنشدها فى قرى الهند ، وتتلوها فى كل مكان ، وتمثلها فى الأعياد والمواسم .

وكان أولئك القديسون ، بما أدخلوا على الديانة الهندوسية من فكرة الإله الشخصى الذى يليق له التعبد والخشوع ، أسمى مَن مثلوا فكرة الإيمان بالله فى بلاد الهند ، وهم ينتمون إلى طبقات مختلفة ، وكثيرون منهم من عامة الشعب ، فبينهم النساجون وصانعو الفخار الذين خلوا من المواهب سوى الإلهام الدينى . وكان بعضهم من المصلحين حقًّا الذين نبذوا الأوثان ، وفوارق

الطبقات ، ومجرد الطقوس الظاهرية ، وأحسوا بوجود الله إحساساً غريباً . وهم قد آمنوا بإله سام ، ولو أنهم فى بعض الأحيان قد أخرجوا أفكاراً غشيمة فجّة ، وعزوا بعض الأفكار الروحية المتعلقة بالله إلى أشباح ورموز غير لائقة .

ولقد أصرّ أولئك القديسون للتعبدون Bhakti على النعمة التى قد تكون تمهيداً لتعليم أعمق وأرقى . على أنه ينبغى أن نعلم أن الخلاص أو «الاطلاق» الذى تكلم عنه القديسون والحكماء — حتى فى دين جماعة ال Bhakti — انصرف فقط إلى الخلاص من سحر العالم وغوايته ، ومن تمــــذيب دورات الولادة المتــكررة ، ومن التجوال الذى لا نهاية له من وجود إلى وجود بعده .

دين المنبوذين

ومن المؤلم حقاً أنه فى كل هذه الأدوار التى أخصبت الأفكار والممارسات الهندوسية لم يكن للمنبوذين Ontcastes ثمة نصيب . وقد يكون مثاراً للنزاع أن نعدّهم طائفة من طوائف الهندوسيين . فإنه لا تشابه بين دينهم وبين العقائد التى شرحناها ، فدينهم فى مجموعه أشبه بعبادة الأرواح التى اعتصمت بها الأقوام الفطرية الساذجة . وأعظم الآلهة فى قرية المنبوذين ليس « سيفا Siva » ، ولا « فشنو Vishnu » ، بل ربما كومة من الأجر ، تمثل أم القرية أو شيطانها الذى يمنح الخصب للعواقر ، ويحمى المحصول من الآفات ، ويرعى القرية برعايتــه وعنايته . وقد يكون للمنبوذ فــكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم ، ولــكنه إلى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة . وحالته الاجتماعية الدينية فى أحط الدركات ، والهندوسية المحافظة لا تعنى به شيئاً .

جهود المصلحين

وفى السنوات الأخيرة بُذلت الجهود المتوالية لرفع شأن أولئك المنبوذين وتحسين حالتهم السيئة . ونهضت جماعات فى بلاد الهند للاصلاح ارتضت

قبول المنبوذين فى عضويتها، رغبة فى تطهير الهندوسية من هذه اللوثة اللاصقة بها والقضاء على فكرة التميز بين الطبقات .

وفعلا صدر قانون يبطل هذا التميز ، ولكن صدور القانون شىء وتنفيذه عمليا شىء آخر ، كما شهدنا مؤخرا فى قانون الحقوق المدنية للزنوج، الذى وافقت عليه الولايات المتحدة ، ولم يوضع حتى الآن موضع التنفيذ .

على أنه مما يدعو إلى التفاؤل فى مستقبل الهند أنها أخذت الآن تتطلع إلى نظم فى الحياة جديدة ، وإلى نهضة شاملة كل أوضاع الحياة . . ومما لا شك فيه أن تطورها الاجتماعى والاقتصادى سيقضى يوماً ما على نظام الطبقات كلية ، وسوف يكون للديمقراطية الصحيحة أثر بعيد المدى فى رفع مكانة الفرد مهما تكن طبقته ، والمساواة بين المواطنين جميعاً .

وبين تلك الجماعات Brahma Samaj وهى طائفة تؤمن بالله . ووجهة نظرها فى الله وفى يسوع المسيح أشبه بوجهة نظر من نسميهم « موحدين Unitarians » . وهى تكاد تكون منفصلة عن الهندوسية الأصلية ، قليلة العدد ، يعوزها العزم والقوة، ولكنها أدت بعض الخدمات النافعة إلى طوائف المنبوذين ، وأمثال هذه جماعات أخرى نهضت لمكافحة هذه السيئة الاجتماعية. وهى حين تصدر عن الهندوسيين المحافظين يكون الباعث إليها الحسد والغيرة من المرسليات المسيحية التى تعمل ناشطة لرفع شأن أولئك المنبوذين واكتسابهم إلى أحضان المسيحية ، التى تقدس الشخصية البشرية مهما كانت وضيعة . ومع أن الضمير الهندوسى المثقف قد أدرك ما فى نظام الطبقات من سوء وشناعة، فإنه لم يفعل حتى الآن شيئاً جدياً للخروج عن تلك التقاليد الجامدة التى أحكم المحافظون الرجعيون حياكتها حول أولئك المنبوذين التاعسين .

الخلاصة

ونستخلص من هذا البحث أن الديانة الهندوسية تشمل طرائق دينية

كثيرة منفصلة بعضها عن بعض ، وهى ذات معان متعددة مختلفة . ويمكن تلخيصها فيما يلى :

يُحسب الهندوسى هندوسياً متى ولد فى طبقة من الطبقات المعروفة ،وحافظ على تقاليدها وقواعدها ، ولو أن كثيرين من المثقفين يعتدون على هذه القواعد الوضعية ويتملصون منها . ويؤمن الهندوسى بنظام الطبقات ، ويحترم أسفاره المقدسة Vedas ويوقر البراهمة . ثم يحسب البقرة مقدسة ، وتتسلط على عقله معتقدات تناسخ الأرواح،وانطلاق النفس أخيرا من قيود هذا التجوال، وآثار أعماله صالحة كانت أو شريرة ، ثم يميل به الرأى إلى مذهب الحلول الإلهى فى الطبيعة . وهو إن كان مثقفاً مهذباً، فهو ينكر تعدد الآلهة ولا يؤمن بها . وإن كان وطنياً متحمساً ومن رجال أحزاب الإصلاح فهو يرتاب كثيرا فى صحة نظام الطبقات . وإن كان برهمياً ، فهو يؤمن بالأوضاع الأولى للديانة الهندوسية ويحفظ الطقوس والمراسم القديمة ، ويعبد الإله « سيفا » أو الإله « فشنو » ، ويدرس الأسفار المقدسة أو بعض المذاهب الفلسفية الهندوسية . وأما إن كان قروياً عادياً ، فيحفظ الطقوس ويعبد « راما » ،أو « كرشنا »، أو « سيفا » ، أو الإله القرد ، أو زوجة الإله سيفا . وإن كان منبوذاً فإلهه شيطان القرية .

وللهندوسية أوضاع شتى تتفاوت بين فلسفة الحلول الالهى فى الطبيعة ، ثم تأخذ فى الانحدار حتى تصل إلى عبادة الأرواح الشريرة . ومن الصعب جداً التمييز بين هذه الأوضاع المتفاوتة. ولعلنا نقرب إلى الصواب إذا قلنا ان أقوى العوامل تأثيراً فى الهندوسيين من أعلى الطبقات إلى أدناها هى :

(١) نظام الطبقات .

(٢) الفكرة بأن الله هو الحق الوحيد .

(٣) الفكرة بأن العالم وهم وخداع وتضليل .

(٤) ثم الفكرة المثلثة عن الأعمال (الكارما) ، وتناسخ الأرواح ، وانطلاق النفس واندماجها فى الكائن الأسمى .

وقد دارت مكاتبات بين عالم هندى وزعيم مسيحى عن الدين . وإلى القارىء ترجمة رسالة بعث بها العالم الهندى يصف فيها الهندوسية فيقول :

« تسألنى أن أقدم لك وصفاً للهندوسية وأخشى أنى سأخيب أملك فى . فالهندوسية ليست ديناً واحداً ، ولا عقيدة واحدة ، ولا إيماناً واحداً . انها خليط من كل الأديان ، وكل العقائد ، التى اكتسحت البلاد مدى أجيال التاريخ . فضلا عن هذا فإن الهندوسية تشمل كل الأطوار التى مرت بها الغرائز الدينية والأفكار الفلسفية ، وتطورت وتقدمت . وليس هذا كل ما فى الأمر ، فالهندوسية ليست مقتصرة على الدين بالمعنى الضيق الذى نفهمه من الدين ، وذلك لأنها آوت تحت جناحيها كل الممارسات والطقوس الدينية ، وشبه الدينية ، والاجتماعية ، التى عرفها الجنس أو الأجناس الهندية .

« ولا تحسبنى أنى مغرق فيما أقول ، أو أنى أجنح إلى المبالغة والمغالاة . فتعدد الآلهة ، والوحدانية ، ومذهب حلول الله فى الكون ، وإنكار وجود الله — هذه كلها قد أينعت وازدهرت تحت ظلال الهندوسية وباسمها ، وما تزال أوضاعها قائمة فى الهندوسية . وعبادة الشياطين ، وعبادة الأبطال ، وعبادة الأسلاف ، وعبادة الأشياء الحية والجمادات ، وعبادة القوى الطبيعية ، وعبادة الله — هذه العبادات كلها نسجت فى لحمة الهندوسية وسداها ، وهى تقدم غذاء لكل الأذواق والمشارب ، ولكل مراتب الحياة ، وكل أطوار الترقى . هنا دمامة الهندوسية وجمالها ، وضعفها وقوتها . انها تشمل أرقى واطهر أوضاع العبادات ، وأدنى وأحط العبادات . انها تحتضن أرقى الآراء الفلسفية ، وأسخف وأحقر المذاهب العقلية الدينية .[1]

« ولعل هذا هو الذى يجعل الهندوسية أكثر الأديان تسامحاً فى العالم .

---

(١) "The Philosophy of Good Life" Gore pp-80.

وطريق الخلاص فيها هو التجرد العقلى وإنكار كل عقيدة عن الذات الإنسانية، أو التمييز بين الاختبارات المختلفة التى يعرفها الفكر البشرى . والذات الحقة فى الإنسان لا تؤثر فيها الأعمال ، لأنها تنتمى إلى العالم المادى الخالى من كل حقيقة . وفى وسع الإنسان أن يؤدى أعماله ، ويراعى شرائع الطبقة التى ينتمى إليها ، فى روح متجردة لاتبالى ولا تكترث بشىء ، بل تحتقر كل شىء . أما ما نسمِّيه « أخلاقيات » ، فهو فى الهندوسية مجرد مراعاة مطالب الطبقة التى ينتمى إليها الفرد ، أو الممارسات الدينية للطائفة التى هو عضو فيها .

اية فكرة عن الله تشبع قلب الهندوسى ؟

وبعدُ ، ما الرسالة المسيحية لأمثال هؤلاء القوم ؟

انها قبل كل شىء تحمل إليهم رسالة الله . لأنه وحده دون سواه ، مستطيع أن يشبع قلب الهندوسى التائق . وقد عرفنا من بحثنا فى طرائق التفكير الهندوسية عن الله أن للقوم اتجاهين : الأول التفكير فى الله إلهاً مجرداً عن الشخصية . هو روح العالم ، وهو الحق الوحيد الجاثم وراء خداع وبطلان هذا الوجود العالمى . والاتجاه الثانى تصوُّر الله فى أشباح متجسدة ، مثل راما وكرشنا وما أشبه . فالاتجاه الأول يحتفظ بسمو الله وصفاته الجامعة ، ولكنه لا يعطى القوم إلهاً يرفعون اليه الصلاة . والاتجاه الثانى يشبع رغبات الإنسان من حيث تعيين صفات الله وتحديدها ، ولكنه يفقد معالم صفات الله الجامعة المطلقة . ولهذين الإتجاهين آثار ظاهرة فى حياة الهنود كما نشاهدها فى هذا العصر . والذى يرومه الهندوسى وتتوق إليه نفسه الجائعة لن يجده إلا فى الله المعلن فى المسيح ، إذ تحمل اليه الرسالة المسيحية إلهاً جامعاً سامياً ، هو صانع الكون والحالُّ فيه . وهو فوق ذلك معلن فى التاريخ البشرى ، وفى وجه بشرى — إلهاً هو المحبة .

الغفران :

ويجىء الإيمان الصحيح فى الله بشىء آخر تفتقر اليه بلاد الهند ، وهو الشعور بالخطية والحاجة إلى الغفران . ولا يعوز بلاد الهند الحنين إلى الافتداء ، ولـكنه عندهم افتداء من ضيقات هذا العالم الحاضر وويلاته ، افتداء من خداع الحياة وأباطيلها التى تحجب عن الأنظار وجه الـكائن الأسمى . فهى لا تروم الفداء من بطش الخطية وسطوتها ، ولن يمـكنها أن تفعل ذلك . وهى تترنح بين إله مجرد عن الشخصية ، وآلهة محدودة القوى ناقصة فى الكمالات الأدبية . والذى تفتقر اليه الهند رؤيا الله القدوس ، الذى تعلو قداسته فوق كل المعايير البشرية ، وقد تأصلت فى نفسها بفضل عقيدة « الـكارما » الفـكرة بأن كل عمل يأتيه الفرد ينتج أثره ، وأن الخطية تنال عقابها بموجب ناموس جامد لا هوادة فيه . ولم تنهض قط إلى إدراك فـكرة الغفران ، لا الغفران الذى يتجاوز عن الشر فى تراخ وإحساس بليد ، بل الغفران الذى يحمل الخطايا إلى قلب « الله » ذاته .

مبدأ الأخاء :

ومن الهبات التى يمـكن أن تفوز بها الهند من المسيحية روح الأخاء . وهيّن أن نقول إن الغرب لا يبدى للملأ شيئاً من آثار المسيحية من هذه الناحية ، وعلى الرغم من هذا ، فانّا لا ننسى أن المسيحية قد ألغت الرق . وحيثما تذهب المسيحية ويكون الإيمان بالمسيح حقاً ، وفعلا ، لا يسع أتباعها إلا أن يشعروا أن للمسيح قد جعل الكل واحداً ، ولن يقول مكابر إن فى المسيحية شيئاً من هذا التمييز بين الطبقات . فهؤلاء الذين يميزون بين الناس تبعاً لألوانهم أو أجناسهم أو ثقافاتهم ليسوا مسيحيين البتّة ، وهم عار المسيحية حقاً . ان الأخاء فى المسيحية رابطة جامعة شاملة جميع البشر ، الذين خلقهم الله على صورته ، والذين افتداهم المسيح

وجعلهم أبناء الله الواحد ، بينما الأخاء فى الأديان الأخرى — إن وجد — يكون مقتصراً على أبناء الطائفة الواحدة ، أو الدين الواحد .

والمصلحون من الهندوسيين يعترفون بهذا الفضل للمسيحية ، فقد قال « رام موهن روى » الشهير ، وهو صاحب الفضل فى إبطال عادة إحراق الأرملة مع بعلها المتوفى : « لقد تبيَّن لى من البحوث الطويلة الدقيقة فى الأديان أن تعاليم المسيح أكثر انطباقاً على المبادىء الأدبية ، وأكثر ملاءمة للخلائق العاقلة من أى تعاليم أخرى » .

الدين العملى :

وأخيراً نشير الى عنصر له شأنه فى رسالة المسيحية بالنسبة للهند ، ذلك أن الإيمان بالمسيح ينتشل الهند من ربقة التشاؤم من العالم الحاضر ، ويعينها على أن تظفر بقداسة وخلاص عمليين بكل معنى الكلمة . ولسنا ننكر أن الهند تدرك حقيقة العالم الروحى ، ولكنها استنامت الى خلاص هو الانطلاق من عالم مضن مُنهك ، وليس ملكوت الله فى نظرهم نتيجة جهود الإنسان وأعماله ، فلا شأن للهندى بالمبادىء الدينية ذات الصبغة العملية ، أما الحياة فى نظر المسيحى فهى الميدان الذى تكمل فيه ارادة الله ، وممالك الأرض ستكون يوماً ملك الله ومسيحه . وفى التلمذة المسيحية جهد فائز ، وقوة نابضة ، وانتظار عملى . وسيأتى يوم يجد فيه التائقون الى الانطلاق ، خلاص نفوسهم الحقيقى فى المسيح ، وفى خدمته فى عالم البشر .

البوذية

يقال ان للبوذية اتباعاً أكثر من أى دين آخر . ويزعم بعضهم انها ملجأ حصين لخمس مائة مليون من الأنفس البشرية . ولكن الأرقام تخدع كثيراً . وهذا الزعم يستند فى الغالب إلى أن بلاد الصين بوذية كلها ، بينما يتقاسمها فى الواقع أديان ثلاثة هى البوذية والكنفوشية والتاوزمية ، كما يتقاسم اليابان اديان ثلاثة أيضاً هى البوذية والكنفوشية والشنتوية .

مذاهب البوذية المختلفة

والبوذية تشمل أشياء كثيرة . فهناك المذهبان الكبيران الشمالى والجنوبى ، وينقسم كل منهما إلى عدة من الطوائف . والمذهب الشمالى بكتبه المقدسة فى اللغة السنسكريتية منتشر فى الصين واليابان والتيبت ونيبال واندونيسيا . أما المذهب الجنوبى ، وكتبه المقدسة باللغة البالِّية ، فمنتشر فى الهند وبورما وسيلان وتايلاند وفيتنام . ولو أن أتباع هذا الأخير أقل عدداً من الأول ، فإنه أقرب كثيراً إلى الأصل ، ولم يداخله إلا القليل من العناصر الغريبة فى تطوره التاريخى الطويل . ولذا سنقتصر فى بحثنا الآن على هذا الأخير لأنه يمثل الدين الأصلى الذى علّم به بوذا .

المؤسس :

من الحقائق المقررة أن شخصاً هو الذى أسس البوذية . ولقد حاول بعض العلماء إحاطته بأسطورة شمسية ، شأن كثير من شخصيات التاريخ الغارقة فى القدم ، ولكن الدليل على وجود هذا الشخص جلّى لاغموض فيه . ولئن تعذر علينا التمييز بين ما هو حق وما هو أسطورى فى تاريخ حياته ، فإن الوقائع الأصلية ثابتة مؤكدة . والمعروف أن مؤسس هذا الدين قد ولد فى أواخر القرن السادس أو أوائل القرن الخامس قبل المسيح فى مدينة صغيرة تقع بين مدينة

بنارس وجبال الحملايا شمال نهر الـكنج المقدس . وكان أبوه (راجا) زعيم قبيلته، وأطلق على أسرته لقب «غوتاما» . واسمه الشخصى « سدهارثا » (اما كلمة « بوذا » ومعناها « المستنير » فليست اسمه الشخصى، بل هى اللقب الذى خُلع عليه . ولعلّ « غوتاما » أكثر الألقاب ذيوعاً ، وهو اللقب الذى نطلقه عليه فى بحثنا) .

كان ابن ملك ، تحدّر من سلالة عريقة المحتد ، وأمتاز بقوى فى العقل والبدن . ثم تزوج فى سن مبكرة من ابنة أحد الأمراء . ونظر وإذا بالمستقبل الباهر يمتد تحت قدميه . على أن نفسه لم تهدأ على حال من القلق ، ففى غمرة النعيم الذى كان يرفل فيه ، حامت حول مخيلته أسئلة لم يرَ لها حلا . وطفق العقل الحائر ينقب حول معنى الحياة ، حتى امست الحياة عبئاً تنوء به الظهور . وأعقد مشكلة طغت على نفسه ، وهو يتمرغ فى نعماء الحياة واطايبها ، هى مشكلة الآلام البشرية . فإن النعماء التى كان فيها مقيماً ، جعلت هذه المشكلة شوكة مسننة فى نفسه . وعنه تروى الأقاصيص عن التقائه برجل شيخ قد أفنى المرض بدنه ، أو رؤيته جثة قد أمعن فيها الفساد بلاء ، فترعبه تلك المناظر وتأخذ عليه السبل . ولم يطل به الأمر حتى لجأ إلى حياة الزهد والتقشف مؤملا أن تزاح الغشاوة عن عينيه ، ويغور الى أسرار معنى الحياة بعد أن يتحرر من ربط الأسرة وهموم العالم ، وينصرف الى التأمل وإماتة الجسد .

بحثه عن النور :

وبعد اذ غادر أسرته ، ارتمى فى أحضان بعض المعلمين من النساك ، فتلقّى عنهم تعاليم البراهمة . وقد صاغ النظام الذى وضعه فيما بعد على أساس مطارحاته مع ذلـكم النفر من الزاهدين . على أن أساليب تقشفهم ودمدمتهم بالالفاظ المألوفة ، مع اغراق عقولهم وتفـكيرهم فى براهما — كل هذه لم تجدِه شيئاً .

وكانت الخطوة الثانية أن لجأ هو وخمسة من اترابه الى غابة هادئة

للاختلاء ، والتأمل، وترويض النفس . وهناك قسا على جسده وعقله ، وأذلّهما أيما اذلال ، فكان غذاؤه اليومى حبة من الارز . وجاهد جهاداً عنيفاً لادماج نفسه فى الروح الالهى ، كما فعل قليل من زهاد الهنود ، حتى حُسب أعظم القديسين شأناً فى قومه ..وفجأة أحسّ عقم هذه الجهود الضائعة ، وفى شجاعة نادرة صارح زملاءه بأن تجربته قد فشلت ، وعاد يتناول طعامه العادى . فما كان من أصدقائه الخمسة الذين زاملوه فى خلوته ، الاّ أن مضوا الى حال سبيلهم آسفين . وكانوا قد أملوا فيه كثيراً حين رأوا غيرته المتقدة ، والآن يرونه يخيِّب آمالهم خيبة مريرة .

أما الخطوة الثالثة فكانت سنة كاملة قضاها فى تأمل عميق ، وفى عزلة كاملة . وكانت الشكوك والمخاوف قد تنازعت نفس غوتاما ، فهو قد اقتنع أن إماتة نفسه وإذلالها لم يجدياه نفعاً ، وهو مايزال حائراً مضطرباً يتخبط على غير هدى . فساورته الأفكار أن يعود إلى موطنه ويعدل عن سعيه . وفى ذات يوم جلس يتناول طعام الإفطار تحت ظل شجرة صارت فيما بعد مقدسة فى نظر البوذيين ، حتى نظروا إليها نظرة المسيحيين إلى الصليب . وهناك قضى اليوم كله ، والليل كله ، فى نزاع داخلى ، حتى إذا بزغ نور الفجر ، أشرق عليه نور الحق، ينبئه أن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس، وأن الإنسان مستطيع أن يكون سيد رغباته لاعبداً لها ، وأن فى مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين . فهجر غوتاما مشهد التريث والانتظار ، وطفق يحمل رسالته إلى العالم ، رسالة قد نُقشت على قلبه بأحرف من نار . ولقد حدثته نفسه أن يحتفظ بهذه الرسالة لنفسه ، ويستمتع بالنور دون أن يشرك فيه أحداً ، لأنه خشى أن يقصر الناس عن فهم رسالته قبل أن يختبروا طور التدريب والمران الذى اختبره هو .وقيل إن الباعث الذى دفعه إلى أن يكون مرسلا ومبشراً هو محبته للبشرية ورغبته

فى أن يشاطره الناس هذا الحق الجديد المهذب للنفس . والبوذيون الأتقياء يشكرون الله فى غير انقطاع لأجل هذا الصنيع الذى أتاه بوذا وأنكر فيه ذاته .

حياته وتعليمه :

ذهب أولا إلى الرفاق الخمسة الذين هجروه . وحين سمعوا قصته ، قبلوا رسالته وتبعوه . وكان بين أنصاره الأولين فئة من الشبان ذوى الكرامة والمكانة . وفى قليل من الزمن جمع إليه ستين من صحابته ، وجعل منهم نواة الهيئة التى بعثها لنشر دعايته والتبشير برسالته . أما هو فعاد إلى مسقط رأسه ليرى أبويه وزوجته . وعبثاً حاولوا اقناعه للعدول عن دعوته — وقد قال لأبيه الذى عاب عليه استجداءه فى الطرقات وذكَّره بسلالته الملوكية : « قد تدَّعى أنت وأسرتك التحدر من سلالة الملوك ، واما أنا فأنتسب إلى نسل بوذا منذ القدم ، وهم قد عاشوا يستجدون طيلة حياتهم كلها » . وظل أربعين سنة يجاهد فى نشر دعوته وتثبيت النظام الذى وضعه متنقلا من مكان إلى آخر ، يتناول الطعام الذى يجود به عليه الخيِّرون من الاغنياء والفقراء ، ويعلِّم كل من أقبل إليه للاسترشاد به . وفى الثمانين من عمره قضى نحبه . وله من الكلمات التى تفوه بها على سرير الموت ما خلده التاريخ . فهو القائل : « كونوا لأنفسكم نوراً ، وملجأ حصيناً ، ولا تلوذوا بغير أنفسكم » — « قد تفكرون فى أنفسكم قائلين : الآن انتهت الكلمة بعد إذ قضى معلمنا ، ولكن إياكم وهذا التفكير . واعملوا بعد موتى لتثبيت الناموس الذى علَّمتكم إيا والنظام الذى أرشدتكم إليه . وكونوا لأنفسكم خير المعلمين » . وأما كلماته الأخيرة فهى : « أيها الشحاذون المستجدون : الآن أوصيكم بأن عناصر الإنسان وقواه ينبغى أن تذوب وتفنى ، فتمموا خلاصكم بجد ومثابرة » .

مؤثراته الشخصية

كان لأخلاق غوتاما الشخصية ، أكبر الأثر فى الدين الذى أسسه ، ولو أن

الـكلمات التي اقتبسناها الآن تدلُّنا على أنه لم يومىء إلى نفسه ، بل الى الحق الذى أعطاه . وقد كانت رقة نفسه وهدوُها ، ومحبته للانسانية ، ورغبته فى انـكار ذاته لتخفيف الآلام والاوجاع — كانت هذه كلها أفضل المناصر فى اخلاقه التي يرجع اليها أكبر الفضل فى نشر تعاليمه . ونشاهد حتى اليوم ، حيث تتحرر البوذية من الملابسات المتأخرة ، ويبدو شكل بوذا مجرداً عن عوامل الاصطناع ، شيئاً من هذه الصفات الأدبية فى نفوس اتباعه والمؤمنين به .

وفى الـكتب البوذية قصة تصلح مثلا على كرم أخلاقه : يروى أن فلاحاً برهمياً كان يحرث حقلا ، واذا ببوذا يجىء اليه وفى يده وعاء يستعطى فيه . فقال له الفلاح : « أيها الناسك : علىّ ان أحرث وأزرع ، لأكسب عيشى . فمليك أنت أيضاً أن تـكافح وتعمل ثم تأكل » . فأجابه بوذا : « أيها البرهمى: أنا أحرث وأزرع، وبغير هذا لا آكل» . فيقول له الفلاح: «لا أرى نيراً ، ولامحراثاً ، ولامنخساً ، ولاثيراناً » . ويجيبه بوذا بعبارات شعرية قائلا :

« أنا فلاح بحق ، أيها السيد ، والآراء الصائبة هى البذار المثمر الذى أبذره . وتدريب النفس هو المطر الذى أسقى به . أما الحـكمة فهى نيرى ومحراثى ، والوداعة ميسمى، والاهتمام بالغير محور عجلى ، واليقظة منخسى ...

« وبتهذيب الفـكر والقول والفعل أنقّى الأرض من أعشابها الضارة ، وبطريق الخلاص أنادى . .

« أما ثورى فهو السعى المتواصل الذى يحملنى فى غير ملل إلى حيث لا يصيبنى حزن حتى أقرب إلى نرفانا ، وهو الهدف الذى إليه أسعى » .

عندئذ يصبُّ الفلاح البرهمى الأرز الممزوج باللبن فى وعاء من الذهب ويقدمه إلى غوتاما قائلا :

« فى الحق أنت فلاح بكل معنى الـكلمة ، وحصاد الحق هو طعامك الشهى . اشرب هذا ياسيد هنيئاً . وبعد اليوم أنا أطوع لك من بنانك » .

بوذا والمرأة:

كانت رسالة بوذا فى ظاهرها موجهة لجميع الناس ، وليس بها تمييز بين الطبقات . من ثمّ أبى أن يعترف بسلطان الكهنوت البرهمى — وكان يومئذ فى بداية عهده — ولم ينهج نهج غيره من النساك الزاهدين فى يومه . ولكن الواقع أن رسالته لم تلقَ قبولا لدى العامة من الشعب — ولم يكن هدفها إزالة بؤس البائسين من الفقراء والمعوزين والمظلومين بالدعوة إلى إصلاح أحوالهم فى المجتمع . ذلك لأن دعوته كانت فى أرقى أوضاعها عقلية بحيث لم يستسغها غير المثقفين . وتقول النصوص البوذية فى عصره فى رنة من الرضى والإكتفاء إن غالبية الذين اهتدوا إلى دعوته كانوا من الأثرياء ، ومن المحتد الأصيل النبيل . فضلا عن ذلك فقد أبدى تمنعاً وعيوفاً عن قبول النساء فى نظامه ، وكان فى الحق كثير الريبة نحو جنس المرأة . ويوماً ما سأله « أناندا » أقرب خلصائه وأتباعه: « كيف نتصرف نحو النساء ؟ » فأجابه : « لا تقع عينك عليهن » — « ولكن إذا وقعت أعيننا عليهن فماذا نفعل؟ » « لا تكلمهن يا أناندا » — « وماذا إذا كلمننا يا سيد ، ماذا عسانا أن نفعل » — « اهرب منهن » .

على أنه فيما بعد اضطر إلى الخضوع تحت ضغط الحوادث . ولكنه بعد إذ خضع ووضع قواعد وأصولا لراهباته ، تنبأ قائلا : لو أن هذا لم يحدث ، لظلّ هذا الدين الطاهر قائماً ألف سنة ، أما الآن وقد دخلته النساء ، فلن يبقى أكثر من نصف هذه المدة !!

وقد ارتدى رهبانه ثياباً صفراء ، شعار الزهد والتقشف ، وحلقوا رؤوسهم وعاشوا حياة الفقر والإستجداء والعفة ، وقد خلوا من ظل الربط الأرضية ، ولم يميزوا بين طبقات الناس . ومع أن معلمهم كان يجول من مكان إلى مكان فإن الاخوة قد استقروا فى أماكنهم ، وكانوا يسيرون اثنين اثنين . وكان خارج النظام علمانيون اتقياء لم يشاطروا الرهبان أمانيهم وأشواقهم فى بلوغ

« النرفانا » ، ولكنهم تاقوا إلى تحسين مصيرهم فى ولادة ثانية فى المستقبل بإطاعة أحكام أدبية أخلاقية معينة ، وأعمال الإحسان والخير ، وخاصة نفح نظام الرهبنة بالمنح والعطايا .

وقد لقيت دعوة بوذا نجاحاً وتوفيقاً ، وكان مرد هذا بالأكثر إلى جمال أخلاقه ، وجاذبية شخصيته ، وقوة صبره ، ودماثة نفسه ، ورقه جانبه ، كما أسلفنا . وحين نقرأ اليوم الشكلية الجامدة فى تعاليمه ، كما صاغها اللاحقون ، نحسُّ أن عبق عذوبة مؤسس الدين قد تبخرت فى عملية صياغته فى ألفاظ فنية لا يفهمها إلا الأقلون .

اخريات ايامه :

وقد بقيت رسالة بوذا ـ وخاصة فى الأقاليم التى كانت مدينة بنارس مركزها حيث ولد وترعرع ـ مدة خمسين عاما حتى بلغ الثمانين من العمر . وفى أحد المؤلفات البوذية(١) نقرأ وصفا مؤثراً لأخريات أيامه وموته . وإذ يحسُّ بوذا بشدة وطأة المرض عليه ، يحاول بقوة ضبط نفسه إخفاء مرضه ، ويناجى نفسه قائلا : « سأضغط على هذا المرض ، واستمسك بالحياة » ، وذلك لكى يستأذن من اتباعه ومريديه قبل الإنطلاق . وقد رفض طلبا تقدم به «اناندا» أخلص خلصائه ، حين سأله أن يترك بعض تعلياته لأتباعه عن مصيرهم فى المستقبل . وقال له إنه لم يلجأ قط إلى الأسرار فى عقيدته ، فلقد شرحها شرحا وافيا ، ولم يميز أبداً بين الحق الظاهر والحق الخفىّ ، ولم يقبض يده على شىء لم يعلنه للناس ، فليس لديه شىء يتركه وراءه لأتباعه غير الحق . وختم قوله لصديقه :

« إذاً ، يا اناندا ، كونوا أنواراً لأنفسكم . كونوا لأنفسكم ملجأ حصيناً ، ولا تهرعوا إلى ملجأ خارج عنكم : والآن ، يا اناندا ، كلُّ من يصير نوراً

(١) "Suttee of the Great Decease"

لنفسه ، وملجأ لنفسهِ ، ولا يلوذ بغير نفسه ، ويستمسك بالحق مصباحاً لسبيله ، هذا هو الذى يبلغ أخيرا أعلى الذرى » .

على انه لم يرفض طعاماً من لحم الخنزير البرِّى قدّمه له احد اتباعه « شوندا » صانع المعادن ، ولو انه كان يعلم انه ضار بالصحة ولا يقوى على هضمه . وقد أصابته من جراء ذلك دوسنتاريا حادة قضت عليه — ولكنه أظهر قبل موته تجلداً غريباً مؤثراً حتى لا يشتط صديقه فى لوم نفسه ووخز ضميره . وقبل موته بقليل سأل رهبانه : ألديهم شيء من الشك فى صدق عقيدته ، فلاذوا بالصمت جميعاً . وختم حديثه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة : « إذاً أتوسل إليكم الآن أيها الأخوة أن تعلموا أن الفناء هو طبيعة كل الأشياء . فكملوا خلاصكم بجد وغيرة » .

تلك كانت آخر كلمة انفرجت عنها شفتاه ، وبعدها أسلم الروح ، وحمل اتباعه جسده فى وقار ، وأحرقوه ، ووزعوا رماده بين ذوى قرباه والنبلاء . أما الحفنة التى أخذها أقرباؤه فقد أودعوها وعاء تمَّ العثور عليه سنة ١٨٩٨ م وقد نقش عليه : « بقايا بوذا المكرم الرفيع » .

الحقائق الاربع :

وغوتاما نفسه ينكر أنه جاء لينادى مبدئياً بنظام فى الآداب والأخلاق. ولكنه رغب فى أن يقتبس البشر الحقائق الأربع التى تلقّاها تحت الشجرة المقدسة ، والتى هى أساس النظام الذى وضعه . أما هذه الحقائق فهى :

١ — **الالم او الحزن** : الولادة ، والنمو ، والمرض ، والموت ، وفراق الأحباء ، وكل ما يتصل بوجود الفرد — هذه كلها تجىء علينا بالأحزان .

٢ — **علة الحزن** : إن اهتياج العاطفة بعد ثورتها ، واللذة فى تملك الأشياء أو الرغبة فى احتيازها ، والشهوة ، ومحبة العالم الحاضر ، والشوق إلى عالم مستقبل — وقصارى القول الشهوات والرغبات ، هى أصل آلامنا وأوجاعنا .

٣ - **ابطال الحزن** : يبطل الحزن متى بطلت شهوة الحياة ، وانتفى الظمأ إلى هذه الأشياء .

٤ - **طريق ابطال الحزن** : ولتحقيق هذا طريق واحد ، هو الحياة الفضلى للفكرة ذات الثمانى شعب .

أما هذه الشعب الثمان فهى :

الآراء السليمة ، والشعور الصائب ، والقول الحق ، والسلوك الحسن ، والحياة الفضلى ، والسعى المشكور ، والذكرى الصالحة ، والتأمل الصحيح .

الاطوار الاربعة :

ولهذه الطريقة أربعة أطوار (والبوذية حافلة بعدد لا يحصى من الأحكام والحقائق ، والرذائل والفضائل ، يعرفها البوذيون بالإسم ، كما يعرف المسيحيون وصاياهم العشر) . وفى خلال هذه الأطوار الأربعة تتكسر القيود العشرة . فالطور الأول هو الإحياء والتجديد حين يدرك الإنسان معنى الحقائق الأربع المشهورة . وعند بلوغ هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الأولى - وهى الوهم الخادع فى وجود النفس ، والشك فى بوذا وتعاليمه ، والاعتقاد فى تأثير الطقوس والرسوم الدينية . أما فى الطور الثانى فيقوى للمهتدى على التخفيف من حدة الشهوة والكراهية وغرور الأوهام. وفى الطور الثالث يحطم قيود الشهوة تحطيما . وأما الطور الرابع فيسمّى صراط المقدّسين ، وفى هذا الطور يتحرر القديس من القيود الباقية، وهى الرغبة فى البقاء المادى وغير المادى ، والكبرياء، والإعتداد بالبر الذاتى ، والجهل . وعند بلوغه هذا الطور يكون قد وصل الهدف الذى يسعى إليه ، وهو « نرفانا » .

ما هى النرفانا :

قلنا ان « النرفانا » هى الطور الرابع الذى يبلغه البوذى فى مصارعاته وجهوده النفسية عن طريق الإذلال والتعبد . فما هى النرفانا هذه ؟ الفكر

السائد أنها الاندماج فى الله والفناء فيه . ولـكن البوذية لا تعرف إلهاً قط ، فـكرة هذا الفناء فى الإلهيـّة غريبة غير مألوفة فيها . وكانت رغبة الفناء فى الله من الرغبات التى تاقت إليها نفس غوتاما مؤسس البوذية ، وهو يمارس أساليب إذلال نفسه ، قبل أن تُستعلن له الرؤيا تحت ظلال الشجرة المقدسة . ولـكن مطامعه قد تبدلت فيما بعد ، أما النرفانا فى عرف البوذى فهى الطور الرابع الذى يبلغه الناسك الزاهد ، بعد أن يكون قد حطم كل قيود نفسه وأغلالها ، ورغب عن شهوة البقاء ، وتملـكه عقل هادىء مطمئن لا يتسرب إليه الخطأ ، وتجرد عن كل الأمانى والرغبات والجهالات وأسباب الخديعة والإغراء . بعد هـذا كله يبلغ البوذى طور « النرفانا » ، يبلغه فى حياته على الأرض كما فعل غوتاما .

والحقيقة الأساسية فى تعاليم مؤسس البوذية هى « ناموس العلة والمعلول » . فالـكون فى نظره وحدة متصلة متماسكة ، ومجموعة مركبة لا انفصام بين أجزائها . وهو مركب من مجموعة هائلة من العناصر المختلفة لا تزيد ولا تنقص ، بل يعاد توزيعها باستمرار ، ويعاد ترتيبها ووضعها بحـكم الناموس الخاضعة له . وكل مجموعة جديدة إن هى إلا علة نشأت عن المجموعة التى تقدمتها . ولـكن غوتاما لم يقل شيئاً عن تلك « العلة الأولى » الذى يدير دفة هذا الـكون ، ومحظور على البوذى التقىّ أن يبحث فى هذا .

وكانت الصلة بين هذه الفـكرة عن العالم ، وبين طبيعة الإنسان فى غاية الخطورة . فللانسان ، فضلا عن كيانه الجسمانى ، خواص عدة ، هى المشاعر والاحاسيس والآراء والميول والقوى العقلية . وهذه الخواص ، مقترنة بالـكيان الجسمانى ، تـكون ما نسمّيه « النفس » أو « الذات » .

على أنه لم يـكن فى عرف « غوتاما » (خلافاً للبراهمة الذين صاغوا الفـكر

المندوسى) شىء يدعى « الذات » أو « النفس » . ومعنى هذا أن «غوتاما» لم يسلّم بوجود « الذات » كشخصية موحدة . ولم يرَ إلا تلك المجموعة من الخواص أو الصفات الخاضعة للناموس الذى قلنا عنه فيما سبق ناموس « العلة والمعلول » . وهذه الخواص والصفات توزع من جديد عند الموت . وانتفاء هذه الشخصية الموحدة يعنى إنعدام الخلود بعد الموت . وما كان يقال ان « الذات » أو « النفس » تنعدم عند الموت . ذلك لأنه لم يكن لها وجود فى الأصل . أما العناصر التى يتكون منها الإنسان ،فصيرها عند الموت (فى رأى غوتاما) التفكك والتجمع ثانية فى وجود جديد فى مجموعة جديدة .

والمفروض أن العناصر المكونة للانسان ينبغى أن تخضع للناموس العام فى الكون . ويتولد عن هذا الخضوع تناسق فى المجموعة كلها . غير أن الامانى والرغبات فى الذات البشرية هى التى تولد التنافر . وذلك لأن خواص الإنسان ، من أحاسيس وميول وآراء ، متى اتصلت بالعالم الخارجى ، تخلق رغبة ملحة .

وهنا يحق لنا القول ان كثيراً من هذه الرغبات والامانى صالحة لاغبار عليها ، ولها ما يبررها . ولكن غوتاما لا يسلّم مطلقاً أن الرغبات والامانى قد تكون صالحة . فالرغبات عنده تنشأ عن الأعمال صالحة كانت أو شريرة ، ولكنها تعمل على إقصاء النفس من الحياة المركزية فى الكون . وعند الموت تُنتج الرغبة ، التى يكون قد أشبعها الانسان ، وكذلك تُنتج الأعمال التى نشأت عنها، كائناً جديداً . فإن كان للانسان شهوات حيوانية وحشية ، تتجمع هذه العناصر كلها ، وقد تخلق بعد موته حيواناً شرساً وحشياً كالنمر .

قلنا ان النرفانا هى الطور الذى يبلغه البوذى فى حياته بعد أن يتجرد من أمانيه وجهالاته . فإذا مات الجسد ، تزول الأمانى والرغبات ويسرى عليها

ناموس « الكرما » ، أى أن كل عمل يأتيه الانسان له ثمرته حتماً، وأن كل شىء يختبره فى كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التى يأتيها فى الوجود السابق . وهى بمثابة كفارة، فالنرفانا ليست فى حد ذاتها موتاً ، بل هى حالة فى السلام للقيم،والقداسة الكاملة ، والتجردمن الامانى ، والرغبات، ومن كل الأشياء التى تغرى الانسان على التشبث بهذا الكيان المستقل — هى جنة البوذيين التى ينعمون فيها بعد التطور الأدبى فى الطريق ذى الشعب الثمان بأطوارها الأربعة .

ولذلك اكتفى مؤسس البوذية بأن أعطى عامة الشعب مجموعة هائلة من التعاليم الأدبيةوالأحكاموالوصاياالتىأودعها كتبه،وأسهب فيهابقصص ذات مغزى أدبى.وهو يعتقد أن قليلين جداً هم الذين يبلغون النرفانا فى جهادهم الأخلاقى .

طبيعة الانسان:

وهنانجمل ماأسلفنا من أفكار،لنتبين حقيقة الفكرة البوذية عن الانسان ونقارنها بالفكرة المسيحية : أنكر بوذا صراحة وجود النفس البشرية . وعنده أن الشخصية الظاهرة تتكون من خمسة عناصر — هى الخواص المادية ، والحواس، والآراء المجردة ، والميول السابقة ، والأفكار. وهذه كلها تنحلُّ عند الموت وتتفكك . ولولا وجود الرغبات ، لما أمكن أن تتحدهذه العناصر مرة أخرى . ولكن هذه الرغبات (وهو لا يعنى بها مجرد الرغبات الدنيا الحيوانية ، بل يقصد الرغبات اطلاقاً،ومنها رغبة الوجود الفردى المستقل) تسوق إلى العمل ، والعمل يسوق — بدافع ناموس الكرما — إلى خلق شخصية جديدة ، وإيجاد نواة جديدة تتجمع حولها عناصر النفس . ونظرية الكرما الهندوسية — كما رأينا — أساسها أن للانسان شخصية مفردة مستمرة متداولة فى حياة متتابعة . ويظهر أن الشخصية فى البوذية وهمية خيالية .

والدين المسيحى — كما لا يخفى — متصل باليهودية ، لاحق لها . ولذلك يحسن أن نبدأ بفكرة أنبياء إسرائيل عن الانسان وعن العالم ، وهى من المخلفات الثمينة التى بقيت تراثاً للجنس البشرى من أنبياء اليهودية . فالعالم والإنسان مدينان بوجودهما — حسب الفكرة اليهودية — لله وهو مصدر بقائهما ودوامهما . هو الخالق عزّ وجلّ . وبهذا المعنى لا يكون الفرد منبثقاً من الله ولا جزءاً منه . إنما الله متعال متسام فوقه . وكما أن هناك خطاً فاصلا يميّز الفرد عن أخيه فى الانسانية ، كذلك هناك خط فاصل يميزه عن الله تعالى . وبين الشخصية الانسانية والشخصية الإلهية شبه . لأن فى الانسان بعض ماهو إلهى ، بنسبة استجابته لنداء الله والاقتراب منه . ولكن ليس الانسان جزءاً من الله . ولا هو عنصر من عناصر وجوده تعالى . كذلك ليس العالم جزءاً من الله ، ولا مشاركا له فى الحدوث والقدم .

ولقد حسب انبياء إسرائيل العالَم ،الذى وضعهم فيه الله ، ميداناً يتعلَّم فيه الإنسان بالاختبار ،وهم لم يقبلوا العالم قبولا سلبياً، بل حسبوه مكاناً يُكافح فيه الشر وينشط فيه الخير . ومواهب الإنسان هى « الصداق » ليفعل مايريده الله منه ، فيغلب بذلك ضعفه،ويتحول قوة ، وتستقيم رغائبه وميوله،وترقى إلى الأشياء السامية ، حيث يفلت من التجربة والغواية . وما أبعد الفرق بين هذه الفكرة وبين نظرية « الكرما » والعالم الخيالى الوهمى فى البوذية .ولقد آمن الانبياء أن الخير والشر اللذين يحلاَّن بهم ،هما بمثابة فرص سانحة للخدمة تؤدى بالطاعة والرضا استجابة لدعوة الله ، ولا وجه فيها للاستحقاق الذاتى . وما كانوا ليستسيغوا قط فكرة تقول ان مايحلُّ بهم فى الحياة إنما هو نتيجة أعمال وتصرفات وقعت فى وجود سابق . ثم هم حسبوا هذا العالم أيضاً حقيقة خارج نفسهم وذواتهم ، عينها الله العزيز الحكيم . أما النظرية التى تجعل العالم

وهماً وخيالا تخلقه رغبات الإنسان، فما كان لها عندهم أثر ، ولو أنها خطرت على بال أحد فى يومهم ، لحسبوه اثماً وتجديفاً ، بله بطلا وسخفاً .

وهذه الفكرة قد افترضها العهد الجديد فرضاً . وحقيقة المسيح تجعلها ألمع نوراً وأكثر شمولا فى بساطتها العميقة . ولكن معانيها الجوهرية تتفق تماماً مع إعلان الانبياء . ويذهب العهد الجديد فى تعليل أصل خطية الإنسان إلى أبعد مما ذهب إليه الفكر الاغريقى . فبينما ذهب الفكر الاغريقى الارستقراطى إلى أن العقل هو جوهر الإنسان ، عارضه فى هذا الفكر المسيحى ، وذهب إلى أن الارادة الأدبية هى مركز الدائرة . وليست الخطية فى الإنسان مجرد جهل ، ولا هى مجرد الانغماس فى عالم مادى زائل . إنما هى معصية الانسان الذى خُلق ليحبَّ الله ، ويفعل مشيئته طواعية واختياراً . ثم ان الفساد الذى فى قلب الانسان ، الذى خُلق على صورة الله ، يُنظر إليه نظرة عميقة فاحصة . على أن المسيحية ليست ديناً استقراطياً ، ولذلك لاشىء فى العالم عندها تعدل قيمته تلك النفس البشرية ، مهما أوغلت فى الجهل، ومهماوهنت من الضعف والهزال .

نظام العبادة فى البوذية :

وللبوذية نظام معين من حيث رجالها وخدامها . ولقد عرفنا من قبل أن « غوتاما » ذهب إلى أن الطريق إلى النرفانا والحياة الروحية السامية لن يبلغها إلا أشخاص أفرزوا أنفسهم لهذا الغرض . ولذلك وضع رتبة للنساك المتزهدين .

وكان محتما على مَن يريد الدخول إلى إحدى رتب النظام الدينى أن يستشير أولا والديه . ويمكن قبوله فى الثامنة من عمره ، ولكنه لا يُرسم فى وظيفته قبل العشرين . أما حفلة القبول فلا تخرج عن إجراء بعض الطقوس ، وترداد بعض الألفاظ . ويُفرض على الناسك التبتل ، ويُحظر عليه الرقص والغناء والمسارح أو أخذ الفضة أو الذهب . ولا يأكل فى اليوم إلا وجبة واحدة فى

الضحى . ويحمل فى يده طبق الاحسان متنقلا من بيت إلى آخر ، لايقول كلمة لأحد ، ولا يؤثر الغنىّ على الفقير عند طلب الاحسان .

وقد عاش أولئك النساك فى الأديرة التى شُرع فى تشييدها فى زمن « غوتاما » نفسه ، وارتدوا الثوب الاصفر البسيط ، أما عملهم فكان ، علاوة على صيانة الأماكن المقدسة ، الدرس والتأمل .

وليس لدينا من تاريخ البوذية المتأخر إلا القليل من المعلومات — منها أن امبراطوراً شهيراً يدعى « أسوكا » بسط سلطانه على بلاد الهند كلها حوالى سنة ٢٥٠ ق . م . وشجّع البوذية بكل قواه ، فكان لها كما كان الامبراطور قسطنطين للمسيحية .

وفى الشمال حادت البوذية عن أصولها ، ونسى القوم انسانيـة بوذا ، وأخذوا يبتكرون عدداً من الآلهة ذكوراً وأناثاً . واستحالت عقيدة بوذا القائمة على انكار وجود الله ، إلى عقيدة تمدد الآلهـة الوثنية . وهكذا اضطربت العقائد فى الجنوب ، فبعدت كثيراً عن الأوضـاع التى أرادها بوذا نفسه .

وأنكر بوذا الصلاة . ولكن أتباعه أخرجوا ما لم يبتدعه أى دين آخر ، ألا وهو الصلاة الآلية القائمة على مجرد التكرار المملّ . فكانوا ينقشون بعض الألفاظ السحرية على عجلات للصلاة ، يديرها الهواء أو قوة اندفاع الماء . وفى كل مرة تلفُّ العجلة لفّتها ، وترتفع الكلمات المنقوشة نحو السماء ، تُردد صلاة هى مجرد تكرار . ولو كان بوذا نفسه حياً ، لأنتفض خجلا من هذه الابتكارات الصبيانية .

كيف يكتمل هذا النقص فى البوذية :

وبعد هذا نرى كثيراً من الحق والخير فى البوذية ، وكثيراً من السخف والحماقة . ونرى بوذا نفسه رجلا قد أحسّ بحاجة العالم ، فقضى زمناً طويلا فى

صمت وتفكير ، وعانى نزاعاً روحياً عقلياً ، وعاش حياة مجردة عن حب الذات ، نقياً ، طاهراً ، صبوراً ، رفيقاً .

ولكن ما أعظم الفارق بين صمته حيال بعض الأمور الخطيرة ، وبين النور الوهاج الذى خلعته المسيحية عليها . فبوذا صمت ولم يذكر شيئاً عن الله ، ولكن المسيح اقتاد البشرية إلى الله الآب . وقد رأينا فى البوذية المتأخرة أن القوم نسوا انسانية بوذا فاتخذوه معبوداً . وكل دين يقوم على انكار الله يعرّض نفسه للانهيار ، ذلك لأن البشر لا يرضون نظاماً تنتفى فيه كل فكرة عن أصل الحياة ومنشئها ومصيرها . فاذا خلت السموات من ربها ، بادر البشر على التوّ إلى ملئها بآلهة من مبتكرات خيالهم . فهذا الفراغ الذى أحدثه بوذا بانكاره الله ، تكمّله المسيحية بالله الآب الذى أعلنه المسيح ، الذى يجمع بين البشرىّ والالهىّ ، فى رابطة من المحبة لا تنفصم وشائجها .

وأفكارنا الصائبة عن الله تتبعها حتماً أفكار صائبة عن الانسان . فمن ناحية واحدة نرى « غوتاما » يرفع الإنسان إلى درجة سامية ، لا يدانيه فيها أحد . ولكنه من ناحية أخرى يخفضه إلى مرتبة وطيئة بنظرته المتشائمة فى الحياة ، وإقامته نظام التبتل والاستجداء ، وامتهان الجسد البشرى . وما أعظم الفارق بين التأمل فى الجسد « كجثة متعفنة سريعة العطب والفناء » ، وبين « اعتباره هيكلا للروح القدس » ! فالحياة فى نظر « غوتاما » شىء كريه ينبغى التخلص منه ، والطهر من أوزاره . وأما « النرفانا » فهى لا شىء للانسان العادى ، لأنه لن يقدر أن يبلغها ، وهى فى جوهرها أشبه بالفناء . وإنه لأنبل وأجدى أن نفكر فى الشخصية البشرية ، وقد تطهرت وتهذبت شهواتها وميولها ، من أن نفكر فيها وقد عدمت تلك الشهوات واندثرت . ومع احترامنا للناموس الأدبى الأخلاقى الذى وضعه بوذا ، وما ترتب عليه من نتائج الاحسان والاشفاق المتبادل بين أتباعه ، ينبغى ألاّ يغرب عن الأذهان

أنه يقيم نوعاً سلبياً من أنواع الحياة . وهو لهذا عدوٌّ التقدم والرقى . ومن هنا كانت البلدان التى سادها الفكر البوذى ، أقل البلاد سعياً فى ميدان الحياة ، وأضعفها أثراً فى اكتساب العالم إلى ملكوت الله .

وإن قلنا إن البوذية تجد فى المسيحية ما ينقصها من اعلان مظهر الله الآب ، واعلان حقيقة الإنسان ، فانها تجد فيها أيضاً رسالة الخلاص من الخطية . ذلك لأن البوذية تفرض قواعد صارمة لبلوغ « الكرما » . ويطغى على البوذية من جراء ذلك فكرة الناموس ، واستحقاق الشخص الذاتى . وبينما تقوم « الكرما » وازعاً إلى الصلاح ومانعاً عن الخطأ ، فانها تولّد نوعاً من الفضائل يظنها المرء مكتسبة بجهوده الخاصة واذلال نفسه . وليس فى البوذية أمل للنفس التى يشتدُّ بها الصراع وتخور فى العراك ، ولن تمتلىء النفس بفكرة متعمقة عن قداسة الحياة ، وشعور الحاجة إلى قوة تسند وتعضد فى الصراع ضد الخطية ، إلاَّ متى تلاقت النفس وجهاً لوجه مع الله ، وانتفت فكرة « الاستحقاق » الذاتى ، وعمر القلب بفكرة الاتكال على صلاح الله وجوده . وهنا تشير المسيحية إلى ناموس المحبة . وربما يمج البوذى أكثر من سواه كل تعليم عن كفارة المسيح ، مما لا يأتلف مع شعور العدالة . ولكن حقيقة محبة الله الغافرة التى لاتتجاوز عن الخطية ، بل تحملها فى نفسها ، توقظ فى قلب البوذى الشعور بالخطية ، والحاجة إلى إعادة الصلة المنقطعة مع الله .

ففى البوذية كثير مما يعبّد الطريق ويمدُّها لقبول المسيح . ومتى أخلص البوذيون لبوذا ، يصيرون إلى المسيح أكثر اقتراباً . لأن النموذج الأخلاقى الذى وضعه بوذا لا يعلو عليه نموذج آخر فى المبادىء التى وضعها أصحاب الأديان الأخرى — سوى المسيح . والفارق أن بوذا دعا إلى ثقافة انسانية ، أما المسيح فقد أدخل حقيقة الله إلى حياة بنى الإنسان .

أديان الشرق الأقصى

تمهيد

إن الموقف الديني العام في الشرق الأقصى يختلف تماماً عن الهند من نواح هامة . فالهند تنظر إلى الطبيعة كأنها وهم وخداع ، أو على الاقل تحنُّ إلى التغلب عليها، وقهرها بالفكر والتأمل، كأنها ذات قيمة من الدرجة الثانية أو حتى الثالثة . أما شعوب الصين واليابان فلا تهضم هذه الفكرة في يُسر . وهم قد أُولعوا بالطبيعة وحسبوها إلهاماً لكل فن جميل ، وبلغوا في هذا المضمار شأواً رفيعاً حتى يعشق كل منهم أن يطيل حياته على هذه الأرض بقدر ما أُوتي من حيلة وجهد . ولم تكن الطبيعة في نظرهم الحقيقة الكلية ،ولكنها تسهم بدور فعال في حياة الإنسان، وهي مجموعة من الأوضاع والقوى الحقيقية ، ليست الخيالية الوهمية الزائلة . وفي سيرها وأعمالها ، تبدي الطبيعة نظاماً منسقاً وجمالا رائعاً .

وقد تفوَّق شعب اليابان على شعب الصين في هذا المضمار ، فهم قد أحبوا الأشجار والأزهار وأمجاد مناظرهم الطبيعية ، ورسموها في لوحاتهم تحفاً رائعة في أشكالها وأوضاعها ، وتغنُّوا بها في أشعارهم قصائد مأثورة خالدة في آدابهم .

وثمة مظهر آخر في الوعي الديني في الشرق الأقصى يجب ألاَّ نغفله ، وهو أن الانسان والطبيعة متلازمان ، تؤلف بينهما وحدة عضوية لا خارجية عَرضية .

فمن المعتقدات القديمة لدى أهل الصين ، ان السماء والأرض والناس تربطهم معاً صلة حساسة متبادلة ، بحيث أن ما يطرأ على الواحد يؤثر على الآخر أيضاً . فاذا أساء الناس السلوك ، أو حتى إذا حاد الامبراطور وحده عن السبيل السويّ ، يضطرب سير الطبيعة كلها ، وتسود الفوضى جوّ السماء . وإذا أطاع البشر نواميس الطبيعة ، فان هذا يُرضى الأرض والسماء ، ويخلق تناسقاً عاماً فى الكون كله : تَفِرُ غلات الأرض ، ويعيش البشر فى سلام وفلاح . ومعنى هذا كله أن أجزاء الكون المختلفة ليست مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً خارجياً كأى نظام آلىّ ، ولكنها مرتبطة باحساس مشترك متبادل ، يؤثر أحدها فى الآخر تأثيراً مباشراً . ومثل هذا الاحساس نجده أيضاً عند أهل اليابان ، والذين يتمسكون بالتقاليد اليابانية القديمة يحسبون الإمبراطور ، وشعبه ، وجبال اليابان ، والسماء فوقها ـ تؤلف معاً مجموعة واحدة مترابطة ، تتأثر حساسية القوى الجوهرية فى كل منها بما يجرى فى الأخرى .

فهل هذه الأفكار عقيدة مقنَّعة بتعدد الآلهة ، أم هى فِكَرٌ روحية توجيها فلسفات روحانية ؟!

بلاد الصين :

آمن الحكماء القدامى فى بلاد الصين الذين عاصروا لاوتز وكنفوشيوس ، أنهم يستمتعون بثمار ثقافة قديمة ، يرجع تاريخها إلى أكثر من ألفى سنة . وقد أثبت الحكماء والفلاسفة هذه الحقيقة فى تقاليدهم وأحاديثهم . وإنا لواجدون فى أساطيرهم الكثيرة عن بدايات تاريخهم ، أقاصيص عن شخصيات ذكروها بالاسم مثل « يوتشاو » النشيط الذى علّم الأقدمين كيفية بناء أعشاشهم (بيوتهم) ، والحاذق « سوجان » الذى ابتكر النار بقدح عصوين احداهما فى الأخرى ، والامبراطور «فوسى» الصياد الكبير ، الذى علّم الأقدمين كيفية

ترويض الحيوانات ، واستخدام الحديد فى صنع أدوات الصيد ، وشباك صيد الأسماك ، واللعب على الآلات الموسيقية التى ابتكرها ، والامبراطور «شنغ نان» الفلاح الإلهى الذى صنع العربات التى تجرُّها الثيران ، ولقّن الناس فنون الزراعة والطب و ... و ....

ولم تكن تلك الشخصيات ـ هكذا تقول الأساطير ـ هى الأولى فى التاريخ ، بل قد سبقها غيرهم وغيرهم ، ممن عاشوا فى عشر حقب من التاريخ امتدت إلى مليونى سنة ! !

وهذه الأقاصيص الخيالية ، إن دلّت على شىء ، فهى تدلّ على تفاخر شعب الصين بثقافته القديمة ذات التاريخ المجيد . والآن لنلقِ نظرة على الأفكار الدينية التى اعتصم بها عامة الشعب فى بلاد الصين .

ان أديان بلاد الصين خليط من عناصر كثيرة ، بعضها وطنى ، وبعضها أجنبى ، بعضها سفسطائى مضلل ، وبعضها فطرى ساذج ، بعضها عقلىّ ، وبعضها خرافى . وانه ليصعب فى هذا المجال الضيق أن نعرض صورة كاملة من العقائد القديمة التى طغت عليها المعتقدات الحديثة نسبياً ، وخاصة لأن الشيوعية التى تغلغلت فى تلك البلاد منذ سنة ١٩٤٩ قد أحاطتها بستار من أشجار الغاب ـ كما يقولون ـ بحيث يصعب على الباحث تتبع آثار هذا التغيير الشامل ، الذى قلب أوضاع الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والعقائدية . على أن الثورة ، أيا كانت قوتها وشمولها ، لن تقدر أن تجتث من أصولها العقائد الدينية التى تعمقت جذورها فى قلوب الناس مدى أجيال من التاريخ .

والآن سنقفز قفزة عالية فى بحثنا ، ونترك وراءنا أديان الصين القديمة قبل عصر كنفوشيوس ولاوتز وبوذا ، ونقصر حديثنا على هذه الأديان التى كانت سائدة فى البلاد قبل الثورة الشيوعية ، وذلك لأنها باقية حيّة تكافح فى سبيل البقاء ، ولأن تعاليمها تحاول التغلغل فى المبادىء الثورية فى عناد وإصرار ، على الرغم مما تلاقيه من عنت وتضييق .

الكنفوشية

وغيرها من أديان بلاد الصين

قلنا إن شعب الصين يختلف اختلافا بيِّنا عن شعب الهند . فالهندى يمتاز بالانغماس فى الأشياء الروحية ، والإيقان فى طبيعة العالم الزائلة المتقلبة ، والتفكير العميق فى الله . أما الصينى فبحسب طبيعته لايهتم إلا قليلا بهذه الشئون . وفى بلاد الصين يقطن شعب بقى مدى الأجيال فى عزلة عن العالم ، من فجر التاريخ إلى هذا العصر الحديث ، وكان لهذه العزلة أثرها فى تكوين أخلاق قومية بارزة ، وشعب ذى طبع عملى قليل المبالاة ، فخور بتاريخه الاجتماعى والقومى ونظمه الخاصة . وقد كانت الصين فى فنون الحضارة فى مقدمة أمم العالم . والآن ، وقد شهدت مؤخراً آثار علوم الغرب وثقافته ، بعد أن تخطت حدودها القديمة ، فانها تدأب بعزم متوثب وهمة فتيِّة فى اقتباس تلك القوة والمؤثرات التى اعتزَّ بها الغرب . والذين يعيشون من الأجانب فى ربوع تلك البلاد يعجبون أيما اعجاب ، بما يرونه من مقدرة ومتانة أخلاق ذلك الشعب العظيم . ولا يقلُّ اعجابهم هذا بسبب مايشهدون من الفوضى والاضطراب اللذين أعاقا تقدم البلاد فى اكمال حقها من الديمقراطية السياسية .

الدين فى بلاد الصين

مادين الصين ؟ ليست الإجابة على هذا السؤال هيِّنة . ففى تلك البلاد أديان ثلاثة الكنفوشية والبوذية والتاوزمية . وليس مستطاعاً أن نقول ان بعض أهليها كنفوشيون ، والبعض الآخر بوذيون ، وغيرهم تاوزميون ، كما نقول مثلا ان سكان الهند بعضهم هندوسيون وبعضهم مسلمون ، ذلك لأن الصينى قد يكون كنفوشياً وبوذياً وتاوزمياً فى وقت واحد ! يضاف الى هذا أن

الـكنفوشية هى فى الحقيقة اسم على نظام دينى قبل أن يظهر كنفوشيوس فى الوجود بأجيال كثيرة . وليس للتاوزمية علاقة بالفلسفة التى نادى بها مؤسسها، والطريقة الممكنة التى نختطها الآن ، هى أن نصف كلاً من هذه الأديان وصفاً موجزاً ، ثم نستجمع العناصر الأصلية فى الآراء الدينية العملية التى يعتنقها الصينى العادى .

الفلاسفة الثلاثة

إن العالم مكان كبير واسع الأرجاء ، ويضع التاريخ أمامنا أمماً وشعوباً كثيرة ، وفى داخل كل أمة ، أجناساً وأصنافاً من البشر ، لـكل منها تقاليدها وعقائدها وممارساتها وعباداتها . على أن فى الطبيعة البشرية فى كل مكان ، عنصراً يستجيب إلى مثُل عليا فى السلوك الدينى ، تتسامى فوق العادات التقليدية والضرورات النفعية . وإنا لنرى فى بلاد الصين مثلاً ، حكيمها منسيوس ، الرجل الملهم الثانى بعد كنفوشيوس[1] ، رجلا متفائلا يقف دائماً مؤيداً الخير الطبيعى فى الطبيعة البشرية ، وإليه يُنسب القول :

« فى أعماق المشاعر الإنسانية تترسب فـكرة الخير . فالاحسان والبرّ واللياقة والتأديب والمعرفة ـ هذه كلها لا تنبُت فينا بمؤثرات خارجية ، ولـكنها متوافرة فى دواخلنا » .

من ثمَّ نجد الحـكمة التقليدية الصينية فى جوهر كل الأشياء مبدأ إلهياً ، أو شريعة يسمونها « الطريق Tao » ، وهى أقرب ما تـكون إلى ما يسمّيه الرواقيون «الطبيعة» ، التى يجب أن تنسجم معها كل الأشياء ، فى السماء وعلى الأرض ، والتى تقاربها وتماثلها الطبيعة البشرية . ولذلك تحسب معرفة «الطريق» Tao أسمى أنواع المعرفة ، والسير على مقتضاها أرفع أنواع الحـكمة ـ وإذا عدنا

(١) توفى كنفوشيوس سنة ٤٧٨ ق . م • وتوفى منسيوس سنة ٢٨٩ ق . م .

إلى الآداب الصينية القديمة ، نجد « القواعد » الدينية والاجتماعية فى التقاليد الصينية بمثابة ارادة « السماء » . والسماء هى الإسم الذى يطلق على « القوة العليا الأسمى » ، التى تضبط شئون البشر ، وهى قادرة على كل شىء ، عالمة بكل شىء . وكأنما لهذه « القواعد » المتأصلة فى السماء ، أصداء على الأرض ، وهى تنطبق على الخلائق الروحية . وقد كان مبدأ Tao هو الفكرة المسيطرة على نظام «التاوزمية Taoism» وهو النظام التقليدى المنافس لنظام كنفوشيوس ، وان تكن التاوزمية قد انحدرت فيما بعد ، حتى باتت تصوفاً يؤمن بحلول الآلهة ، لايبالى ، ولايميِّز بين الأشياء ، ويقف موقفاً سلبياً تجاه المثل الأخلاقية . وكان شأنه فى هذا شأن الفلسفة العقلية الهندوسية ، التى لم يكن لها أثر فى المثُل الأخلاقية . ثم انحدرت انحداراً آخر على مرّ الزمن ، فأمست عقيدة مسرفة فى تعدد الآلهة ، وممارسة فنون السحر للوقاية من الشياطين ، وهى فى هذا المجال ، قد تشابكت أيديها مع أيدى الهندوسية ، وشاركتها مصيرها كما سنرى فيما بعد .

على أن هذا المبدأ ، أو هذه العقيدة ، لقى على يد كنفوشيوس تطوراً مغايراً . وإنا لنجد أحياناً أقواله محوطة بالغموض والابهام ، ولكنها حافلة بالحكمة الناضجة العاقلة ، وهى تصور لنا فعلا عقل رجل حكيم عظيم ، طيب القلب . وحسبنا أن نثبت هنا عبارة قالها عنه مُؤرخ صينى فى القرن الثانى قبل الميلاد للدلالة على علو مكانة هذا الرجل ، قال :

« كثيرون هم الأمراء والأنبياء الذين شهدهم العالم على مسار التاريخ ، صعدوا إلى قمة المجد ، ثم صاروا نسياً منسياً . . . ولكن كنفوشيوس ، وهو عضو متواضع من الجماهير ، ذوى الملابس القطنية ، باق معنا وبيننا أجيالا طوالا . ويصح أن ننعته بأنه أفضل الرجال الالهيين . لقد أحب الفضائل الخالدة ، وعاش على مقتضاها : العدل ، والحق ، والصدق ، وضبط النفس ، والاشفاق ، والأمانة والشجاعة ـ ووضع فى مرتبة عليا من التوقير والإكرام واجبات الانسان نحو

والديه ونحو الملك . ان واجب الابناء للآباء هو النبع الذى تتدفق منه كل الفضائل الأخرى » .

على أن فكرته عن السلطة لم تكن سلطة مطلقة ، وألحّ على أن يكون المبدأ الأدبى فى الحياة هو مبدأ التبادل . فواجب الطاعة يفترض حكومة عادلة .

وقد عبّر عن مبدأ التبادل هذا بقوله : « مالا تريد أن يفعله الناس بك ، لاتفعله أنت بالآخرين » . وقد قال لاوتز : « جازوا الشر بالاشفاق » ، أما كنفوشيوس فقال : « جازوا الاشفاق بالإشفاق ، والأذى بالعدل، هذا هو مبدأ التبادل » .

وكان كنفوشيوس محافظاً ، وقرن مثله العليا بالماضى على نسق أمجد التقاليد ، وجاهد جهاداً عنيفاً على قدر طاقته ، لاعادة المبادىء القديمة فى النظام والطاعة . وهو لم يعتنق فكرة سامية عن معاصريه ماعدا الحفنة القليلة ممن أسماهم « الأولاد الصغار » من أتباعه ومريديه . وفى أقواله لايضع المبادىء السامية التى قد تصلح للعالم كله ، لأنه عُنى فقط بشعبه وتقاليده .

وإذ وقد وجد نفسه فى عالم مضطرب تسوده الفوضى ، وتكثر فيه الأديان التى عجز عن أن يرى فيها عوناً وعضداً ، اتجه فى تفكيره إلى إحياء الآداب، وتوطيد دعائم السلام على أسس التقاليد الصينية فى الواجبات والفروض .

وهو لم يتحدث قط عن الدين ، أى دين ، لكنه حاول أن يبتدع مبرراً إلهياً لكل آدابه ، التى تأصلت جذورها ، لا فى الضرورات الإنسانية ، بل فى النظم الإلهية .

أما تلميذه المتأخر ـ منسيوس ـ فقد تناول أفكار سلفه وراح يُضفى عليها مسحة من الجدّة . وهو فى الحق واضع نظام فى الأخلاق والاقتصاد السياسى ،

ترنُّ أصداؤه رنيناً جديداً مستحدثاً ، ويبدو أكثر تعلقاً بالشئون الدنيوية من أستاذه ، ومع أنه أصرّ على فكرة الخير الطبيعى فى الإنسان ، إلاَّ أنه يرى شبه صلة بين هذا الخير ، وبين مبدأ إلهى غامض كل الغموض .

وفضلا عن المؤثرات والسلطان الذى أبدعه الفلاسفة الثلاثة الذين أشرنا إليهم فيما سبق ، فاننا واجدون فى بلاد الصين مجموعة مبعثرة من العقائد التقليدية والممارسات ، لايمكن وضعها تحت نظام معين . وتواجه بلاد الصين الآن مهام هائلة ضخمة للنهوض سياسياً وأخلاقيــاً وروحياً . أما الكنفوشية وهى مصدر نظامها التقليدية ، فهى مقترنة بنظام آخذ فى الزوال بحيث لايصلح أن يكون دعامة لبناء نظام جديد لهذه البلاد الشاسعة الأرجاء التى تتشاحن فيها التعاليم والنظريات .

مَن هو كنفوشيوس ؟

هو مفتاح الدين الصينى ، قد تمثلت فى حياته وكتاباته وجهة النظر الصينية العادية فى الحياة والدين . هو المثــال الذى يحتذيه الرجل الصينى فى أسمى أوضاعه . وله فى نفوس القــوم مكانة التوقير والإحترام ، ويتخــذونه نموذجهم الكامل .

ولد سنة ٥٥١ ق . م . وكان أبوه ضابطاً حربياً ممتازاً من سلالة عريقة ، توفى ولمّـا يبلغ ولده الثالثة من العمر ، وخلف أسرته فى فقر . وقد انصرف الغلام كنفوشيوس منذ حداثته إلى الدرس والبحث ، وخصوصاً درس آداب القدماء . ولما بلغ أشدَّه ، عيِّن فى وظيفة حكومية ، وأخذ يتقلب فى المناصب بكفاية نادرة . وكان فى خلال تلك السنوات يفــكر تفــكيراً عميقاً فى أحوال بلاده ، ويــكوِّن فلسفته الاجتماعية والسياسية . وفى نهاية الأمر هجر وظيفته الحــكومية وانقطع إلى وظيفة التعليم . فأقبل نفر من الشباب من كل رقاع وطنه وجلسوا عند

قدميه لينهلوا من معين حكمته . ولم يلبث طويلا حتى ذاع صيته وعلا شأنه . وكان تلاميذه من العلماء المبرزين، وقد نظروا إلى كنفوشيوس نظرة إكبار واحترام تكاد تفوق عبادة الأبطال الأفذاذ . وفى هذا وحده دليل على علوّ كعبه فى التعليم والحكمة . وبلغ صيته مسمع الملك والحاكم فى « شو » ،فدعاه إلى مجلسه فلبَّى دعوته مغبوطاً لما كان للأسرة المالكة من الكرامة والحب فى أعين الشعب . ويقال انه عند زيارته لعاصمة ملكه ، التقى بالفيلسوف « لاوتز » ، فنهره هذا على اعتداده بنفسه ، ودعواه أن فى طوقه إصلاح العالم بتعاليمه . وبعد أن قضى سنوات فى تعليم تلاميذه ، والدرس والبحث ، وتأليف أسفار فى الآداب القومية القديمة ، عينه أحد النبلاء ويدعى « لو » فى وظيفة رئيس القضاة بالمدينة . ثم انتقل منها إلى رئيس الوزراء ، على أن يباح له تنفيذ آرائه فى مقاطعة لو . ويقول تلاميذه انه أصاب فى ذلك فوزاً مبيناً ، « فالجرائم اختفت . وكان الشيء إذا سقط فى الطريق لا يلتقطه أحد . وصُنعت صناديق الموتى من ثخانة عادية . وبَطل تمييز القبور بإقامة المتاريس عليها . وحددت أسعار واحدة فى الأسواق» . ولكن منافسيه أوقعوا بينه وبين الحاكم ، وراحوا يتزلفون إلى هذا الحاكم بتقديم الهدايا من نساء جميلات وعمائر ضخمة ، فحولوا عقله وفكره عن الأخذ بنصائح كنفوشيوس الحكيم ، فاضطر هذا إلى اعتزال وظيفته . ولم يوضع قط فيما بعد فى موضع القوة والنفوذ . ومما يذكر له بالفخر أنه لم يسعَ إلى ذلك يوماً ، ولم يحدْ قيد أنملة عما اعتقده حقاً ليرضى الشعور العام ، فكرّس بقية حياته فى تعليم تلاميذه ودراسته الآداب القديمة التى أكمل أسفارها قبيل أواخر حياته ، وخلفها تراثاً مذخوراً لبلاده . وتوفى سنة ٤٧٨ ق . م .

عبادة شنفتاى

وقبل الخوض فى نظم كنفوشيوس ، لامندحة لنا عن الرجوع أولا إلى دين

بلاد الصين قبل عصره : كان دينهم قائماً على ثلاثة أوضاع : عبادة شنغتاى الإله الأسمى ، وعبادة الأسلاف ، وعبادة الأرواح . فى عبادة « شنغتاى » نرى مُثلا روحية سامية . وإلى القارىء بعض العبارات المقتبسة عن الصلوات التى كانوا يرفعونها إلى « شنغتاى » ربهم فى فصل الصيف وفصل الشتاء ، حين كان يتقدم إليه الإمبراطور كرئيس كهنة نيابة عن الشعب :

« إليك أيها الصانع العظيم يتّجه فكرى ... وأنا عبدك لست إلا قصبة مرضوضة ونبتة هزيلة . قلبى قلب نملة حقيرة . ومع ذلك فقد نلت لديك شرفاً وحظوة إذ جعلتنى حاكما لهذه الامبراطورية . وها أنا اعترف بجهلى وعمى قلبى . وأخشى أن أكون غير أهل لهذه النعم الوافرة . فهبنى أن أراعى فى وقار الشرائع والأحكام ، باذلا جهدى على الرغم من صغر شأنى ، لأن أقوم بواجبى بولاء وإخلاص . وعن بعد أتطلع إلى مقامك السماوى ، فتعال فى مركبتك الفاخرة إلى هذا المذبح . وها أنا خادمك أعفّر وجهى فى التراب متوقعاً جزيل نعمتك . . . لترضى بأن تقبل تقدماتنا ، وترمقنا بعينيك حين نعبدك ، ياذا الصلاح غير المتناهى » .

وهذا الضرب من العبادة يرجع تاريخها إلى العصور الأولى فى التاريخ الصينى . فمنذ التاريخ كان وراء جميع الممارسات والإجراءات الدينية التى مارسها الصينيون ، تلك العقيدة العظمى عن إله سام عظيم ، عقيدة أحيطت فى بعض الأحايين بسجف من الغموض والإبهام ، ولم تظهر ثمارها فى الحياة القومية ولكنها لم تبرح قط عن الأذهان . ويطلق على « شنغتاى » هذا (أو الإله المتعالى) فى مصطلحات الآداب القديمة لقب « تيان » أو السماء . وهذا هو اللقب الذى شغف به كنفوشيوس نفسه ، وجرى على التحدث به كثيراً . وخليق بنا أن نعير التفاتاً إلى طريقة الخطاب التى جرى عليها

كنفوشيوس لإله تنقصه عناصر الشخصية . ولعل نفوذه هو صاحب الفضل في بقاء فكرة الإله العليّ المتسامي مجرداً عن الشخصية .

وكان للامبراطور وحده حق عبادة شنغتاى — نائباً عن شعبه — فأدّى هذا أيضاً بطبيعة الحال إلى إبعاد فكرة الإلهية السامية عن محيط العبادة العملية .

عبادة الأرواح

لم تغبْ عبادة الأرواح قط عن بلاد الصين ، ولم تنفصل أبداً عن أسمى مافيها من تعبد . فإلى جانب عبادة الامبراطور للاله شنغتاى ، ترى لوحات تمثل الامبراطرة السابقين ، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح والرعود ، موضوعة إلى جانب لوحة الاله العظيم ، وفى مقام منخفض عنها . وان فى قبول آلهة أخرى على هذا النحو ، ولو كانت خاضعة للاله الأسمى وأقل منه شأناً ، لانحداراً إلى الوثنية . والواقع أن الكنفوشية منذ أن توفى زعيمها مالت إلى ضروب شتى من الوثنية ، ولو أنها فى الظاهر وبالإسم فقط تعيب الوثنية وتنعيها . وإلى جانب الأرواح التى ذكرنا ، ظهر عدد غفير من الآلهة ذكوراً وأناثاً ، ومجموعة أخرى من مبتكرات وأقانين عامة الشعب .

عبادة الأسلاف .

وأهم من عبادة الأرواح عبادة الأسلاف . يقول كثيرون ان هذا هو الدين الحقيقى لشعب الصين . ويرجع تاريخه إلى العصور الخوالى ، وما زال شائعاً مألوفاً حتى هذا العصر . وليس يحرص الصينى على شىء حرصه على هذه العبادة ، فأنت قد يُباح لك أن توجه الملام إلى أى شىء فى الصين . أما أن تمسّ عبادة الأسلاف بسوء ، فهذا ما لا يرضاه الصينى ويصدّك عنه فى جفاء . والأرجح أن هذه العبادة بدأت أولا ضرباً من ضروب التكريم للميت بعد الوفاة ، ثم استحالت إلى عبادة

الأبطال الحكماء من رجال الشعب . وأخذت العادة تنتشر بين القبائل والأسر تغذوها روابط الأسرة فى بلاد الصين ، وهى قوية بطبيعتها فى تلك البلاد ، حتى أصبح كل الأسلاف موضع التوقير والعبادة من الجميع على السواء .

واللوحة المستعملة فى عبادة الأسلاف هى عادة « لوحة صغيرة من الخشب يبلغ علوها ثمانى بوصات وعرضها بضع بوصات يُنقش على وجهها اسم الشخص الذى تمثله » . وتحفظ هذه اللوحة فى دار الأسرة مدى حياة جيل أو اثنين من أجيال الأحياء عقب انتقال المتوفى ، ثم تنقل بعد ذلك إلى هيكل أسلاف القبيلة أو الأسرة . ومن حين إلى آخر تُقدم إلى هذه اللوحة التقدمات ، وخصوصاً فى عيد ميلاد المتوفى أو يوم ذكر موته من كل سنة . ويقول الجيل النابت فى معرض الحديث عن المتوفين : « آباؤنا وأمهاتنا » أو « أجدادنا وجداتنا » . ولهذا النظام أثر بارز فى تقوية نفوذ الأسرة أو القبيلة على الفرد بحيث يعسر عليه جداً الخروج على التقاليد والعادات المرعية . وإنه ليصعب على المرء أن يدرك المدى الذى يذهب اليه الصينى فى عبادة أرواح أسلافه وما تنطوى عليه تلك العبادة من عطف وولاء . وفى أغلب الأحيان تمتزج هذه العبادة بكثير من العطف والحب الخالص للمتوفين ، وفى أحيان يخالطها الخوف مما تفعله تلك الأرواح لو لم يعبدها اللاحقون ، وفى أحيان أخرى ليست إلا مجرد طقوس وممارسات رسمية جرى عليها العرف والعادة .

هذه هى الخيوط الثلاثة التى يتكون منها نسيج الدين فى بلاد الصين : عبادة شنغتاى ، وعبادة الأسلاف ، وعبادة الأرواح .

العلاقات الخمس .

يقال ان كلمة واحدة — يشار اليها فى اللغة الصينية بحرف واحد — هى التى تلخص كل تعاليم كنفوشيوس ، وهى لفظة « التبادل » ، إذ يقول ان

جوهر الحياة الصالحة ، للفرد وللأمة ، يقوم على حسن أداء الفرد لواجبه ورعايته للراوبط التي تربط الناس بعضهم ببعض . وعندهم علاقات رئيسية خمس: علاقة الأمير بالرعية ، وعلاقة الأب بالابن، وعلاقة الأخ الأكبر بأخيه الأصغر ، وعلاقة الزوج بزوجه ، وعلاقة الصديق بصديقه . فإن روعيت كل هذه العلاقات حسُن حال الدولة .

التقوى البنوية

على أنهم يعلّقون أهمية كبرى على الرابطة البنوية ، وهي في بلاد الصين أشد القوى الأدبية ، فان الرجل قد يذبح ابنه ولا يعتبر فى فعلته إلا متطرفاً فى استخدام الحقوق الأبوية . أما إذا قتل الابن أباه ، فهذه جريمة فظيعة يعاقب عليها القانون بأقصى صنوف التعذيب . ويقال بالإجماع ان التشدد فى رعاية هذه الرابطة كان لخير البلاد ، انما هذه الفضيلة فى نظرنا ذات ناحية واحدة ، وليس ما يقابلها فى واجبات الآباء نحو أبنائهم . وقد يفرطون فى رعاية هذه الحقوق إفراطاً سخيفاً ، مثال ذلك ما رُوى عن أحدهم من أنه « كان يخشى أن يدرك أبواه حقيقة تقدمه فى الأيام وبلوغه سن السبعين ، فيرهبا شيخوخته . لذلك كان يرتدى ثياب الأطفال ، ويطفر أمام والديه كصبي صغير » .

الدولة

وقد دارت تعاليم كنفوشيوس الأدبية فى أساسها حول الدولة وعلاقة أبنائها بها ، والصفات التى ينبغى أن تتوافر فى مليكها وحاكمها . فإذا صلح حال الإمبراطور صلح حال الدولة والشعب . ولقد استمد مبادئه الأدبية ومُوحياته من تاريخ السلف . وأراد أن يوطد حياة الأمة على تلك المبادىء التى أثبت التاريخ الماضى صلاحيتها . أما عن ضمير الفرد وعلاقته بالله ، فلم يقل إلا القليل .

وكان اهتمام كنفوشيوس متجهاً فى أصوله إلى علاقة الإنسان بالإنسان . أما عن العلاقة بين الله والإنسان فالظاهر أنه لم يعبأ بها كثيراً . وسلّم بعبادة الإله « شنغتاى » القديمة ، وكذا عبادة الأسلاف ، وأباح شيئاً من عبادة الأرواح لغرض الثقافة الرسمية العامة . ولكن عقله الكبير المفكر أمتهن هذه العبادة جملة واحدة ، وخيّل اليه أن عبادة القوى غير المنظورة من الأمور غير الضرورية إذا قيست بمهام الإنسان الأخرى . ومن أقواله : « لم نقدر حتى الآن أن نؤدى واجباتنا نحو الإنسان ، فكيف نؤديها نحو الأرواح ؟ » أما عن الحياة بعد الموت فأبى أن يصرح بشىء . والحق أننا مسوقون إلى الاعجاب بإخلاص ذلك الرجل ونزاهة عقله ، لأنه يأبى الخوض فى أمور لا يدريها . وبينا نأسف لأن آدابه « لم تتأثر بالعاطفة » ، فانّا نقرّ أن موقفه « اللاأدرى » كان بمثابة احتجاج ضد عبادة الأرواح الفاسدة ، ولعب دوراً نافعاً فى تاريخ أمته الدينى .

تعاليمه الادبية

ألمحنا من قبل إلى بعض تعاليمه جملة . ولقد بلغ كنفوشيوس فى تعاليمه مستوى أخلاقياً رفيعاً كان له أبلغ الأثر فى حياة بلاد الصين وإلى القارىء بعض أقواله :

« أليس رجلا فاضلا ذاك الذى لا يشعر بانزعاج ، حين يغضّ الناس الطرف عنه ؟ » .

« اجعلوا الأمانة والاخلاص من المبادىء الأولى » .

« إن الرجل الفاضل فى كل شىء يحسب البرّ من الضرورات » .

وقد وضع القاعدة الذهبية فى صيغة السلب :

« لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يُفعل بك » .

وحين سمع أن « لاوتز » قال : « جازوا الشر بالخير » — حار فى أمره

وقال : « جازوا الشر بالخير ! إذاً بماذا نجازى الخير ؟ جازوا الأذى بالعدل ، والخير بالخير » . وربما كان هذا نقصاً أدبياً فى نظامه . فإن فضائله هى فضائل الإنسان الطبيعى فى أحسن أوضاعه . أما أن نجازى الشر بالخير ، وهو شأن الله معنا ، فظنَّه مقياساً أدبياً فوق طاقته .

ثم أن أخلاقياته ضعيفة أيضاً من ناحية الخطية البشرية . فهو يؤمن أن طبيعة الانسان فى أصلها صالحة ، ولو اتبع موحياتها قادته إلى الصلاح ، أما الخطأ فيعزوه إلى الجهل . وهو لم يدرك صراع بولس مع الجسد الذى تمثل فى صرخات المجرَّبين من البشر مدى الأجيال : « الذى لا أريده هـذا أفعله » . والظاهر أن زميله الحكيم الصينى الآخر « لا وتز » تعمق إلى أبعد من هـذا فى الحياة البشرية ، ولو أنه لم يكن ذا أثر كبير فى بلاده .

اهميه كتب الادب القديمة

ولقد أفرز كنفوشيوس شطراً كبيراً من حياته فى تنقيح كتب الأدب الصينية القديمـة « الـكلاسيكيات » . وبعد موته صنِّفت المؤلفات عنه وعن تعاليمه . وليس هيناً علينا أن نقدّر خطورة هـذه الـكتب فى تاريخ الصين . فإن قلنا انها كتب الـكنفوشية المقدسة كان قولنا حقاً ، ولـكنه بعض الحق ليس إلاّ .

ويحول ضيق المقـــام هنا دون التبسط فى وصف التعليم الصينى ، على أن الشعب الصينى يبزُّ كل شعوب الأرض فى شعوره بضرورة التعليم ، وفى تـكريمه العلم والعلماء . والعامة لا تعرف كثيراً عن الـكتب ، ولـكن تعرف منها أقوالا مأثورة جرت مجرى الأمثال ، ويعلمون أنه لو أتيح لولد أن ينبغ فى علوم الأدب القديمة ، فإن كل المناصب العليا فى البلاد قد تسعى إليه . وقد أدّت الاصلاحات

التعليمية الحديثة إلى تغيير الموقف بالنسبة لكتب الأدب القديمة ، ولكنها لم تبدّل موقف الصينى حيال التعلمّ .

مكانة المرأة

وأما مكانة المرأة فى الصين فقد كانت دائماً منحطة وضيعة . وفى قصيدة شعرية قديمة يُروى عن بطل وُلد له بنون فاضطجعوا على وسائد ناعمة . . . ووُلد له بنات فنمنَ على الأرض الوعرة ! وخلقت المرأة فى عرفهم ، وهى من الجنس الأدنى ، للاعمال الحقيرة الدنيئة . وما عادة حزم الأرجل بأحذية من حديد منذ الصغر — التى أخذت تزول الآن بفضل المؤثرات الغربية — إلا أثر من آثار امتهانهم للمرأة . وكنفوشيوس لم يعمل شيئاً لرفع المستوى الصينى ، لأنه فى نواح كثيرة آثر البقاء فى المستوى العادى المألوف .

التاوزمية

قلنا ان الكنفوشية هى أكثر الأديان ذيوعاً فى بلاد الصين . وهناك دين آخر يدعى «التاوزمية» نسبة إلى مؤسسه «لاوتز» وقد ألمحنا إليه من قبل . ويذكرنا هذا ببوذا من بعض الوجوه . فقد ولد حوالى سنة ٦٠٤ ق.م. فكأنه كان معاصراً لكنفوشيوس وأكبر منه سنا . كان «لاوتز» فيلسوفاً ، بينما كان «كنفوشيوس» سياسياً ومصلحاً أدبياً ، وأودع نظامه وتعاليمه فى سفر خاص .

وكان فى دين «لاوتز» هذا فكرة أساسية عبّر عنها بكلمة (Tao) — كما قلنا — وهى كلمة ذهب العلماء مذاهب شتى فى ترجمتها . وإننا لنذكر أن الفكر اليونانى قبل عصر المسيح نشط للتعبير عن المبدأ المسيطر فى الكون فقال بعضهم انه « العقل » ، وذهب آخرون إلى أنه « الطبيعة » . ثم نشط اليهود أيضاً فى ذلك العصر للتعبير عن مظهر الله فى التاريخ فقالوا هو « الحكمة » ، بينما اصطلح اليونان بكلمة (Logos) للافصاح عن المبدأ النهائى الكلى لكل الأشياء .

وقد شغف « لاوتز » الذى عاش قبل هؤلاء وأولئك بنفس هـذا التفـكير النظرى حول المبدأ المسيطر فى الـكون الذى أطلق عليه (Tao) .

ولقد ترجم العلماء هذه الـكلمة الصينية فقالوا : العقل ، المبدأ ، الطريق ، الطبيعة ـ وهى تشبه « الحـكمة Wisdom » العبرانية و « الـكلمة Logos » اليونانية ، وإن اختلفت عنهما . وهى تعبّر عن المبدأ فيما وراء عالم الطبيعة ، كما هو مُعلن فى الطبيعة وفى الجنس البشرى .

والظاهر أن المثل الأعلى فى تعاليمه هو أن يسمح الإنسان للطبيعة أن تعمل فى حياته كيفما تشاء ، فلا يركن إلى جهاد إرادته بلا جدوى . وكان « لاوتز » رجلا بعيد النظر ، ثاقب الرأى ، ويقال عنه انه حين التقى بكنفوشيوس ألمح له إلى خطأ مبادئه الأساسية التى تزعم أن القانون كفيل بإصلاح الانسان ، وقال له فى عبارة صينية جرت مجرى الأمثال : إن الانسان لا يفعل الصلاح لأن « أعماق قلبه لا يستقر فيها شىء من الصلاح » . وكأنه يردد هنا ما جاء فى إنجيل يوحنا « ينبغى أن تولدوا ثانية » . ومن تعاليمه أن يجازى الشرّ بالخير . وهذا عكس ما دعا إليه كنفوشيوس . ومع ذلك فإن « لاوتز » هـــذا لم يؤثر إلا أثراً ضئيلا فى بلاد الصين . وذلك لأن رسالته الوحيدة كانت أن يهجر الناس العالم ، بينما انصرف كنفوشيوس فى دعواه إلى إصلاح المجتمع .

وليس للتاوزمية شىء من هذا المعنى فى هذا العصر إلا فى عقول نفر قليل من الـكهنة والعلماء . ولم تعد اليوم إلا مزيجاً من الخرافات ، تدور حول قوى الطبيعة وتـكريمها عند وضع أسس المنازل أو حفر القبور . واختلطت بها فى سهولة مناجاة الأرواح ، وقراءة الـكفوف ، والسحر والتعاويذ . ولعلّ إباء الـكنفوشية وقطعها كل علاقة بمثل هذه المظاهر ، هو الذى حمل هذه الخرافات الوثنية على الالتجاء إلى الديانة التاوزمية . لقد تسللت إليها الخرافات بسبب ما

انطوت عليه من أسرار غامضة ومعان ملتبسة . وربما كان فى هذا الغموض قوتها التى تفتقر إليها الكنفوشية ، ولكنها كانت أيضاً سبب ضعفها .

البوذية الصينية

وفدت البوذية إلى بلاد الصين حوالى بدء العصر المسيحى على يد المرسلين الهنود ، وبفضل الحجاج الصينيين الذين ذهبوا إلى الهند وعادوا إليها حاملين الرسالة البوذية . فلما استوطنت هناك طرأت عليها بعض التغييرات . فبوذية الهند لا إله لها . ولكنها حين انتقلت إلى الصين مالت إلى الاعتقاد بفكرة كائن مطلق يتمثل فى شخصيات مختلفة ، بوذا واحد منها . وأشهر تلك الشخصيات فى بلاد الصين مَن يدعونها « كوان ين » ، وهى عندهم إلهة الرحمة يرفعون إليها الابتهالات فى المعابد البوذية .

ثم زالت فكرة « النرفانا » فى البوذية الصينية ، وحلّت محلها فكرة الفردوس المادية ، وفيه تنعم النفس بالحديث مع الشخصيات الإلهية . والبوذى الصينى لا يفقه شيئاً من معنى « النرفانا » الهندية ، ولكنه يعتقد أنه سيذهب بعد الموت إلى فردوس فى الغرب .

والصلوات ، أو على الأقل الابتهالات ، ذائعة فى البوذية الصينية مع أنه لا وجود لها فى البوذية الهندية التى شرعها بوذا نفسه . وفى بعض رقاع الصين قد أدخلت عجلات الصلاة الآلية التى يستعملها أهالى التيبت .

ثم إن النظام المقدس الذى وضعه بوذا لجماعة الشحاذين الزاهدين قد استحال فى بلاد الصين إلى جيش عرمرم من النساك والناسكات ، معظمهم فى أحط درجات الجهل والغباء .

فكأن البوذية عند انتقالها إلى بلاد الصين قد أمست مادية ، وابتعدت عن روح مؤسسها ، ولكنها استمسكت بطقوس ورسوم جافة . ومع هذا كله فإنه

من الخطأ أن نضعهـا مثلاً فى مرتبة واحدة مع التاوزمية ، ذلك لأنها فعلت كثيراً فى إحياء فـكرة الخلاص فى بلاد الصين . وبينما عملت الـكنفوشية لحمل الناس على الاكتفاء بفضائلهم الذاتية ، فإن البوذية قد رسمت أمامهم صورة باهتة لفـكرة الخلاص (ليس الخلاص من الخطية ، بل الخلاص من العالم المتألم بسبب خطيته) ، عن طريق تضحية اختيارية من جانب قوة أخرى .

خلاصة الديانة الصينية

والآن لنلخص ديانة الصينيين : منذ التاريخ القديم، سادت فيها عبادة الإله « شنغتاى » ، وعبادة الأسلاف أيضاً . ثم جاء كنفوشيوس فأقام ، بالأسفار المقدسـة التى كتبها ، وبتعاليمه وحياته الشخصية وأخلاقه ، مجموعة من التقاليد مازالت باقية حتى اليوم . فقبل العبادة القائمة فى عصره ، ومزج فيها تعاليم أدبية اجتماعية اقترنت باسمه ، ترمى كلها إلى سلام الأمة ورفاهيتها . وتضيف البوذية إلى هذا كله شيئاً كثيراً من السحر والشعوذة والخرافات ممتزجة بشىء من الدين الحقيقى . أما التاوزمية فهى ــ ما خلا الفلسفة التى لا يفقهها إلا نفر قليل من العلماء ــ وضع من أحط الأوضاع للسحر والسفسطة والمماحكة . وهـذه الأديان الثلاثة مشتبـكة مضفورة معاً وكلها رسمية ، حتى البوذية والتاوزمية معترف بها . ومن دلائل هذا الخلط الدينى الغريب أنه على الرغم من الاعتراف الرسمى بالتاوزميـة والبوذية ، تجد الـكنفوشية تذيع مرة كل أسبوعين فى كل هيكل كنفوشى نداء تنعى فيه البوذية والتاوزمية حاسبة إياهما عبادة وثنية ، وبعد هـذا كله يصح القول ان الصينى هو فى الوقت الواحد كنفوشى وبوذى ، وتاوزمى .

ويستند التفـكير الـكنفوشى إلى التعليم ، وإلى الحـكومة الصالحة العادلة ، والعلاقة الاجتماعية المنظمة ، لترقية النفس البشرية ، وهو فى هـذا يجارى إلى

حد كبير التفكير الغربى الحديث . وليس فى الكتب الصينية شىء عن تقدير ضعف الإنسان الأدبى ، وما فيه من غريزة الخطأ ، أو الاعتراف بحقيقة الإرادة الشريرة ، مما تفرضه علينا فرضاً وجهة النظر العملية فى الحياة . لذلك خلت من فكرة إمكان استمداد المعونة من إله ، أو قوة للتجديد والإحياء من مصدر خارق للطبيعة .

على أنه يتضح لنا جلياً لدى إعمال الفكرة أن بقاء القيم السامية البشرية يفتقر دائماً إلى مرساة تثبت فى إلهما. أما وجهة النظر التى تذهب إلى أن الطبيعة البشرية صالحة بالضرورة وتستبعد الله كلية ، فهذه أعجز من أن ترفع الإنسان فوق المستوى الطبيعى .

الصين الحديثة

بعد ثورة سنة ١٩١١ عاشت الكنفوشية أزمات عنيفة ونكسات مريعة فى المحاولات التى بذلها الشعب لإدراك مصيره ومستقبله . وبعد أن أدمجت الجمهورية الحرية الدينية فى مواد دستورها ، فشل العلماء الذين كونوا أنفسهم فى « الجمعية الكنفوشية » فى حمل الحكومة على الاعتراف بالكنفوشية ديناً رسمياً . ومع أن « الكومنتاج » أى الحزب الوطنى لم يتقيد فى دعايته السياسية بأية معتقدات دينية ، إلا أنه اتخذ الفضائل الكنفوشية شعاراً له : وهى الولاء ، التقوى البنوية ، الإحسان ، الرحمة ، الأمانة والصدق ، العدل والإنصاف ، السلام . ولما أنشأ « شيانغ كاى شيك [1] » فى سنة ١٩٣٤ « حركة الحياة الجديدة » صبغها بلون كنفوشى (وحتى بعد أن اعتنق المسيحية ، كان ينظر إلى مشا كل الصين بعين كنفوشية) . وقد أعلن أن الحركة تسند أربعة مبادىء

(١) وهو الآن رئيس جمهورية الصين الوطنية فى فرموزا .

هامة : الأدب ، والاحتشام ، والأخلاق الكريمة . العدل والإنصاف ، والإستقامة . الأمانة والنزاهة . التواضع واحترام الذات .

على أنه يصح القول ان « حركة الحيـــــاة الجديدة » لم تقترن رسمياً بالكنفوشية ، بل قصد بها أن تكون مبدئياً حركة إحياء وتجديد أخلاقى ، ووجدت فى الآراء الأخلاقية التقليدية أفضل تعبير لها ، وأقوى دليل على الأهداف القومية التى سعت اليها هذه الحركة هو الهيكل الوطنى الرائع الذى شيدته الحكومة فى تانكنج . ففى أعلى مكان فيه وضعت لوحة كنفوشيوس ، وتحتها مباشرة تمثال نصفى من الرخام للدكتور «سان يات سن» ، أبى الصين الحديثة . وعلى الأعمدة المحيطة بالفناء رسمت صور بعض حكماء الغــرب وكبار رجالاتهم مثل : نيوتن . باستور . غليليو . جيمس وات . لورد كلفن . دالتون . بنيامين فرانكلن ! ! ومعنى هذا أن الصين فى المستقبل ستعمل على التآلف بين القديم والجديد ، والجمع بين فلسفتها وآدابها ، وبين علوم الغرب وثقافته .

أما الآن فقد عفا الزمن عن هذا كله ، بعد أن تغلغلت الشيوعية فى بلاد الصين . وتهدف الحكومة الحالية ، ليس إلى تغيير الأوضـاع الاجتماعية والاقتصادية فى الصين وحسب ، بل تغيير كل تفكيرها وتحويله إلى نظرة مادية محض . وهم الآن يعيدون من جديد كتابة تاريخ الفلسفة الصينية وأديانها . وقد صدر فى بكين فى سنة ١٩٥٩ بيان لتوزيعه فى المحافل الدولية عنوانه «تاريخ وجيز للفلسفة الصينية» ، يقول إن تطور الفكر الصينى هو فى الواقع ، « نزاع بين الثقافة الاقطاعية البرجوازية الرجعية ، وبين الثقافة الديمقراطيـة الاشتراكية الثورية » ، ومن الناحية الفكرية هو « نزاع بين النظرية المثالية العقلية ، وبين النظرية المادية المنطقية » .

وعلى هذا الأساس يكون كنفوشيوس وغيره من الحكماء والفلاسفة والمتصوفين — مثاليين سفسطائيين من أنصار الفلسفة العقلية ، الذين حاولوا الإبقاء على الامتيازات الاستقراطية . أما « ماوتى » (وهو الزعيم الحالى) فهو يمثل مصالح الأحرار والطبقات الناهضة . وفى هذا النزاع العنيف الذى يقترن أحياناً بالعنف وسفك الدماء ، تتحول الصين إلى المادية المتطرفة ، وإلى النظام الشيوعى الذى يحاول القضاء على الثقافات الدينية القديمة فى تلك البلاد .

وأما البوذية فينظر إليها النظام الجديد كأنها « دين غريب أجنبى »، يعتنق نظريات خاطئة عن تناسخ الأرواح ، ويولّد فى أذهان الناس خيالات مؤداها أنهم مستطيعون بجهودهم الخاصة أن يطلقوا أنفسهم من عالم الحقائق المادية إلى عالم روحى غامض محوط بالسجف والأسرار ، حيث ينعمون بالغبطة الخالدة . وقد « خنثّت » البوذية — هكذا يقولون — إرادة الشعب ، وسلبتها قوتها على التخلص من النظام الإقطاعى القائم .

على أن بيانات الحكومة الرسمية تقول ان بذور المادية والإلحاد كانت قد غرست فى تربة الصين فى القرن السادس عشر وما بعده ، وأخذت تباشير الاستنارة والتطور الفكرى تلوح فى الأفق منذ عهد بعيد ، وهى التى مهدت الطريق للحكمة التى تنادى بها الآن فى تعاليم « ماوتسى تنج» الزعيم الشيوعى.

بقى علينا كلمة أخيرة هل العنصر الكنفوشى فى الثقافة الصينية ، يملك من أسلحة الثورة والتأصل والعمق ما يعينه على التصدى للتيار الشيوعى والرغبة فى الانقلاب الشامل ، وخلق ثقافة صينية جديدة تأتلف مع ماضى تلك البلاد ، وتخلق حلاً وسطاً ، أم أن الشيوعية تكتسح أمامها كل التراث الثقافى والدينى .

هذا ما سيكشف عنه المستقبل .

نور معرفة الله

هل للمسيحية رسالة إلى شعب الصين الذى يتحسس طريقه الآن ؟ انها تقدم لذلك الشعب رسالة الله الواحد ، الآب ، المعلن فى يسوع المسيح . ثم هى تهيء له أيضاً مستوى أدبياً سامياً ، أرفع من مستوى كنفوشيوس ، وأرقى من مستوى بوذا ، وأكثر فى تأثيره العملى من الفيلسوف لاوتز - مستوى مشتقاً ، لا من فقه الحكماء والفلاسفة ، بل من صفات يسوع الذى تلاءمت أقواله مع حياته . وحين يفشل البشر أمام سمو هذا المطلب ، تجدى عليهم المسيحية خلاصاً لا نصحاً ، وقوة من الله تعين على الحياة الصالحة . ثم تضع المرأة فى مكانتها المكرمة اللائقة بها ، وتلقى نوراً على الحياة بعد الموت . ومن الأسف أن الصين لم تنعم قط برجاء حيّ فى الخلود ، فإن البوذية والتاوزمية لم تعطيا إلا فكرة غامضة مبهمة عن الحياة المستقبلة ، أما الكنفوشية فقد صمتت عندها ولم تنطق شيئاً . ولو أن عبادة الأسلاف تنطوى على شيء من المعنى فى هذه العقيدة ، إلاّ أن المسألة كلها مضطربة غامضة . والشيوعية التى تتحدى الآن كل هذه المبادى لا تؤمن بالخلود ، لأن أساسها متأصل فى هذه الحياة المادية الزائلة . أما الرجاء المسيحى فى الخلود فصاف رائق لا غموض ولا التواء فيه .

الشنتوية
والأديان الأخرى فى بلاد اليابان

الدين القومى فى اليابان ليس فى جوهره وأصله مجموعة من العقائد المنظمة ، إنمـا هو ولاء وإخلاص لطرق مألوفة فى الحيـاة ، وأماكن مألوفة فى البلاد . والدين فى نظر عامة الشعب ، إنما هو وطنية قبل كل شىء ، وطنية تذكيها محبة عميقة للوطن . وقد افترضوا فى غير تساؤل أن أفضل وسيلة للتعبير عن هـذه المحبة هى فعل ما يأمرهم به الأمبراطور . وقد كان هذا حافزاً قوياً فى الحياة . وحول الأمبراطور والوطن نسجوا خيوطاً قوية من الولاء العاطفى ، ولم يجدوا أية صعوبة فى تقديم الإخلاص كله لما كانوا يسمونه « النظام القومى » أو « التضامن الوطنى » .

أجل ، أحب اليابانيون بلادهم بكل ما فيها ، تلالها وبحيراتها ، جبالها وأنهارها ، بحيث شقّ عليهم دائماً أن يفترقوا عنهـا أو يهجروهـا ، وحسبوا معابدهم ومزاراتهم ومشاهدهم الطبيعية ضرورة لا غنى عنهـا للتمتع بالحياة الـكاملة . ففى وسط هذه المشاهد عاش آباؤهم وماتوا ، وفيها سكنت أسرهم تطلّ عليها أرواح الاسلاف من وراء حقب التاريخ . فضلاعن هذا كانت بلادهم ملـكا لهم عبر القرون ، فلم يقترب من شواطئهم قبل سـنة ١٩٤٥ أحد من الغزاة الغاصبين . ولم يخطر على بالهم أبداً أن أحداً غيرهم يطيب له المقام بين ظهرانيهم .

ولم يكن هذا كله عن عقيدة ، بل كان عن إحساس عاطفى امتزج بعظامهم ودمائهم ، حتى لقد حسبه بعض الباحثين غريزة من الغرائز الدفينة فى أعماق النفس ، الغريزة التى تعبرّ عن ذاتها فى الأساطير القديمة . وهكذا كان الحال

فى اليابان ، فقد بدت محبتهم للوطن بالاسطورة ، ثم تطورت فيما بعد إلى فكرة قومية واعية .

وإنه لشيّق حقاً أن نقف هنيهة لنرى كيف اعتقد اليابانيون منذ القديم أن بلادهم « إلهية » ، صنعتها الآلهة ، وأسبغت عليها فضلا لم تُنعم به على غيرها من بلاد العالم .

اسطورة شنتو :

لفظة «شنتو» تعنى «طريق الآلهة» ،وتعبّر عن دين اليابان فى القديم . وقد دوّن التاريخ اسطورة خيالية شيقة عن أصل اليابان وشعبها والأسرة المالكة فيها فى مؤلف يرجع تاريخه إلى القرن الثامن بعد الميلاد . تقول الاسطورة:

إن الجزر اليابانية من صنع الآلهة . فبعد الفوضى التى سادت الكون ، وفى سير الحوادث التى فصلت السماء عن الماء ، ظهرت عدة آلهة فى الضباب ثم اختفت ، حتى ظهر فى المشهد الكونى إلهان ـ ذكر وانثى ـ وهما اللذان خلقا الجزر اليابانية وسكانها . واسم الذكر (Izangi) واسم الأنثى (Izanami) . وقد تلقيا الأوامر من شركائهما فى السماء لصنع الجزر اليابانية . ثم هبطا من السماء فوق قوس قزح ، ولما بلغا المنطقة السفلى ، غرس الإله الذكر رمحه المرصع بالجواهر فى الحمأة المَالحِة ، وحركه حتى صارت لزجة ، ثم سحب الرمح بكمية من الطين فصنع منها إحدى الجزر اليابانية . ثم استقر الإله وزوجته على الجزيرة ، وولد من رَحمها الجزر الثمانى الأخرى التى تكوّن بلاد اليابان . وبعد ذلك ولد باكورة سكان هذه الجزر وهم خمسة وثلاثون إلها من الآلهة الصغار ، ولكن آخرهم أحرق أمه عند ولادته ، فاغتاظ Izangi الوالد ، وضربه بالسيف ضربات خلقت آلهة أخرى تطير فى الفضاء على حال من الفوضى .

والذى حدث بعد ذلك ـ فى ايجاز ـ أن هذا الإله خلق أعظم آلهة اليابان

وهو Amaterasu إلهة الشمس ، وكانت هذه أكرم المخلوقات جميعاً . ثم خلق بعد ذلك إلهة القمر من عينه ، وبعدها إله العاصفة من منخريه ....

وبعد مضيّ زمن أطلّت إلهة الشمس من السماء ، واضطربت للفوضى الضاربة أطنابها في البلاد ، وكان إله العاصفة هو الحاكم عليها ، فأقصته وأرسلت حفيدها ليحكم الجزر بالنيابة عنها ، ومن هذا الحفيد تسلسلت أمبراطرة اليابان . ولذلك سمّي الأمبراطور ، إلى ما قبل هزيمة اليابان ابن السماء ، الذى انحدر من إلهة الشمس،وهو يحكم شعباً من سلالة الآلهة أيضاً .

وقد حفلت اليابان قديماً بعدد هائل من الآلهة ، ذكوراً واناثاً ، وكان من عادة القوم أن يروا إلهاً في كل قوة ، وفي كل شيء مادى ، حتى سمّيت بلادهم «أرض الآلهة». وقد قدّر العارفون أن عدد آلهتهم بلغ ألوفاً وربوات ، على أن إلهة الشمس احتلّت مكانة الكرامة والصدارة في البانثيون ، وأقيمت تكريماً لها أروع المعابد والهيا كل .

اصل اليابان تاريخيا واجتماعيا :

واذ نترك الاساطير نرانا أمام علم سلالات الاجناس البشرية الذى يثبت أن اليابانيين شعب خليط ، بعضه كوريّ ، وبعضه منغوليّ ، وبعضه من جزر الملايو . وقد وفد الاسلاف من جزر الباسفيك الجنوبية ، وطردوا السكان الأصليين شمالا واستوطنوا البلاد . وكانوا يعيشون في قبائل متفرقة مستقلة بعضها عن بعض ، ولكل قبيلة تقاليدها وعباداتها شأن الجماعات البدائية الفطرية . فكان الثعلب مثلا يُعبد كرسول الآلهة في بعض القبائل ، وكان المحاربون وحملة السلاح أرقى الناس بينهم . على أنه حتى في هذه الحالة البدائية عشق اليابانيون النظافة في كل شيء ، التى بقيت حتى اليوم من ابرز مميزاتهم القومية ، وكانوا يعتقدون أن لمس الميت ينجس الأحياء — كما آمن اليهود في

العهد القديم . ولذلك كانوا يقيمون الجنائز تواً بعد الوفاة . وبعد انقضاء أيام الحداد العشرة ، كان أهل الميت يغتسلون للتطهير . وفي أحيان كثيرة كان الاحياء يهجرون الدار البدائية التي كان يسكنها المتوفى ويبنون غيرها . وقد خلقت تلك العادة مصاعب أمام الامبراطرة في العهود الأولى ، وذلك لأنه كان يتحتم على الامبراطور أن يترك العاصمة القديمة ، ويبنى غيرها في مكان آخر من البلاد . ومعنى هذا أن ترتبك الحكومة عند كل حفلة جلوس على العرش جديدة ، وتنتقل من مكانها ، ومعها المكاتب ، والموظفون ، وفريق كبير من أبناء الشعب . ولم يكن يسيراً أن يكيِّف القوم حياتهم في مقام جديد مرات متواليات كلما جلس امبراطور على العرش .

شعب اليابان :

اليابان من شعوب الأرض الفتية . فلا يبدأ تاريخها المعروف (ان غضضنا الطرف عن الأساطير) قبل القرن الخامس بعد المسيح . وأقدم الوثائق اليابانية التي يعتمد عليها المؤرخون لاتبعد الى أكثر من القرن الثامن كما أسلفنا . وحضارتها مشتقة في أصولها من حضارة الصين . وانه لمن غرائب التاريخ أن نرى اليابان ، وقد اقتبست حضارتها عن الصين ، سابقتها في هذا الميدان ، تخطو في السنوات المتأخرة خطى واسعة ، وتسبق جارتها في الرقي المادي ، وكانت قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية قوة عالمية يخشى بأسها كبريات الدول .

وحين نصف اليابان كأمة فتية ناهضة حتى بعد هزيمتها ، فالذي يدور في أخيلتنا ، ليس حداثة عهدها نسبياً في التاريخ ، انما هو تلك السرعة الفائقة التي ظفرت بها إلى مقام الزعامة في الشئون التجارية والحربية ، مما أعدَّها لأن تقف على قدم المساواة مع الدول الكبرى في معداتها العصرية الحديثة . ولقد نشأت اليابان الحديثة سنة ١٨٦٨ ومنذ ذلك التاريخ استطاعت أن تقلب نظم التعليم

فيها ، وتقيمها على أحدث الأسس ، ثم تزج بنفسها فى مضمار التجارة الغربية ، وتصبح احدى الأمم الصناعية الكبرى فى العالم ، وإن تكن لم تسلم من الأهوال التى تصحب النظم الصناعية عادة ، وخصوصاً فى شعب شرقى حيث تضعف شوكة الحدود الأدبية . وفى تاريخها الحديث أثارت حروباً ضد روسيا والصين كان فيها الفوز حليفها . ثم تضامّت إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الكبرى ، وأثارت حرباً أخرى ضد الصين . وفى الحرب العالمية الثانية هُزمت شرّ هزيمة سلبتها قوتها الحربية . على أنها قد تصبح فيما بعد عاملا كبيراً فى سياسة الشرق الأقصى .

اديان اليابان .

فى بلاد اليابان نجد مزيجاً غريباً من النظريات الدينية والأخلاقية . وقبل الحرب العالمية الثانية التى هزمت فيها اليابان ، لم تكن الأساطير الشنتوية التقليدية ذات معنى الاّ بقدر ما فيها من معانى الوطنية للتطرفة والولاء المطلق للامبراطورية . ولم تكن تعكس أى أثر على الحياة والسلوك . على ان اليابان قد أبدت قدرة عجيبة على تقبُّل الآراء والعقائد الأجنبية . ففى القرن السادس الميلادى دخلت بوذية غريبة عن تعاليم بوذا ، قادمة من كوريا ، وصارت تدريجاً الدين الرسمى. وبعدئذ صارت المسيحية منافساً خطراً للبوذية، ولكنها طوردت واستؤصلت تقريباً فى القرن السادس عشر .

ثم أعيدت الشنتوية ، على أنها لم تكن منافساً خطراً للبوذية ، انما كانت الكنفوشية هى ذلك المنافس الخطر ، وقد قدمت من الصين بعد تعديلها وتغيير مناهجها الصينية ، بحيث تخدم قضية الولاء للامبراطور بدون قيد ولا شرط . وقد ظلت مبادىء الهدوء والاستكانة البوذية ، ونزعة الآداب الكنفوشية ،

والمثُل المسيحية فى أوضاع غامضة ، تتنازع السيادة على العقلية اليابانية فترة طويلة من الزمن .

وفى اليابان ثلاثة أديان رئيسية — غير المسيحية — وواحد منها فقط أصيل فيها نشأ فى تربتها. ولقد كان للكنفوشية الصينية أثر كبير فى تكييف الأفكار اليابانية وآرائها الاخلاقية ، ولكن أثرها مقصور الآن على الطبقات المتعلمة . وليس لها اليوم كبير أثر فى بلاد اليابان . أما الدين الأصيل فى بلاد اليابان فهو الشنتوية Shintoism وهو نوع من الثقافة القديمة المشتقة من عصور الاساطير العريقة فى القدم ، وهى اليوم الأداة المختارة للتعبير عن الروح القومية الحيّة فى بلاد اليابان . وهناك أيضاً البوذية المأخوذة عن الهند ، وإن تكن قد اصطبغت بألوان ومميزات جعلتها بوذية يابانية، أو بوذية شرقية على حد قولهم .

الشـــنتوية

ولنبدأ أولا بالشنتوية . هذا الاسم هو نطق يابانى للكلمة الصينية التى معناها « طريق الآلهة » . وهى دين لا ينتسب إلى مؤسس معين خلافاً للبوذية والكنفوشية . ولعلّها كانت فى أدوارها الأولى ضرباً من ضروب عبادة الأرواح ، ثم اختفت مع تطور الدين تلك الخواص الفطرية التى ظهرت فى الأدوار الأولى ، وان يكن الكثير منها باقياً فى الشعور الدينى لرجل الكافة فى اليابان . وما التماويذ الخشبية أو الورقية التى تعلّق عادة فوق أبواب المنازل ، وقطع القماش التى ترفرف فوق الآبار أو الأشجار المقدسة ، وحبال القش التى تتدلى فوق أبواب الهيا كل — إلا آثار لعبادة الأرواح التى كان مفروضاً على الأهلين استرضاؤها ، والتى تلقتها اليابان الحديثة عن تاريخها القديم . وكذا نجد فى الشنتوية عبادة الطبيعة ، وخصوصاً قوى الطبيعة المنتجة، وهى من خصائص الأديان الفطرية الأولى . ففى اليابان توقير خاص للإلهة

الشمس أو كما يسمونها Amaterasu كما قلنا آنفا . ومن آلهتهم أيضاً Inari وهو إله الأرز الذى تكثر معابده فى الأقاليم التى تنبت الأرز بكثرة فى بلاد اليابان، ويطلقون لفظة Kami على كل إله أو شىء يسمو فوق الفرد ، كالسماء مثلاً أو سلطان الحكومة .

توقير القبيلة :

وفى عناصر تطورات الشنتوية الأولى نرى خير تعليل لقوة سلطانها فى هذا العصر . ومن بين تلك العناصر توقيرهم للسلف من القبائل أو زعماء الجماعات السالفة ، وقد كان هذا من المميزات البارزة فى الشنتوية فى عصورها الأولى ، وهناك فارق بين توقيرهم للسلف من القبائل ، وبين عبادة الأسلاف فى بلاد الصين . ففى الأخيرة تتجه الفكرة إلى الأكبار من شأن الأسرة أو الأب والأم والجدود ، وإحلالهم موضع التوقير والعبادة فى بلاد الصين . اما فى الشنتوية فالفكرة متجهة إلى الجماعة أو القبيلة . وعبادة الأسلاف الصينية ذائعة فى بلاد اليابان ، ولكنها كنفوشية فى أصولها ، ومكملة لتوقير اليابانى لقبيلته وأبطاله وأسلافه .

عبادة الميكادو :

وكان رجال قبيلة « يماتو » أشد الناس إحياء لتوقير السلف من القبائل ، وهم الذين صاروا سادة اليابان فيما بعد ، وهم بناة مجدها ورافعو لواء عظمتها فى تاريخها اللاحق . وكان زعيمهم ، المعروف بالميكادو ، مركز دينهم وعبادتهم . ثم زعموا أن الشمس — كما تقول الأساطير — تمتُّ إليهم بصلة القربى ، ومنها تحدر الميكادو ، فحسبوه ممثل الشمس وآلهة السماء على الأرض . وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة فى اليابان قبل إخضاع أسرة « يماتو » لها ، خير ممهد لهذه العقيدة الجديدة . وفعل رجال « يماتو » كثيراً فى تبسيطها وتقريبها إلى

أذهان العامة ، بأن أدخلوا عليها آلهة صغرى هم زعماء القبائل التى دانت بالطاعة والولاء لحكم الأسرة الفاتحة . وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسية والدينية أثره الكبير ، فانتج فى عصرنا هذا توقيراً يكاد يبلغ حد العبادة لشخص الامبراطور . على أنه بعد الحرب العالمية الثانية تنازل الميكادو عن ألوهيته ، وأمسى شخصاً عادياً .

وها هنا نرى المميزات الخاصة البارزة فى الدين اليابانى ، فالشنتوية ليست ديناً محكم الأوضاع ، ولا تُقاس بالهندوسية فى أسرارها ، ولا بالكنفوشية فى متانتها الأخلاقية ، ولكنها منطوية على طراز معين من الوطنية الدينية المتطرفة . فالامبراطور والدولة كانا فى نظر اليابانى قبل هزيمة اليابان ، هما كل شيء والفرد لاشيء . وكانوا يستسيغون تضحية الذات فى سبيل الامبراطور ، بل يرحبون بها كشرف عظيم . وقد كانت عبادة الامبراطور من العناصر البارزة فى دين اليابان ، ولذا كانت عقبة فى طريق انتشار المسيحية فى تلك البلاد ، لأن المسيحية تضع الله فوق الامبراطور .

الأخلاق الشنتوية :

أما من الوجهة الأخلاقية فالشنتوية ليست ديناً سامياً . فانها لاتعير اهتماماً كثيراً للأخلاق والآداب لأنها لاتقيم للفرد وزناً . نعم إن بها فكرة عن كرامة الفروسية (Bushido) ، ولكن اقتصارها على طبقة معينة يجعلها عديمة الجدوى كمبدأ أدبى أخلاقى لعامة الشعب . ولعلّ ذيوع الكنفوشية والبوذية فى اليابان ، قد حجب ما فى الشنتوية من قدر قليل فى الآداب والأخلاق ، على أننا نلحظ ناحية واحدة قد يكون فيها بعض الشيء من الصفة الأدبية ونعنى بها النظافة — « فان الدنس مصيبة ، والرجس خطية ، والطهارة الجسدية هى على الأقل قداسة . وكل شيء يدنس الجسد أو الثياب مستقبح ممجوج » .

قد لعبت النظافة الطقسية دوراً خطيراً فى الطقوس الشنتوية فجُبل الشعب اليابانى على عناية خاصة بالنظافة الشخصية حتى فى حياته البدائية الأولى ، مما نحسبه قوة أدبية إلى حدّ ما .

علاقة الشنتوية بالبوذية

قبل ألف سنة اندمجت الشنتوية فى البوذية ، فان كهنة البوذية قدموا إلى اليابان سنة ٥٥٢ ب . م . من كوريا وتبعهم آخرون من بلاد الصين . وكان لهؤلاء أثر عميق فى البلاط الملكى . ولكن ظلّ عامة الشعب قرنين ونصف على تشبثهم بالشنتوية القديمة ، إلى أن برز راهب بوذى فابتكر نظاماً ابتلعت فيه الشنتوية ، وفى هذا النظام أدمج كل آلهة الشنتوية حاسبا إياها مظاهر متجسدة لبوذا ، واشترط أن يكون هذا شأن الأباطرة (الميكادو) فى المستقبل أى أن يُدمجوا ضمن هذه الآلهة الصغرى . ولئن كان بقى لدى عامة الشعب شىء كثير من عبادة آلهة الطبيعة ، فان هذا النظام قضى أن تدمج الشنتوية فى البوذية .

وعقب هذا التبدل نهضة استيقظ فيها الشعور القومى وبلغ أوج قوته فى ثورة سنة ١٨٦٨ ، فأظهر الشعب صداً عن كل أجنبى غريب ، وزحزح البوذية الدخيلة عن منزلتها العليا ، التى تسنّمتها . فأزيلت التماثيل البوذية من الهياكل وأوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة وظائفهم ، وعادت الشنتوية ديناً قومياً فى المرتبة الاولى . وطبيعى أن يعقب هذا شىء من ردّ الفعل ، فرفعت البوذية رأسها ثانية ، وخفض جناح الشنتوية ، ولكن آثار تلك النهضة لم تضعف الشنتوية وبقيت عاملاً قوياً خطراً فى تكييف حياة الشعب .

وجهة النظر الرسمية للشنتوية

وتميل النزعة الحديثة فى دوائر اليابان الرسمية إلى اعتبار الشنتوية مجرد

نظام قومى تتجسم فيه المشاعر القومية ، لادينا بالمعنى الصحيح . وفى هذا يقول أحد نبلاء اليابان: «إن الشنتوية نظام محكم نرفع بموجبه قبعاتنا تكريماً لأسلافنا وأبطال وطننا » . وهذا هو الاتجاه الذى تسير نحوه الشنتوية . ومما هو جدير بالذكر أن كهنتها لا ينذرون العزوبة ، ويقومون علاوة على أعمالهم ومهنهم المادية بوظائفهم الكهنوتية ، وذلك لأن واجباتهم الدينية ضئيلة . ويعتقد كثيرون من اليابانيين أن ليس فى الشنتوية ماينافض المسيحية ، وما هى إلا نزعة قومية بحتة . ولكن قلّ بين مسيحيّ اليابان من يسلمّ بوجهة النظر هذه .

الشمنتوية الرسمية اليابانية

فى سنة ١٨٨٢ انقسمت كل المؤسسات الشنتوية بحكم القانون إلى قسمين كبيرين : هما « الشنتوية الطائفية ، والشنتوية الرسمية » . وحسبت الحكومة الطائفة الأولى «الدين الحق» ، أما الطائفة الثانية فخرجت من نطاق هذا التقسيم. ولقد قال أحد الثقات اليابانيين :ـ

« أما الشنتوية الرسمية فيمكن أن تؤخذ كمظهر من المظاهر القومية وتعاليم الأخلاق والآداب اليابانية . والى هذا الحدّ يصح اعتبارها غير دينية .ولكن إذا تعمقنا فى البحث ، لانلبث أن نجد أن الشنتوية الرسمية ليست إلا ديناً نُسج نسجاً فى نظم اليابان القومية » .

وتتولّى الحكومة الانفاق على الهياكل الرسمية التى تقام فيها حفلات الشنتوية الرسمية . ولايجوز للشنتوية الطائفية أن تستعمل هذه الهياكل للعبادة فيها . وفى أعياد ومواسم هذه الهياكل الرسمية ، يتحتّم على كل معلمى المدارس المحلية أخذ الطلبة إلى تلك الهياكل لمشاهدة الإحتفال .

ولباب هذه الشنتوية الرسمية هو عبادة الأسلاف . وكان غرض الحكومة

فى تعضيد الشنتوية الرسمية ورعايتها انما هو الإحتفاظ بعبادة الإمبراطور وخلود مركزه وعصمته وتساميه فوق الجميع . وتقول إحدى النشرات التى صدرت عن وزارة للمعارف فى مارس سنة ١٩٣٧ : « إن أرضنا بلد إلهية ، يحكمها الامبراطور وهو إله » . ولكن هذا كله قد تبدّل الآن ، وأخذت تغمر اليابان نزعة ديمقراطية غربية ، وأشرأبت أعناق الشعب إلى المسيحية .

البوذية اليابانية :

قلنا عن البوذية الشىء الكثير عند الإفاضة فى أديان الهند والصين ، وهى ناشطة فى بلاد اليابان تتمثل فى طوائف وشيع كثيرة ، بعضها يمتاز بالتسامح ، وبعضها يتصف بالتعصب ، وبعضها يميل إلى الزهد والتصوف . وقد تطورت إحدى تلك الطوائف تطوراً يغاير البوذية الشمالية ، وهى طائفة «الشنّية» التى تُعد أكبر وأنشط الطوائف البوذية اليابانية . ويشاطر أتباعها البوذيين الشماليين وجهة نظرهم من حيث اعتبارهم بوذا جوهراً إلهياً حالا فى الكون ومتمثلا فى أوضاع مجسمة شتى . وثقافتهم مأخوذة عن « أميدا بوذا » . وهم يزعمون أن « أميدا » هذا ظهر على الأرض فى العصور الخوالى فى شكل راهب ، وأخضع نفسه لضروب من الإذلال والقهر حتى استطاع أخيراً أن يرقى إلى الحالة المجيدة التى نزل منها . وقبل عودته أثبت نذرا قال فيه انه لو قدّر له أن يبلغ درجة الكمال فى البوذية ، فانه لا يرضى خلاصاً قبل أن يتهيأ هذا الخلاص للجنس البشرى المتألم . وتنفيذا لهذا النذر عانى كثيراً من الآلام والأوجاع ولكنه غلب فى النهاية . وكانت ثمار جهوده افتتاح فردوس فى الأرض الطاهرة يجوز اليه كل من يدعون باسمه (١) .

وكان مبدع هذا التعليم راهباً اسمه « شنران » نقل أغلب أحكامه وأوضاعه

---

(١) عن A. Lloyd "The Creed of Half Japan"

عن طائفة Jodo Sect وأضاف اليها عناصر أشبه بتلك التي أدخلها « لوثر » فى عصر الإصلاح المسيحى . فقال ذلك الراهب : إن « الأعمال » أى التقشف والصوم والطقوس وما شاكلها ، ليست بذى قيمة فى الخلاص الذى يقوم فى أصوله على الإيمان فى نذر « أميدا » . ولكى يدفع عنه تهمة القول إن تعليمه يبعث على الخطية ، أبدى أن الإمتنان المتغلغل فى نفس الإنسان الذى يشعر بخلاصه يسوقه الى الإكثار من « الأعمال » أى أعمال الصلاح ، مدفوعاً إلى ذلك بروح الشكر أكثر منه بالرغبة فى كسب الخلاص .

وليس « اميدا بوذا » لليابان فقط . فهو مظهر بارز فى قوانين ومناسك البوذية الشمالية ، بل يقول البوذيون اليابانيون إن « غوتاما بوذا » أشار فى أواخر حياته إلى « أميدا » هذا . وهى قصة لا ترتكن إلى سند ، بدليل الفارق العظيم بين تعاليم هذا وذاك . وتعاليم « اميدا » مقصورة على الطائفتين اليابانيتين ، وخاصة الطائفة الشنية التى لا تقدم أية عبادة إلى « غوتاما بوذا » وتخالف البوذية العادية فى أن كهنتها لا ينذرون العزوبة ، وفى عدم مراعاتها شىء من قواعد التقشف والزهد فى البوذية العادية .

بوذية اميدا والمسيحية .

يبدو لكل مطلع شىء من التشابه بين تعاليم « اميدا » ، وبين بعض التعاليم المسيحية ، وخصوصاً تعاليم الرسول بولس عن التبرير بالإيمان . والدليل متوافر على أن الراهب « شنران » عرف شيئاً عن المسيحية ، وكذلك عرف أسلافه من زعماء البوذية شيئاً عنها من جراء اختلاطهم بالمرسلين النسطوريين . على ن هذا لا يحملنا على الإقلال من شأن تعاليم كهذه تزدهر فى قلب البوذية ويعتنقها البوذيون فى حماس شديد . وقد قلنا ان الطائفة الشنية أنشط وأكبر الطوائف الدينية البوذية فى اليابان . ولعلَّ فى هذا دليلا على أن الطبيعة البشرية تستأثرها فكرة الخلاص التى لا تقوم فقط على الاستحقاق «والأعمال»

ومن يدرى ربما تستيقظ اليابان وتقبل مغتبطة قصـــة الخلاص ، لا بوساطة كائن غامض تشير اليه الأساطير ، بل بوساطة مخلّص حقيقى أيد مجيئه التاريخ .

ورغم التشابه بين بوذية أميدا وبين المسيحية ، فانا لا نتعامى عن الفوارق العظيمة بينهما . فالخلاص فى نظر البوذى ليس خلاصاً من الخطيـــة ، بل من قيود الرغبات ، ومن الآلام ، ومن الآثار التى تترتب على تناسخ الأرواح وانتقال الروح من وجود إلى آخر . وفكرة عن الخلاص كهذه ناقصة من الناحية الأدبية . ثم أن عقيدة البوذى فى الحياة المستقبلة يحوطها الشـــك والارتياب ، فالفردوس عنده مجرد رجاء . وهو مكان تتوقف فيها النفس ردحاً من الزمن فى طريقها إلى الطور الأخير الذى يصعب التّميز بينـــه وبين الفناء .

الحالة الدينية العامة فى اليابان :

وفيما عدا تينك الطائفتين — Jodo and Shin — اللتين تدينان بهذه التعاليم فى أوضاع مختلفة ، فإن البوذية ليست ناشطة فى اليابان .

أما طوائف اميدا فناشطة جداً . وقد اقتبست إلى حدّ ما الأساليب المسيحية كإنشاء جمعية الشبان البوذية وغيرها من المؤسسات ، وتقوم الهيا كل بجهود وخدمات على نمط الخـــدمات التى تجريها الكنائس . وتغمر الطائفة الشنية نهضة تتبع أساليب النهضات الغربية . بل ان لها مرسلين فى كوريا ومنشوريا ، ويتحدثون عن إيفاد بعثة دينية إلى أمريكا . ومن هذا يتبين أن حياة البوذية اليابانية قائمة على ثقافة اميدا ، وحيث تختفى تلك الثقافة تبدو البوذية هيكلا عاطلا عن الحياة .

ويجمل بنا أن نذكرهنا أن البوذية والشنتوية يتبادلان التسامح الكريم ، فينتقل الناس من هيكل بوذى إلى معبد شنتوى فى غير حرج . ولا بأس فى

الحفلات القومية أن تجرى طقوس شنتوية ، أو أن يُراعى فى الجنائز الرسوم البوذية . وأما العقائد الأدبية التى يعتنقها الفرد العادى المحترم فهى مزيج من « نظافة » الشنتوية ، والأخلاق الكنفوشية البوذية ، وربما بعض التعاليم المسيحية . وهذا التسامح هو فى الحقيقة ظاهرة من ظواهر اللاأدرية وعدم الاكتراث بالدين ، وهى ظاهرة يراها الأجانب والوطنيون أنفسهم تتفشى بسرعة فى اليابان . ولقد انتج تدفق الثقافة الحديثة مزيجاً مضطرباً من الآراء فى عقول الناس وخصوصاً الناشئين ، يصحبه الشىء الكثير من التشكك وانحلال المبادىء الأدبية . والظاهر تماماً أن الشنتوية والبوذية لا تسدّان حاجات البلاد الأدبية . ولقد بلغ الخوف بحكام اليابان وقادة الرأى فيها مبلغاً حملهم على عقد مؤتمر للاديان الثلاثة الرسمية — المسيحية والبوذية والشنتوية — منذ سنوات ، وكان الغرض منه النظر فى ترقية الأحوال الاجتماعية والأدبية فى بلاد اليابان . وقد كان هذا المؤتمر — بغض النظر عما آل إليه أمره — اعترافاً بعجز البلاد على مجابهة مشاكلها الأدبية ، ودليلا على المكانة التى بلغتها المسيحية .

التمسك بالله

هل للمسيحية رسالة إلى تلك البلاد ؟ من الناحية الأدبية تمسُّ المسيحية بلاد اليابان فى حالتى ضعفها وقوتها . فالصدق والطهارة الجنسية من المميزات البارزة فى الحياة المسيحية . ويلجأ كثيرون من غير المسيحيين إلى الاستعانة بالمبادىء المسيحية من هذه الناحية . ثم ان الفكرة اليابانية عن التضحية وانكار الذات تتعمق وتزداد خصوبة فى الصليب . وهناك دلائل تشهد لقوة الصليب فى العقل اليابانى ، إذ يُنظر إليه كنموذج من فعال البطولة وإنكار الذات . أما الميول السلبية فى البوذية — أى التقشف واذلال النفس وقمع الجسد — فهذه غريبة عن المزاج اليابانى . وليس من شك فى ان إهداء

المبادىء المسيحية الأدبية فى أكمل أوضاعها سيكون له أبلغ النتائج فى تلك البلاد .

ولدى المسيحية كل شىء تفتقر إليه اليابان من الوجهة الدينية ، لأن الأديان اليابانية قد فشلت فى إعلان الله للشعب اليابانى . فالشنتوية وما تتضمنه من عبادة الطبيعة والوطنية الدينية ، لم تفعل شيئاً فى الكشف عن الله الحقيقى ، ويعرف البوذى العادى من الخرافات والفردوس المادى أكثر مما يعرف عن الله . وفى اليابان مثل سائر يقول « بوصة واحـــــدة فقط وإذا بنا فى ظلمة حالكة » ، إشارة الى ظلام الفسق الذى يتحرك فى نطاقه الدين اليابانى . ولم يختبر اليابانى قط تلك الطمأنينة الواثقة بالله التى تمكن الإنسان من السير فى مخاطر الحياة غير هياب ولا وجل ، ولم تعرف قط ذلك اليقين الهادىء المكين فى محبة أب غير منظور وقوته .

قلنا إن الصليب يبدو للعقل اليابانى كنموذج سام لتضحية الذات نيابة عن الغير . ولكن «الكفارة» و «الفداء» وحتى « الخطية » — مصطلحات غريبة عن الفكر اليابانى . والصلب كديئونة على الخطية ، ورسالة للغفران ، لا يثير فى العقل اليابانى إلا قليلا من اليقظة والاستعداد لتلبية ندائه . ولكن فى هـذا عينه الهبة الكبرى لليابانى فى نهاية الأمر . فحتى إذا افترضنا ان ثقافة « اميدا » تهىء للناس خلاصاً من الخطية ، لا من الآلام ، فإنها تبقى جد مفتقرة إلى القوة لبثّ الشعور الحقيقى بالمسئولية الأدبية . ذلك لأن ليس لديها شىء يتسق مع الصليب أو يماثله . فهى تعلن مغفرة لا تكلف إلا قليلا ، وتميل نوعاً ما إلى محبة الله ، ولكنها تفشل فى اظهار قداسته . وحاجة اليابان الأدبية كما يعترف بها ساستها لا تُسدّ الاّ بإنجيل الغفران الذى يفتح عيون النفس لتدرك شناعة الخطية ومحبة الله الغافرة .

النزاع بين الدين والوطنية

وقبل هزيمة اليابان فى الحرب الأخيرة كانت أعظم عقبة فى سبيل انتشار الروح الدينية الحقة هى روح القومية الشديدة والوطنية المضطرمة التى تملك على الشعب كل عواطفه . فالتوقير الدينى للميكادو كان عنصراً فعالا ، بل كان أفعل العناصر وأقواها فى الحياة اليابانية . وكانوا يقيمون ضد المسيحية تهمة صارخة بأن مطالب المسيح تتعارض مع مطالب الميكادو . وقد تبدّل هــذا كله بعد ان صار الميكادو انساناً عادياً . وحقاً إنه لمن أخطر الأمور على الأمـــة أن تخلع على نفسها ومصيرها القومى فى شخص حاكمها ، ذلك التوقير الذى لا يليق إلا بالله دون سواه . واليوم تقدم المسيحية لليابان إقالة من عثارها . فالمسيحية لا تنطوى على خيانة أو ولاء بارد للوطن كما كان يزعم اليابانى ، ولـكنها توسع نطاق الوطنية . والمسيحى ينظر إلى مصير أمته وأمجادها كأنها مجتمعة ومتضمنة فى فـكرة أوسع هى ملـكوت الله على الأرض ، ذلك الملـكوت الذى تفرغ فيه كل الشعوب مجدها وكرامتها . ههنا ، وههنا فقط ، الحق الذى يوسع آفاق الوطنية العمياء الضيقة . والمهمة الملقاة على عاتق المسيحيين الوطنيين فى اليابان ، أن يظهروا للملأ ان الوطنية لا تضيق بهذه الفـكرة الواسعة ، بل بالأولى تزداد نبلا وكرامة ومجـداً ، وان الإنسان يحب بلاده أصدق حب ، ويخدمها أجل خدمة ، متى طلب أولا ملـكوت الله .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، بعد أن تخلّصت الحـكومة من كل علاقة بالدين ، زاد عدد الطوائف الدينية فى بلاد اليابان حتى لقد بلغت ٨٠٠ طائفة مسجلة لدى الحـكومة ، وتعتنق هذه الطوائف فـكراً وعقائد دينية مختلفة متباينة ، يبعد بعضها كثيراً عن الشنتوية . وأكثر الطوائف المستحدثة تضيف إلى عقائدها كثيراً من الأديان الأجنبية ، ونظريات مستمدة من علم النفس والعلوم الأخرى ، فى بلوغ الحق النهائى ، وتحقيق الهناءة الروحية الشخصية .

أديان الشرق الأوسط

تمهيـــد

الآن سننتقل من الأديان البدائية ، والأديان القومية ، وأديان الهند ، وأديان الشرق الأقصى ، بما فيهـا من أساطير وعقائد لا يستسيغها ، وقد لايفهمها ، مواطن الشرق الأدنى ....

إلى الشرق الأدنى ، منزل الوحى ، ومهبط الأديان التوحيدية ، وموقد الشرارة التى انطلق منها نور معرفة الله الواحد .

وسيجد القارىء نفسه فى البحوث التالية فى موطنه ، وفى جوّ يألفه ، وتفكير يوائم مزاجه ، مهما اختلفت العقائد ، وتباينت متجهات الفكر .

هنا ينأى القارىء عن عقائد تعدد الآلهة ، وتجسدات الآلهة ، والإيمان بقوى الطبيعة ، وألوهية السماء والشمس والقمر ، والبحر والجو ، والتصوف الذى ينكر كرامة الجسد ، والغموض والإبهام فى النظم الأخلاقية .... وينتقل إلى الإيمان بإله واحد ، خالق السموات والأرض ، الذى تتوثق بينه وبين خلائقه صلات روحية . وهو ينظر إلى الدين كطريق للتسلط على الحياة

والعالم والطبيعة . أما الزهد والتصوف وإذلال النفس ، فلا تستهدف فى أديان الشرق الأدنى إفناء الذات واحتقار الجسد ، بل ترويض النفس وتهذيبها ، للتربى من خالقها . أما الطبيعة فى نظره فهى شىء مخلوق خاضع لمدبر حكيم وصانع ماهر ، وان هى إلا مسرح تتمثل عليه دراما العلاقات التى تربط الإنسان بربه .

وأديان الشرق الأدنى ـ إذا استثنينا بعض الأوضاع المتفرقة هنا وهناك ـ ترفع من قدر الإنسان كفرد ، وتفكر فى العلاقات بين الإنسان وربه كأنها مواجهة بين خالق ومخلوق ، تسودها العناصر الأدبية الأخلاقية .

وسنبدأ رحلتنا بدين زرادشت ، دين بلاد فارس ، وهو من أولى الفِكَر التى تمخض بها العقل الإنسانى عن وجود الإله الواحد ـ ثم اليهودية ، والإسلام والمسيحية .

ديانة الفرس

زرادشت

عاش زرادشت (Zoroasier) فى الجزء الغربى من الهضبة الكبرى الممتدة من نهر الأندوس فى بلاد الهند، إلى وادى دجلة فيما بين النهرين (العراق الآن) ـ وهذا هو الإقليم الذى كان مهد الحضارة الايرانية منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد . على أن الآريين لم يزحفوا مهاجرين إلى هذه البقاع إلا فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد، وقد وفدوا من الشمال زاحفين فى طريقين ،أحدهما إلى شمال غرب الهند ، والثانى إلى غرب آسيا ، على أن فريقاً ثالثاً من أولئك الآريين استوطن بعد ذلك فى إيران ـ وهو الاسم المشتق منهم، والذى تُعرف به هذه البلاد اليوم .

من هذا الفريق الثالث نبتت الحركة الدينية الإصلاحية التى تعرف باسم « دين زرادشت » ربما حوالى سنة ٦٥٠ ـ ٦٠٠ ق ٠ م . ويقول بعض المؤرخين إنهـــا نبتت فى تاريخ مبـكر فى القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد .

وفى تلك البلاد التى زحف إليها فريق من أولئك الآريين ، اتخذت تلك الشعوب عبادة تعدد الآلهة من الطبيعة ، وأطلقوا على الآلهة الخـيِّرة لفظة « النجوم اللامعة Deves »،وعلى الشياطين لفظة« سادة Aswras ». ولما ظهر زرادشت أراد إدخال الإصلاح على هذه العبادة التى اعتصم بها بنو جنسه فى الشرق ، فاقتنع أنه رسول« أهورا مازدا Ahura Mazda » ، الإله الواحد الحـكيم ،ونبذ كل الآلهة التى آمن بها الآريون ، وأبطل أساطيرهم وتقدماتهم، وأخضعها كلها للاله الواحد فى صراع بين الخير والشر .

وقد لخّص المؤرخون فيما بعد تاريخ هـذا الرسول وتعاليمه وحياته وأعماله من مجموعة الأناشيد الموزونة التي يسمونها Gathas ، وهي الأسفار المقدسة التي جمعها هو في حياته ، أو جمعها المعاصرون من أتباعه ومريديه . وفي هذه الأناشيد يدعو الرائي الجنسَ البشرى إلى كفاح مرير لمقاومة قوى الشر ، وهجر العبادات القديمة التي تدين بالتعدد ، والاقتصار على عبادة الإله الواحد الحكيم المتعالى « أهورا مازدا » الذى عُرف فيما بعد باسم « اورموزد Ormuzd » .

وقد أعلن زرادشت أن هذا الإله هو خالق الكون ، وسند الخير والصواب . وقد صنع تحت إمرته خلائق إلهية ، أو صفات مجسمة له ، أسماها « الفكر الخيِّر » و « البر » و « الفلاح » و « التفكير الصائب المشفق » و « الخلود » . وهناك أيضاً روح الخير ، وهو في صراع مستمر مع روح الكذب والشر . وهذان التوأمان روح الخير وروح الشر ، لم يخلقهما « اهورا مزدا » وإن كانا يلتقيان فيه . وقد خُلقا قبل انشاء العالم ، ولكنهما لم يمارسا وظيفتيهما ، أحدهما ضد الآخر ، الا بعد أن صارت الأرض مسرحاً لهاتين القوتين المتصارعتين . وفي بدء الحياة أعلن روح الخير سياسته بقوله : « لن يكون تناسق بين فكرينا ولن يكون انسجام بين عقيدتينا . آمالنا وأمانينا ، وأقوالنا وأفعالنا ، وقلوبنا ونفوسنا ، لن يكون بينها تفاهم ولا التئام » .

الخير والشر :

وهذ التعليل للصراع المحتدم مدى الأجيال بين الخير والشر ، يمثل في الواقع أول محاولة في تاريخ الدين لحل هذه المشكلة على أساس الوحدانية الأخلاقية . ولئن يكن هذا الحل الذى قدَّمه زرادشت تطور سريعاً إلى الاعتقاد بالثنائية في الالوهية ، فان « اهورا مازدا » يبقى وحده الخالق الحكيم ، مصدر الخير والصلاح ، وملك البر . وليس في هذا النظام الديني ما يشرح لنا كيف بدأت قوات الخير والشر في وجودها ، على أنه من المسلَّم به أن الكون هو خليقة الإله

الواحد ، الحكيم الصالح ،ومن إرادته الخيِّرة الصالحة تستمدُّ كل النظم الطبيعية والأخلاقية وجودها ومقوماتها . ومن المسلّم به أيضاً أن الروحين التوأمين ـ روح الخير وروح الشر، ليس لهما كيان مستقل عن« أهورا» . وفى النهاية لابد ينتصر الخير على الشر . ولما كانت الأرواح الشريرة هى ذرية « روح الكذب والشر » ، فهى تجهد فى غير وناء لتضليل الإنسان ، بالفكر الردىء ، والقول الردىء ، والعمل الردىء . من ثمَّ يتعين على الإنسان أن يقاوم هذه المغريات ، ويبدد قوات الشر عن طريق فعل الخير ، وذلك لأن الإنسان — كما خلقه « اهورا مازدا » — يتمتع بحرية الإرادة كمخلوق حرّ التصرف أدبياً . نعم ، المفروض أن روح الخير هو الذى يقدّم المعونة الإلهية ، ولكن كل فرد مسئول فى نهاية الأمر عن تقرير مصيره . ولقد لخَّصت أسفارهم المقدسة هذا الموقف بقولها :

« هذان الروحان اللذان أعلنا ذاتيهما كتوأمين ، هما الخير والشر ، فى الفكر والقول والعمل ، والعاقل الحكيم مَن يختار الخير ، والغبى الأبله هو الذى يختار الشر » .

والذين يطيعون الشرائع التى وضعها « أهورا » بمحض اختيـــارهم ، يساهمون فى نصرة روح الخير على روح الشر والأكاذيب . وأولئك مفروض عليهم أن يتكلموا بالصدق، ويهجروا الحياة البدوية، ويفلحوا الأرض ، وينبتوا الزرع والفاكهة ، ويترفقوا بالحيوانات الأليفة ، ويرووا الأرض الجـــرداء ، وذلك «لأن الذى لايغرس يُحرم من الرسالة الخيِّرة» ، كما جاء فى سفرهم المقدس .

أما اقتران الزراعة بالحياة الطيبة، فرده الى أن عباد «أهورا مازدا» كانوا من الزرّاع القرويين الذين استقروا فى مواطنهم ، يحرسون أراضيهم ضد البدو الغزاة فى الشمال ـــ التوارنيين ـــ الذين حُسبوا من أتباع الروح الشرير ،

وكان دأبهم خطف المواشى لتقديم ذبائح لذلك الروح الشرير . ويقال ان زرادشت اشترك فى تلك الحروب المقدسة . وكان من آثار انتصاره على الغزاة أن توطدت أركان الدين الجديد الذى نادى به . ويقال أيضاً إن زرادشت قضى نحبه فى معركة لاحقة مع أولئك الغزاة ، يوم اقتحموا عليه أحد الهياكل ، وهو يقدم محرقة على مذبح النار . وسواء أكان موته فى تلك الحرب المقدسة أم غير ذلك ، فان الثابت تاريخياً أن الحركة الدينية التى وضع أساسها بقيت بعد موته، على أنها سرعان ما فقدت فكرة الوحدانية الجوهرية ، وصفاتها الأخلاقية الأصيلة .

نظرية زرادشت فى الاخرويات

أيد زرادشت تأييداً تاماً فكرة انتصار الخير فى نهاية الصراع ، ودمار الشر واندحاره . من ثم نراه يضع عقيدة عن « الاخرويات » (فلسفة الحشر والنشر)، وهى باكورة العقائد التى عرفها الإنسان فى عالم الدين ، والتى قدّر لها فيما بعد أن تعكس آثارها على مطارحات ورؤى المستقبل فى اليهودية والمسيحية والاسلام. ومن تعاليمه أنه فى نهاية العالم ستكون قيامة عامة . ثم تكابد قوى الخير والشر تجربة نارية محرقة فى معدن مذاب . وفى هذه التجربة سيُدمَّر روح الشر وأذنابه، ويُستعلن بعد ذلك عصر ذهبى عقب الدينونة وتأسيس «ملكوت أهورا مازدا » . وفى هذا العالم الجديد ، إما على الأرض أو فى نظام روحى، سوف لا يكون مكان إلا للصالحين الذين سيتقرر مصيرهم النهائى وفق أعمالهم التى أتوها فى هذه الحياة .

وعلاوة على هذه « النهاية العظمى » ، التى تنتهى بها الدورة الحالية للعالم ، وتبزغ دورة جديدة طليقة حرة من الشر ، تبدأ على التو دينونة الأفراد بعد الموت . وهنا يطلب إلى كل إنسان أن يقدم حساباً عما فعلت يداه وهو فى الجسد ، وفى ضوء هذا الإقرار يتقرر مصيره النهائى . وإن كان قد حفظ

وصايا زرادشت قولا وفكراً وعملا ، فإن هذه الأقوال والأفكار والأعمال تحسب له من الحسنات التى تضاف إلى حسابه السماوى ، وتجعله قادراً على الوفاء فى يوم الدين . وإن هو استطاع أن يبدى رصيداً من الحسنات يُذهبن السيئات ، ويكفرن عن فعاله الشريرة ، فإنه فى اليوم الرابع بعد موته يجوز آمناً فوق معبر دقيق أحدّ من السيف ، وهو الذى يفصل هذا العالم عن الحياة الأخرى ، وتحته بحيرة متقدة بالنار يهوى فيها الذين زادت فى ثقل الميزان سيئاتهم عن حسناتهم . اما أنفس الابرار الذين حرصوا على أحكام النبى ووصاياه ، فإنهم يجوزون سالمين إلى السماء . أما الذين تتعادل حسناتهم مع سيئاتهم ، فإنهم يجوزون إلى حالة متوسطة، تقع بين الأرض والكواكب إلى يوم الدينونة الأخير.

وتقوم هذه العقيدة الخاصة بالأخرويات على مبدأ ثابت ، هو أن الإنسان يتمم خلاصه بيده ، فالذى يزرعه فى هذه الحياة اياه « يحصد » ، الشر بالشر ، والخير بالخير . ضنك للاشرار ، وغبطة للابرار . ويل للطالحين ، وخلاص للصالحين — هذا مايقوله كتابهم القدس . ولا نفع فى هذا المجال لأى شفيع أو وسيط ، كما أن الصلوات والذبائح لاتجدى فتيلا ، ولا أثر لها فى تغيير هذه العدالة الصارمة . ان مصير كل الخلائق البشرية تقرره أعمالهم مرة واحدة لارجعة فيها فى يوم دينونة «اهوراً مازدا» فى تجربة من نار محرقة، وعبور فوق معبر أحدّ من السيف يسمونه «الفاصل»، لأنه يفصل بين الذين مصيرهم «بيت الشرّ والاكاذيب » ، وبين الداخلين إلى الفردوس « بيت الاناشيد » ، الذى هو خير أوضاع الوجود .

وفى عصر متأخر تطورت نظرية مؤسس هذا الدين عن الأخرويات ، تبعاً للتطور الذى طرأ على العقيدة ذاتها . وذلك لأن الروحين التوأمين روح الخير،

وروح الشر ، حُسبا إلهين ، يناوىء أحدهما الآخر . وقد خَلق «اهورا مازدا» (وسمّى الآن أرموزد) الخير — كما خلق روح الشر (وسمّى الآن اهريمان) كلَّ ماهو شر فى العالم . وهما يعاندان أحدهما الآخر فى وضع ثنائى . وعلى خلاف الفكرة التقليدية المعروفة فى اليهودية والمسيحية والإسلام عن الشيطان، آمن القوم أن « روح الشر » (أى الشيطان) هو الخالق الفعلى لكل الشياطين والأرواح الشريرة وغيرها من الخلائق المؤذية والثعابين والحيّات ، والذئاب ، والنمل ، والجراد ، والناس ذوى الصفات الشيطانية ، والسحرة ، والأمراض . وهذه الفكرة عن خلق ثنائى يتسلط عليه إلهان ، يستقلُّ كل منهما عن الآخر ، بأجناده المتعاركة ، ومخلوقاته العليا ، ومؤهلاته المختلفة — نقول ان هذه الفكرة جعلت أهريمان إله الشر ، معادلا للاله « اهورامازدا » متعايشاً معه ، وخالداً مثله . وفى احد الأسفار المقدسة المتأخرة نشهد موقفاً يبثُّ فيه « أهورا » شكواه أمام زرادشت من أن أهريمان يقلب رأساً على عقب كل مشروعاته وتدابيره لجعل بلاد فارس فردوساً أرضياً ، وذلك بإدخاله الصقيع القارس فى الشتاء ، والحر اللافح فى الصيف ، وكافة الأمراض والادواء التى يعانيها الايرانيون والتى بلغ عددها ٩٩٩ر٩٩ داء ويضاف اليها الموت ! ! وقد حاول عبثاً بعض كهنة الديانيين — وهم المجوس — التخفيف من وطأة هذه الثنائية الالهية بمزج الإلهين فى نظام واحد ، ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل ، وحُسبت هرطقة دينية . ومهما يكن من أمر فإنهم اعتقدوا أن النصر مكفول فى النهاية لإله الخير ، وأن إله الشر مصيره البوار والفناء .

تقسيم الزمن

وفى أحد كتبهم المقدسة المتأخرة وعنوانه « الخليقة الأصلية » ، الذى يرجع تاريخه ربما إلى القرن التاسع بعد الميلاد ، برزت نظرية مؤداها تقسيم

العالم إلى عصور ، وهى مستقاة من نظرية أقدم منها يرجع تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميلاد . . . . قالوا ان الزمن — وامتداده أثنا عشر ألفاً من الاعوام — ينقسم إلى فترات أربع ، مدة كل منها ثلاثة آلاف سنة : فى الفترة الأولى كانت أرواح الاسلاف هى الجنِّيات الحارسة على الناس والأرواح. وفى الفترة التالية ظهر إنسان بدائى وثور بدائى ، وقيل انه فى هذا العصر صاغ رؤساء الملائكة جسد زرادشت ، على أنه لم يظهر كشخصية تاريخية إلا فى الفترة أو العصر الأخير . وفى الفترة الثالثة ، تسلَّطت قوى الشر وخلقت جدود الإنسان وأسلافه الذين تحدر منهم مؤسسو الأسرة الايرانية . أما الفترة الرابعة والأخيرة فهى التى استهلت بإنشاء دين زرادشت ، وهى لم تبلغ بعد ذروتها النهائية .

ثم ان زرادشت يأتى بعده ثلاثة من « المخلِّصين » ، يظهر كل منهم فى فترة مداها ألف سنة ، وآخر الثلاثة هو « المسِّيا » يولد بطريقة معجزية من عذراء طاهرة ، من بذرة زرادشت المحفوظة لهذا الغرض فى بحيرة ، وظهوره إيذان بنظام عالى جديد ومجيد . وعند ذلك يقوم الموتى من قبورهم . وفى يوم الدينونة الأخير يُفرز الابرار عن الاشرار تمهيداً لسكب معدن مذاب بالنار على الأرض وفى جهنم . اما للابرار فسيكون هذا المعدن المذاب بَرداً وسلاماً « حليباً دافئاً » ، اما للاشرار فسيكون عذاباً اليماً يحرق كل الشرور التى ارتكبوها . اما « اهريمان » إله الشر وزبانيته وأبالسته ، فسيلقون فى اللهب لإفنائهم ، أو يطرحون فى الظلمة الخارجية لاخفائهم عن الأنظار أو تدميرهم فى الختام . وبعد ذلك تخلق أرض جديدة ، وسماء جديدة ، يسود فيهما إلى الأبد البر والفرح والسلام ، ويصير « اهورا مازدا » الكل فى الكل .

البارسيون

تلك كانت نظرة عجلى ألقيناها على دين زرادشت الذى أينع فى بلاد فارس

(ايران) أجيالا طويلة . ومع أنه كان لهذا الدين آثاره التى انعكست على اليهودية والإسلام ، وعلى المسيحية بطريقة غير مباشرة ، فإنه لم يبق من هذه الحركة الكبرى التى بدأها زرادشت الا أعداد تحصى بالألوف . وذلك لأنه بعد الفتح الإسلامى فى القرن السابع بعد الميلاد ، حُسب اتباع دين زرادشت كفاراً ، واعتنق الإسلام غالبية سكان البلاد ، ولم يبق من أتباع زرادشت اليوم غير عشرة آلاف شخص فى ايران . ولكن على الرغم من قلة عددهم ظلوا يمارسون فى عناد وصلابة عبادتهم الدينية فى هياكل النار ، بعد أن خلصت هذه العبادة من فكرة ثنائية الإله والإضافات السحرية .

أما الباقون من اتباع زرادشت فقد هاجروا إلى بلاد الهند فى القرنين السابع والثامن واستوطنوا هناك ـ وخاصة فى مدينة بومباى ـ فى ظروف أقل عناء ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « Parsis » أى البارسيين أو الفرس القدماء. وسرعان ما أصبحوا جماعة ثرية ناجحة ، ويُحصى عددهم اليوم بحوالى خمسين ألفاً فى بومباى وحدها ، ومثل هذا العدد موزع فى مدن بلاد الهند الأخرى . كذلك توجد منهم جماعات منعزلة فى لندن وغيرها من المراكز التجارية فى العالم ، لأن أولئك البارسيين أكثرهم من التجار ورجال الاعمال والصناعة .

وعُرف عنهم حيثما حلُّوا ، كرم الأخلاق ، والكفاية فى العمل ، والكرم فى المعاملة ، وهم دائماً موضع تقدير مواطنيهم وإحترامهم . وقصارى القول قد احتلوا فى المجتمع مكانة أشبه بمكانة جماعة الاصدقاء فى الغرب المسيحى ، وذلك لأنهم اعتصموا بالكرامة والتحفظ والعزلة والقناعة ، وممارسة شعائر دينهم على طريقتهم فى هدوء وفى غير جلبة أو تعنت .

ويتعين على أطفالهم ، متى بلغوا السابعة من العمر أو بعدها ، ان يقلدوهم حبلا مبصاً إشارة إلى أنهم قد أصبحوا أعضاء فى الجماعة ، و «من عباد الله على دين

زرادشت » . وبهـــذا الانضمام يتعهد بممارسة الأفكار الصالحة ، والأقوال الصالحة، والاعمال الصالحة ، والتمسك بدين زرادشت، وهو الدين المقدس، أفضل الاديان وأرقاها وأسماها ، وهو الدين الذى أعلنه الله لزرادشت ــ وهذا الاعتراف يردده البارسى كل يوم . ولا تمام خلاصهم يتعيَّن عليهم الاَّ يفكروا الا فى الحق ، ولا يعملوا إلا الخير ، ولا ينطقوا إلا بالصدق ، وأن يمارسوا طقوس النار فى هيا كلهم، التى بها يقتربون بطريقة سحرية إلى حضرة الإله « اهورا مازدا» .

ويتحتم على الـكهنة ــ الذين يُرسمون عادة للخدمة الدينية فى حفلة مزدوجة لتـكريسهم ــ أن يشعلوا ، ويطهروا ، ويراقبوا النار المقدسة ، ويغذوها بخشب الصندل ، وهم يتلون الصلوات والأدعية المقررة ، وأفواهم مغطاة — مثل الأطباء والممرضين فى غرف العمليات ــ خشية ان تنجس أنفاسهم النار المقدسة . وفى عيد رأس السنة، وهو أهم أعيادهم، يستحمون ويلبسون الثياب الجديدة، ويرممون هيكل النار ، ويوزعون الصدقات على الفقراء ، ويتبادلون التحيات والتهانئ . وتعقب هذه الأعياد عيد آخر أعمق خشوعاً ورهبة ، هو العيد الذى يقيمونه لإحياء ذكرى أمواتهم وتـكريماً لكائن إلهى يسمونه (Farvardin) وهو الذى يحرس أرواح الأسلاف . ويعتقدون أن فى هـذا العيد يزور الأسلاف ذراريهم وأنسالهم ، ولذلك يقيمون له حفـــلات ترحيب فوق التلال أمام « أبراج الصمت » ، وهى التى يودعون فيها — داخل بناء مكشوف مستدير من الطوب أو الحجر — جثث موتاهم لـكى تلتهمها الطيور الجارحة .

ابراج الصمت

وقد اختار القوم هذه الطريقة الـكئيبه للتخلص من أجساد الموتى ، وذلك لـكى لا تتنجس الأرض أو الماء بأجساد الموتى ، لأن الطيور الجارحة تلتهم الجثث فى ساعة من الزمن بعد وضعها على أرض البناء المـكشوف ، ولا يبقى منها إلا الهيكل العظمى . وكانوا يأخذون الثياب التى كانت تغطى الجثة

ويلقونها فى حفرة خارج البرج قبل تعريض الجثة للعراء . وفى مدينة بومباى الهندية يحرقونها بحامض الكبريت . ثم يتلو النائحون الأدعية والصلوات قبل أن يعود الموكب من حيث أتى . وبعد أن تجفّ العظام بفعل حرارة الشمس تلقى فى بئر هناك لتتحلل إلى رماد . وفى الأبراج الكبرى خارج مدينة بومباى، توقد نار مقدسة تشتعل دائماً . وفى العيد السنوى الذى يستمر عشرة أيام ، تتكرر الحفلات الجنائزية ،ولكن تتجه فى هذه الفترة ، كما قلنا ، إلى أرواح الموتى .

وفى الجماعات البارسية الصغيرة المنعزلة ، حيث لا توجد طيور جارحة ، ولا يمكن إقامة أبراج الصمت ، يتم الدفن فى توابيت من الصلب ، أو غرف من الحجر ، يسبقه طقوس الموت المألوفة ، التى تشمل صلاة التوبة والاستغفار، ثم الاعتراف بالإيمان على لسان الميت ، وغسل الجثة بعد الموت ، ورسم أخدود فى الأرض حولها لابعاد الأرواح الشريرة عنها ، وتعريضها لكلب يكون واقفاً على مقربة ، ثم إشعال النار ، وطقوس اخرى، يجريها الكهنة وهم يضعون كامات من القطن فوق أفواههم اجتناباً للتدنيس ، وذلك قبل وصول حملة الجثة الذين يرتدون ثياباً بيضاء لحملها إلى مكان الإيداع . وبينما تجرى هذه المراسم الخاشعة بالنيابة عن النائحين على الأرض ، تنتظر النفس – حسب اعتقادهم – العبور المحفوف بالمخاطر فوق المعبر الدقيق فى اليوم الرابع ، حيث مصيرها النهائى .

وعلاوة على النار ، يُحسب الماء أولى العناصر بالتوقير والتقديس. ولا يجوز تدنيسه أبداً . ووراء هذا التوقير فكرة عبادة الطبيعة التى اتخذها أسلاف زرادشت ديناً لهم قبل أن يجىء زرادشت وأتباعه الذين ألبسوها رداء الوحدانية، وجعلوها أداة مقدسة للتقرب إلى الإله أهورا مازدا . ولذلك يجتمع البارسيون فى مدينة بومباى على شاطىء البحر عند غروب الشمس ، ليغمسوا أصابعهم فى

ماء المحيط ، ويمسحوا بها عيونهم وجباهم ، ويرفعوا أيديهم بالدعاء لاهورا مازدا فى حضرة الشمس الغاربة ، كرمز « لروح المياه النقية المتلمعة الطاهرة » .

وفى البارسية الحديثة متجهات أخلاقية أدبية تقترن بمجموعة من الطقوس الرسمية . ومع أن هذه المتجهات مستمدة أصلاً من عبادة زرادشت ، فانها قد صارت فى الواقع ثيوصوفية، تصوفية، ولا أدرية، فى نظرتها وتفكيرها ، وحادت عن الوحدانية الأولى .

وكان هذا الدين قد ورث تفاليد نبوية متأصلة فى وحدانية أخلاقية ، ولكن أضيف اليها فيما بعد مجموعات من الرسوم والطقوس والتقاليد التى تشبث بها القوم ، وصارت من مظاهر حياتهم المميزة وخاصة بعد النكبات التى حاقت بهم عقب فتح الاسكندر الأكبر لبلاد فارس سنة ٣٣١ ق . م .

دين زرادشت واليهودية

وحين نذكر أنه بعد أن غزا داريوس العظيم بابل فى سنة ٥٣٨ ق . م . أذن للمسبيين اليهود أن يعودوا إلى أورشليم لبناء هيكلهم ، أقول حين نذكر ذلك ، لايدهشنا أن نرى اليهودية بعد السبى تتأثر بدين زرادشت . وقد بقى المسبيون الذين عادوا فترة من زمن تحت الحكم الفارسى ، شأنهم شأن أكثرية اليهود الذين بقوا فيما بين النهرين. وحوالى هذا الزمن بدأ دين زرادشت يطبع أثره العميق فى الامبراطورية الايرانية ، ولو أن آثار هذا الدين لم تبدُ ظاهرة فى اليهودية إلا بعد قرنين من الزمن ، يوم فتح الاسكندر الأكبر بلاد فارس سنة ٣٣١ ق . م ، وبسط سلطانه على فلسطين ، وصارت سورية جزءاً من المنطقة الغربية للامبراطورية المكدونية يحكمها بطليموس الذى كان أحد قواد الاسكندر .

وفى هذه الفترة من التاريخ ظهرت كتابات الرؤى فى الأدب العبرى تحمل بين طياتها آثاراً واضحة ، لاخفاء فيها ، من عقائد زرادشت عن السماء وجهنم ،

وعن الدينونة بعد الموت وعن نهاية العالم، كما ظهرت عقيدة الكهنوت الملائكى، وثنائية الخير والشر تحت سلطان قوتين متضاربتين، لكل منهما زعيمها وقائدها، رئيس الملائكة ميخائيل للخير وابليس للشر . يضاف إلى هذه العقائد ، فكرة ملكوت المسيًا الذى سيسوده البرّ يوما ما .

صحيح أن الاسكندر الأكبر لم يُقم وزناً لهذه العقائد التى تنتمى لأسرة هزمها بجحافله وفرض عليها سلطانه ، إلا أن هذه العقائد عن الأخرويات قد تسربت إلى الرأى العام فى الأمبراطورية كلها التى كانت اليهودية جزءاً منها . وما حلّ القرن الثانى قبل الميلاد حتى تكاثرت الكتابات اليهودية عن رؤى المستقبل مثل سفر دانيال فى أسفار الكتاب المقدس القانونية ، وأسفار الابوكريفا غير القانونية ، وسفر الآباء الاثنى عشر .

اليهـــودية

العبرانيون

تألفت الأمة التي سمِّيت فيما بعد « إسرائيل » من خليط من البشر ، وقد نشأت أصولها ، أول ما نشأت ، في الألف الثانية قبل الميلاد في شمال مابين النهرين (العراق الآن) من أجناس مختلطة أحدها من غير الساميِّين ، وهم الحورنيون الذين جاء ذكرهم في الكتاب المقدس (نحميا ٢ : ١٩) ، وكان موطنهم الأصلي جبال الكرد في الشمال ، ويضاف إلى هؤلاء خليط آخر يسمى « عايبرو » . (ولعلَّ اسم العبرانيين كان اشتقاقاً من هذه اللفظة) .

وهؤلاء جميعاً هاجروا إلى الغرب ، وجالوا في فلسطين ، وامتزجوا بالسكان الوطنيين ، وهم الكنعانيون الساميُّون — كما يتبين هـذا كله في روايات الأسفار المقدسة عن الآباء إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، في سفر التكوين .

وروايات الأسفار المقدسة تقدم لنا صورة للأحداث التي كانت جارية في منطقة الشرق الأوسط خلال الألف الثانية قبل الميـــلاد ، يوم كان أسلاف

العبرانيين يتنقلون بقطعانهم ومواشيهم بين شمال ما بين النهرين وسورية ، وكان خليط من البدو الرحل عُرفوا «بالهكسوس»، قد غزوا سورية وفلسطين فى الشمال ، واستولوا على مصر حتى طُردوا منها سنة ١٥٧٠ ق . م . من ثم نرى قصة إبراهيم فى الكتاب المقدس تروى لنا فى سطور تاريخاً قبلياً عن فريق من « العابيرو (Habiru) » . وقد كُتب أن إسحق استورد زوجته من حاران فى شمال ما بين النهرين (تكوين ص ٢٤) ، وأن بعض ذلك الخليط الذى عُرف بالعبرانيين نزحوا إلى مصر فى أعقاب الهكسوس ، وهم الملوك الرعاة (تكوين ١٢ : ١٠ و ٢٦ : ١) .وقيل انهم استوطنوا أرض جاسان ، وقد تكون هذه وادى طوميلات فى شرق الدلتا .

وهناك من الأدلة التاريخية ما يثبت أن العبرانيين كانوا على وفاق وتفاهم مع الهكسوس غزاة مصر ، وأن بعضهم على الأقل قد تسللوا إلى مصر مع أفواج المهاجرين الذين دخلوا البلاد فى تلك الفترة . على أنه من العسير تاريخياً أن نحدد بالضبط تاريخ دخول العبرانيين إلى وادى النيل وخروجهم منه . ولكن يمكن القول ان دخولهم حدث خلال احتلال الهكسوس لمصر ، وذلك لأن فى مثل هذا الاضطراب التاريخى فقط ،كان يتسنى لهم أن يلقوا ترحاباً وهم الغرباء النازحون .

ويبدو أن حظوظ العبرانيين قد تبدّلت يوم جلس على العرش فرعون « لم يكن يعرف يوسف »، كما جاء فى الاصحاح الأول من سفر الخروج . وكان هذا يوم رحل الهكسوس عن مصر سنة ١٥٧٠ ق . م . على أن ذكر مدينتى المخازن فيثوم ورعمسيس اللتين سخّر العبرانيون فى بنائهما (خروج ١ : ١١) قد حمل بعض العلماء على الظن بأن رعمسيس الثانى (١٣٠٠ — ١٢٢٤ ق .م.)

هو الذى سخَّر العبرانيين وأذلّهم ، وليس أحمس الأول الذى طرد الهكسوس من مصر . لذلك قيل ان الخروج قد تمَّ بعد أن جلس خليفة رعمسيس على العرش وهو « منفتاح » (١٢٢٣ — ١٢١٥ ق. م.) ، وهو الذى أخمد ثورات فى فلسطين ، كما اتضح من لوحة اكتشفت فى طيبة سنة ١٨٩٦ . وقد أثبتت الحفريات التى جرت فى أريحا بعد الحرب العالمية الكبرى الأولى أن تلك المدينة قد دمِّرت فى النصف الثانى من العصر البرونزى المتأخر أى حوالى سنة ١٤٠٠ ق . م . وهذا يؤيد التسلسل التاريخى فى الكتاب المقدس الذى ورد فى سفر الملوك الأول (ص ٦ : ٤) ، والذى يثبت أن خروج بنى إسرائيل من مصر قد تمَّ قبل بناء هيكل سليمان بأربع مائة وثمانين سنة . ولذلك يمكن القول أن تحوتمس الثالث (١٥٠١ — ١٤٤٧ ق . م .) هو الذى سخر العبرانيين ، وأنه بعد موته قام أولئك بمحاولة ناجحة لخلع نير السخرة والاسترقاق الذى ثقل على أعناقهم .

والحق أننا هنا أمام مشكلة تاريخية تناقضت فيها ألوان الحدس والتخمين ، وقد حاولت كلها التغلب على صعاب ليس من الهين تذليلها للتوفيق بين روايات الكتاب المقدس ، ونتائج الحفريات وعلوم الآثار .

إله العبرانيين

عرف العبرانيون الله الذى عبدوه بإسم « يهوه » . على أنه لا يمكن الفصل بقول جازم حاسم عن التاريخ الذى بدأت فيه عبادة الله بهذا الإسم . ففى اقدم الوثائق التاريخية التى كتبت فى اليهودية فى القرن الثامن قبل الميلاد — والتى عرفت بالحرف J — دُعى الله بهذا الإسم — يهوه — منذ بدء الجنس البشرى فى جنة عدن . أما فى وثيقة أخرى أُطلق عليها الحرف E وذاعت فى شمال فلسطين ، فان اسم الله « يهوه » قد أُوحى إلى موسى فى العليقة المشتعلة

بالنار فى مديان، يوم أمر أن ينطلق إلى مواطنيه الاسارى فى مصر حاملا رسالة العتق والخلاص من إله آبائهم ابرهيم واسحق ويعقوب ، واسمه يهوه . (خروج ص ٣). وهذا الرأى تؤيده الوثيقة الكهنوتية التى أطلق عليها الحرف (P) والتى جمعت بعد عودة اليهود من السبى فى بابل فى القرن السادس .

ولئن يكن أصل اللفظة التى أطلقت على الإله الذى صار فيما بعد الإله القومى لإسرائيل واليهودية ، والذى صار مرادفاً للإله العظيم كما نفهمه اليوم ــ يحوطه شيء من الغموض، فان أغلب الظن أن الأسرى العبرانيين فى مصر ما كانوا يعيرون آذاناً صاغية لموسى ، لو أنه فاجأهم باسم إله لم يسمعوا عنه شيئاً من قبل . وبما أن أسماء الآلهة مثل يا ــ يامى ــ يا هو ــ قد وردت فى بعض النقوش والآيات والوثائق المعاصرة لزمن موسى، فقد يكون من المحتمل أن «يهوه» كان لقبا معروفاً لإله سامىّ فى ذلك العصر ، خاصة بين قبائل المديانيين الذين عاشوا فى جيرة حوريب ، حيث كان الجبل المقدس الذى قيل عنه تجاوزاً جبل سيناء . ومع تلك الأقوام عاش موسى بضع سنوات يوم هرب من مصر قبل عودته لتولِّى الزعامة والقيادة لمواطنيه المأسورين عبر الصحراء (خروج ٢ : ١٥) وهناك فى مديان كان يرعى قطعان حميه « يثرون » الذى يُظن أنه كان كاهن يهوه (خروج ٣ : ١ ، ١٨ : ١١) .

من ثمَّ نظن أن « يثرون » كان أول من أطلع موسى على عبادة يهوه . على أن بعض العلماء يظنون أن « يهوه » كان من أصل عربى ، وأن « يثرون» قد أعتنق عبادته مسوقاً بأدلة قوته التى رآها فى عجائبه مع العبرانيين .

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه « الله » إن إسم « يهوه » لا يُعرف اشتقاقه على التحقيق ، فيصحّ أنه من مادة الحياة،ويصح أنه نداء لضمير الغائب أى « ياهو » ،لأن موسى علَّم بنى إسرائيل أن يتقوا ذكره توقيراً له ، وأن يكتفوا بالإشارة اليه .

ويقول عالم آخر إن الـكلمة العبرانية المماثلة لـكلمة "Lord" هى يَهْوَا وكانت اللغة العبرية تـكتب بدون حروف علة حتى سنـة ٥٠٠ م ثم دخلت هذه الحروف فاصبحت كلمة يهوا : ياهوفا (Jehovah)، ولذلك فكلمة (يهوا) أو (ياهوفا) معناها سيد وإله .

ومهما يكن من أمر ، ومهما تـكن الفـكرة التى نقبلها ، فان (يهوه) لم يـكن إلها عبرانياً وطنيا ، وان قبائل اسرائيل التى خرجت من مصر ، واتخذته معبوداً لها ، إنما فعلت ذلك تحت تأثير موسى. وقد صار هذا الإله على مرِّ الزمن الإله الواحد الذى عبده الشعب فى تاريخه اللاحق .

اله اسرائيل فى الأسفار المقدسة

وعلى مسار التاريخ فى الأسفار المقدسة ، اختار « يهوه » اسرائيل شعباً له. فهو الذى أخرجهم من عبودية مصر ، والذى أعلن ذاته لموسى فوق الجبـل المقدس، حوريب (سيناء)، وقطع معهم عهداً على يد زعيمهم أثناء تجوالهم فى البرية. وقد كان موسى هو المسئول الأول عن ادخال عبادة يهوه ، الإله الذى أجرى معهم العجائب المذهلة . وفى مملـكة يهوذا الجنوبية ، ساد الاعتقاد أن يهوه قد عبد منذ بدء الخليقة ، أما التقاليد فى المملـكة الشمالية فيؤخذ منها أن عبادة يهوه أستعلنت ، أول ما استعلنت ، على يد موسى. ولعلَّ السبب فى هذا راجع إلى أن (يهوه) كان معروفاً لدى القبائل الجنوبية قبل أن يظهر موسى على مسرح التاريخ إما كإله مديانى قديم، أو إله عربى قبَـلِى ، بينما لم تعرفه القبائل الأخرى إلا فى تاريخ متأخر إعلاناً من موسى . على أنه بعد زمن موسى، أحسَّت الأمة أنها ارتبطت بعهد مع يهوه بعد استجابتهم لندائه .

الشعب المختار

وهنا لا بدَّ لنا من وقفة عن العهد والشعب المختار .صحيح أن الله قطع عهداً مع ابراهيم واسحق ويعقوب ، انبياء الله الصالحـين ، كما ورد فى الـكتاب

المقدس والقرآن . وقد أراد الله أن تحمل ذرية هؤلاء الأنبياء رسالة إلى العالم تمهيداً لمجيء مخلص للعالم هو المسيح، وتأهباً لملكوت جديد ، هو ملكوت البر والحق والخير .

على أن ذرية هؤلاء الأنبياء الصالحين ، قد تنكررت لهذا الواحد على مسار التاريخ ، وحادت عن عبادة الله الواحد فى فترات من حياتها، وعبدت الأصنام. وفى أحسن الأوضاع حسبته إلها قومياً قَبليا يقف إلى جانبها فى حروبها وعدوانها على الشعـــوب الأخرى ، وحفلت سيرتهم بالشرور وطفحت بالآثام.

ويوم جاء المسيح ، كما تنبأت به كتب أنبيائهم ، ودعاهم إلى الخير والحق ونبذ العنصرية العنيفة والقومية الضيقة ، حسبوه أفاكا مجدفاً ، وقتلوه شرّ قتلة ، فزالت عنهم العهود والمواثيق القديمة ، وغدت ارثاً للذين آمنوا بالمسيح وقبلوا رسالته . وإنك لواجد اليوم شقة واسعة بين كلمة (اسرائيل) الواردة فى كتب الله ، وبين إسرائيل كما نعرفها اليوم . وقديماً تفاخر اليهود أمام المسيح بنسبتهم إلى أبيهم إبراهيم واعتصامهم بالعهد . فقال لهم المسيح : أيها المراءون .... يا أولاد الأفاعى ... إن الله قادران يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبرهيم ..

ولذلك حين يذكر المسيحيون اليوم كلمة (إسرائيل) فى كتبهم وأدعيتهم وقراءات كتابهم المقدس ، لا يفكرون فى إسرائيل الحالية ، بل فى إسرائيل الحقيق — وهو الكنيسة المسيحية اليوم — التى ورثت عهود الله ومواثيقه فى مجيء المسيح ، وذلك لأن مجيء المسيح قد قطع الصلة الأبوية بين الله وبين إسرائيل القديم، وباتت فكرة « الشعب المختار» أسطورة قديمة عفا عليها الزمن ، وأبطلهـــا التاريخ ، وهدمتها المسيحية .

كلمة حق

ويبقى علينا بعد هذا كلمة حق ، فنحن العرب من مسلمين ونصارى ، لا نعادى اليهودية كدين ، لأننا نؤمن أنها من الأديان التوحيدية التى بزغت فى الشرق ، والتى أخذت عنها المسيحية والإسلام، ولا نعادى اليهود بسبب دينهم، فنحن وإياهم من أصل سامىٍّ أصيل فى التاريخ، ولكننا نقف فى وجه المصابات الصهيونية التى تريد أن توطد ملكا فى أرضنا، حكمت عليه الأحداث والنبوات بالزوال والفناء . ألم يبكِ المسيح على أورشليم لعنادها وجهلها وتعصبها وقال بلسان النبوة : «... ستأتى أيام يحيط بك أعداؤك بمترسة ، ويحدقون بك ، ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك وبنيك فيك ، ولا يتركون فيك حجراً على حجر ، لأنك لم تعرفى زمان افتقادك » (لوقا ١٩ : ١٣ ر ٢٤) . وقد تمَّ هذا فعلا بعد أربعين عاما من ذلك التاريخ (سنة ٧٠ ب . م) ، يوم دمر تيطس الرومانى مدينة أورشليم تدميراً شاملا وأحرق الهيكل ، وشرَّد اليهود فى كل أنحاء الأرض ، وصاروا يعرفون فيما بعد « يهود الشتات » .

العهد والملكية

والآن لنعد إلى حديثنا : تأصلت عقيدة العهد فى قلب الأمة فى تاريخها اللاحق فى عمق وجدِّية . واختفت آلهة العبرانيين القديمة ، وتركزت العبادة فى وحدانية يهوه الذى غدا معبود الشعب ، وصاحب السلطان على مصائره . وبعد الاستقرار فى أرض كنعان صارت ليهوه السيادة المطلقة على كل الآلهة الأخرى ، وإن تكن صفاتُ آلهة القبائل الفلسطينية وطبيعتها قد انتقلت إلى ذات يهوه فى أول الأمر ، وكذلك مراسم العبادة فى المقادس التى ألفها الكنعانيون الأسبقون فى عبادتهم . والواقع أن الصراع بين العبادتين والدينين ظل قائما إلى أن طُرد اليهود من أرض كنعان (فلسطين) ، وحُمل الشعب أسيراً إلى بابل (ما بين النهرين) فى القرن السادس قبل الميلاد . وقد

أبرز أنبياء ، العبرانيين هذه الحقائق فى أسفارهم قبل نكبة السبى بقرنين من الزمن ، وهم الذين فضحوا المفاسد والآثام التى اقترفها الشعب ، وأعلنوا النتائج الحتمية المترتبة على هذا الزيغ والفساد . وعلى الرغم من كل هذه فإن فلسطين كانت بصفة رسمية « أرض يهوه » الإله الواحد ، الذى كان مركز حكومة ثيوقراطية ، توحدت دينياً وسياسياً فى عبادته وتحت سلطانه.

وقد قامت العلاقة بين الأمة وإلهها على التمسك بالعهد، والاعتصام بأحكامه ومراسيمه ، وأولها الولاء المطلق ليهوه، له دون سواه ، وطاعة وصاياه وأوامره، على أن الشعب كثيراً ما حنث باحكام هذا العهد فى عهد الملكية ، وزاغ وعبد آلهة أخرى ، إلى جانب هذا الإله الواحد ، ولذلك قيل عن الله فى العهد القديم انه «إله غيور »، لأنه أصرّ على عبادته وحده دون سواه، ولكن الشعب استورد آلهة غريبة باغراء الملكات والأميرات الأجنبيات (أنظر ١ملوك ١١ : ٣ و ١٨ : ١٩) حتى لقد قيل ان الملكية كانت تحدياً ليهوه (١ صموئيل ٨ : ٤ وهوشع ١٠ : ٩ و ١٣ : ١٠) واعتداءً صارخاً على العهد . وقد نظر أنبياء العهد القديم فى القرن الثامن إلى الملكية نظرة ملؤها الريبة والشبهات ، وذلك لأن الملكيات فى البلدان المجاورة كانت تجنح دائماً إلى آلهة كثيرة لتثبيت دعائم عروشها ، ورأى الأنبياء فى هذا النظام الملكى تحدياً واعتداءً على العلاقة القائمة بين يهوه والشعب ، وهو العهد الذى قطعه الله معهم مع ابراهيم أولا ثم مع موسى . وكانت تلك العلاقة الثيوقراطية مع إله تبنىّ الشعب ، وليس مع ملك مقدس ، وهوما كانت تهدف إليه الملكية، كما كان الحال مع فراعنة مصر ، وملوك ما بين النهرين ، ومعبودات الكنعانيين.

وقد ألح القوم على الملكية للوقوف فى وجه هجمات الفلسطينيين والعمونيين. وفى خلال حكم شاول وداود كملكين « ممسوحين » من الله يمارسان تقديم

الذبائح مثل الملوك الآلهة فى البلدان المتجاورة فى الهلال الخصيب ، لم يحسبُوا أبداً أنهما تجسيد للإله يهوه ، بل كان الله دائماً فوق العالم وفوق مجريات الطبيعة كلها . لذلك نرى الأسم الشخصى « يهوه » الذى أطلقه موسى على الإله الذى دُعى لعبادته وخدمته ، يحمل بين ثناياه فكرة التنزيه الإلهى . وعبادة « أهية الذى أهيه » (خروج ٣ : ١٤) — « أنا الذى هو أنا » تحمل أيضاً فكرة الوجود الذاتى — هو الخالق الحالُّ فى كل مكان المسند كل الأشياء ، الفائق الوصف الذى لا ينطق به ، الذى لا تدركه الأفهام ولا تحتويه العقول ، هو علّة كل الوجود .

وقد لا تكون هذه الصفات كلها فى أذهان العبرانيين يوم سمعوا لأول مرة هذا الأسم على لسان زعيمهم ، ولكنهم على الأقل تلقوا عنه فكرة لا تختلف كثيراً عن الفكرة التى عرفها المصريون عن الإله « بتاح » فى الفكر المصرى القديم .

على أنه مما لا شك فيه أن الوحدانية العبرانية كما أعلنها أنبياؤهم قامت على الاقتناع بإن الله الذى أعلن ذاته لأسلاف الأمة إبان المحنة ، والذى أخرجهم من عبودية مصر ، ومن تيه البرية ، هو المتسلط على كل الأشياء ، وفق مشيئته ومقاصده . وقد تمّت كل هذه الأمور قبل عهد الملكية ، لذلك قد لا نحسب الملوك العبرانيين وسطاء بين الأمة وآلهتها ، كما نرى فى الحضارات الأخرى فى الشرق الأوسط قديماً .

وبعد أن أُبرم العهد بين يهوه وبيت داود ، لم تتورع المملكة الشمالية عن التنكر لميراثها فى أبن يسى يوم أبى حفيده يربعام أن ينصت إلى شكاوى الشعب (١ ملوك ١٢ : ٢٢ و ١٦) . وقد كان ذلك وزراً كبيراً من جانب يربعام الأول ، ومع ذلك بقيت عبادة يهوه فى الشمال والجنوب معاً ، الدين

الرسمى، لأن العهد لم يكن مرتبطاً بأسرة أرضية . وكان من آثار هذه الأوزار جميعها أن سقطت الملكية — أولاً مملكة إسرائيل باستيلاء الأشوريين على السامرة سنة ٧٢١ ق . م . والقضاء على مملكة يهوذا سنة ٥٨٧ ق . م . بايدى الكلدانيين. على أن هذا الانهيار القومى للأمة جمعاء ، لم يكن له إلا أثر ضئيل فى الحياة الدينية، وذلك لأن الملوك حكموا بمقتضى أوامر صادرة من يهوه وبارادة الشعب ، وقد بقى العرش قائماً ما بقى الجالس عليه أميناً فى أداء واجباته . وإلى حدّ ما لم يكن الملك يُسأل عن الخطأ كما كان الحال فى الملكيات القديمة (أنظر ١ صموئيل ٨ : ١١ و ١ ملوك ص ٢١). ولكن سلطانه المطلق كان محدوداً ومقيداً بارادة يهوه وسلطانه . وإنا لنرى الأنبياء ينتهرون الملوك المتربعين على العروش باسم الرب ، كأنهم ينطقون بلسانه ، ويصدرون الأحكام الإلهية الصارمة، وأخيراً يتنبأون بزوال الملكية كنظام نخر فيه الفساد وأثبت فشله فى إتمام مقاصد الله فى دولة دينية ثيوقراطية .

الهيكل :

أثناء قيام الهيكل ، كان يحق للملوك أن يقدموا الذبائح ، ويرتدوا الثياب الكهنوتية ، ويمثلوا الأمة فى الحفلات الدينية المتعلقة بتابوت العهد المقدس ، بل كانوا يتنبأون . وبعد بناء هيكل أورشليم فى عهد سليمان ، أنقطعت الصلة بين التقاليد الصحراوية القديمة التى كانت تقضى بأن يقيم يهوه فى «خيمة وفى مسكن وليس فى بيت من أرز » (٢ صموئيل ٧ : ١ — ٧). ولما كان المبدأ العام يُوحى أن يكون للملك العظيم معبد فخم يؤدى فيه وظائفه المقدسة ، فقد بُذلت جهود جبارة وأنفقت أموال طائلة لتشييد مقام يهوه وتابوته فوق جبل صهيون يليق بالجلال الإلهى، ويعكس مجد الملك سليمان الجالس على العرش.

وقد ابتنى لنفسه قصراً عظيماً ملحقاً بالهيكل ، على النمط عينه الذى أُلحق به قصر الفاتيكان بكاتدرائية القديس بطرس فى رومية .

أما تصميم الهيكل فقد قام به مهندس معمارى من صيدا على نسق هيا كل مصر وفينيقية ، وقام بالعمل كله صنّاع مهرة من البلدان الأجنبية . وقد زُود بكثير من أروع النقوش والشعارات والرموز . أما العبادة فى الهيكل فكانت تقرب كثيراً فى مميزاتها العامة من الممارسات المألوفة فى هيا كل مصر وفينيقية وراس شمارة فى سورية .

وان صح هذا القول – ونحسبه صحيحاً — كما توحى بذلك أعمدة الهيكل والحلىّ التى إزدان بها ، والعبادات الغريبة التى أدانها وفضحها كتّاب الأسفار المقدسة المتأخرون ،فلابد أن طقوس عبادة الشمس المصرية ، والذبائح والتقدمات الكنعانية ، وحفلات مابين النهرين الدينية مثل المراثى على تموز ، وغيرها . . قد مارسها القوم فى ذاك المعبد الملكى ، وقد أقام فيه الملك أحاز مذبحاً أشورياً على النمط السومرى فى دمشق (٢ ملوك ١٦ : ١٠ — ١٥) .

فى هذا الوسط الذى يعبد آلهة كثيرة وضع تابوت العهد بين آلهة الأمم المجاورة ، وأشرف الملك نفسه على هذه العبادات الغريبة فى الهيكل ، إلى جانب المعابد الأخرى التى ابتناها سليمان لزوجاته الأجنبيات لآلهة غريبة .

ولا مناص من كلمة حق هنا . فإن للملوك العتاة والشعب العنيد الضال ، كثيراً مازاغوا وفسدوا ، وأدخلوا عبادة تعدد الآلهة ، وأوغلوا فى الشر والأثم ، ولكن يهوه بقى الإله الأوحد الشرعى للشعب ، والمتسلط على العالم كله ،وهذه نحسبها مفخرة لليهودية ، لالليهود أنفسهم . وعلى الرغم من تقلبات التاريخ ، وصروف الزمن، بقى إله العهد الحقيقة الجوهرية الثابتة.فالملكية قامت وسقطت

والأرث القومى فى أرض الموعد قد زال ، ولكن بقى العهد قائماً روحياً فى الدين اليهودى مع الاله الواحد ، فى عبادة وحدانية . والصراع القائم بين العرب وإسرائيل ليس صراعاً دينياً ، فاليهودية من الأديان التوحيدية التى اخذت عنها المسيحية والأسلام كما قلنا ، ولكن الصراع هو مع عصابات صهيونية سلخت قطعة من أرض العرب وشردت أهلها ، بحجة إقامة دولة عنصرية تعيد مجداً دارساً وملكاً قُضى عليه بالفناء .

التطور فى اليهودية

إذا أردنا الوقوف على حقيقة الدين اليهودى وآدابه وتاريخه فلا مناص من الرجوع إلى كتابات الأنبياء – عاموس ، وهوشع ، واشعياء ، وميخا ، وأرميا وحزقيال . وإنما نرى فى هذه الكتابات تعليماً لم يكن فى بادىء الأمر مقبولا لإغراق الشعب فى موبقاته ، ولكن بعد نكبة السبي ، وعودة الشعب إلى وعيه بعد صهره فى البوتقة، غدت هذه الكتابات الدين الرسمى ،ورويداً رويداً تغلغلت إلى الآداب والمؤلفات العبرية،والقصص الشعبى ، والأساطير ، والتاريخ والثقافة ، والأخلاقيات ، والحكمة، والشعر ،وجعلت الكتاب المقدس وحدة قوية الترابط ، وكتاباً قومياً مقدساً .

ولعلّه من الخير فى صدد هذا البحث أن نشير لماماً إلى بعض المبادىء التى اقترضتها اليهودية من الأديان الأخرى التى أحاطت بها . وبيّن أن العبرانيين ظهروا على مسرح التاريخ فى وسط عالم تشبع بالثقافة البابلية ، ولا ينكر أحد أن أثر هذه الثقافة المستقاة من شريعة حمورابى كان عميقاً فى صياغة الناموس الاجتماعى اليهودى — ولا ننكر أيضاً أن القديس يوحنا فم الذهب كان مصيباً حين قال إن الطقوس اليهودية المادية مثل الذبائح وأساليب التطهير ، ورؤوس الشهور القمرية،والتابوت، والهيكل ذاته —قد استمدها المشترعون من عبادات وثنية سابقة .

أما الذى اقتبسوه عن الكنعانيين فى حرية يُرثى لها ، فهو تلك الممارسات والعقائد التى أدانها الانبياء وحاولوا اخراجها من التقاليد اليهودية الدينية .ويبدو لنا أيضاً أن اليهودية أخذت عن الدين الفارسى (زرادشت) الاعتقاد فى الحياة الاخرى، ولكنها نبذت فكرة الثنائية فى الالوهية التى اعتصم بها دين فارسى.

وفى عصور اليونان المتأخرة يتبين لنا من سفر حكمة سليمان (وهو من أسفار الابو كريفا) كيف أن الكاتب استقى كثيراً من الفلسفة الافلاطونية ، بل أن سفر الامثال نفسه اقتبس من الحكمة الإغريقية والحكمة المصرية أيضاً .

ومن خطل الرأى أن نبدى خشية على كتابنا المقدس عند القول ان اليهودية قد اقترضت من بلدان وأديان أخرى ، فالإيمان بالله الواحد يقتضى حتماً وجوده فى العالم كله ، ونشاط روحه نشاطاً شاملا بين كل الجماعات البشرية . والدين الحق هو الذى لا يقطع لحمة النسب والقربى بينه وبين الحكمة المتسامية لدى كل الشعوب . ومعنى هذا أن يكون فى ميسوره أن يثبت أصوله الالهية بقوته على امتصاص الحق أينما كان، حين يتصل به . والله لم يترك نفسه بلا شاهد فى أى مكان أو زمان .

على أن ثمة حقيقة أخرى ينبغى الاّ نغفلها ، وهى انه مع التسليم بأن اليهودية قد استمدت من دين الفرس بعض أحكامها وشرائعها ، فإن اليهودية كانت فى خواصها الجوهرية ، تطوراً قومياً نسب فى اصله إلى موسى ، ولكنه تشكل فيما بعد تاريخاً سليماً صادقاً بأيدى كبار الأنبياء، الذين خلوا إلى نفوسهم وربهم، وكتبوا ما كتبوا بايحاء روح يهوه.

وفى اليهودية وعقائدها مظاهر معينة لا بد من دراستها .

١ — كان الدين عند اليهود مطلبهم الأول والأهم . فنحن لا نعرف شيئاً عن فنونهم عدا ما ذكر فى سفر الخروج (٣١ : ١ ـ ١١) عن « بصلئيل بن أورى » الذى حذق صناعة الذهب والفضة والنحاس ، ونقش الحجارة للترصيع ونجارة الخشب . وفى سفر أخبار الأيام الثانى (٢ : ١٣) عن « حوارم » وهو من اصل مختلط ، كان أبوه رجلا من صور ، وقد حذق أيضاً صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب والارجوان . . . وهو الذى صاغ أثاثات

هيكل سليمان . أما الفنّ الهيرودسى الذى ظهر متأخراً فى الهيكل الثانى، فلم تسهم فيه العبقرية الفنية اليهودية إلا بقسط ضئيل لا يذكر .

أما الإلمام بالطبيعة الذى نقرأه فى سفر حكمةسليمان (٦ :١٧) ـ وهو من الأسفار غير القانونية ـ فهذا فى الواقع من ابتكار خيالات مفكر اغريقى ، ولم يقدم اليهود شيئاً من نتاج تفكيرهم للعلوم كما فعل البابليون ، أو المصريون ، أو الأغارقة . كذلك لم يسهموا بنصيب فى التراث العالمى للعلوم السياسية ، ولا للعلوم اللاهوتية أو الفلسفة العقلية .

على أنهم قد بلغوا فى الشعر ، وفى الفن القصَصى ، شأواً رفيعاً . ولـكن شعرهم ورواياتهم النثرية وآدابهم فى صياغة الأمثال قد عُنيتِ بموضوع واحد هو الدين وثماره الأخلاقية. هذا هو الدِّين الوحيد الذى يدين به العالم لليهودية .

٢ ـــ ولم تـكن اليهودية ديناً طقسياً وحسب ،بل كانت أيضاً ديناً أخلاقياً. فالانبياء قد سفّهوا عبادات الشعوب الأخرى المحيطة بهم إذ رأوها مناقضة للاخلاق القويمة، وسلقوا بألسنةحادة عبادة الأوثان ،وصنع التماثيل ، والذبائح المادية ، مما حسبوه مكرهة وسُبّة للدين . على أن الشعب فى فترات عديدة من التاريخ قد تمرد على نواهى الأنبياء ، وتمرغ فى كثير من ألوان الفساد وعبادة الأوثان والتنكر لمبادئ الحق والعدل .

٣ ـــ واليهودية فى العهد القديم سارت فى تطور . وهذا التطور التدريجى فى الأساليب والتفكير كان من المميزات الخاصة التى نراها ماثلة فى طرق الله مع هذا الشعب . وكأنما الله قد أخذ بيد الإنسان البشرى ، وسار به خطوة خطوة إلى هدف معين . وعلى هذا الأساس فهموا المشاكل الأدبية التى تضمنها العهد القديم . وحين فـكروا فى الوصايا المنسوبة لله ـــ كأمر الله لابراهيم أن يقدم ابنه ذبيحة ، أو الأوامر الأخرى بتضحية شعوب بأسرها ـــ التى لا

يصح نسبتها إلى الله فى أيام الاستنارة الروحية ، فهموا أن الشعب كان يرتقى صعداً فى أطوار نحو هدف اسمى. ومما يبرر هذه الطريقة الالهية فى التطور أن الإنسان مستطيع الآن أن يستنكر بإسم الله بعض الشرائع التى قبلها الناس فى عهود البداوة الأولى، مثل الذبائح الحيوانية والنباتية. واعتقادنا ان الله لا يرضى اليوم عن كثير من تلك الاحكام والفرائض التى سنّها العهد القديم شريعة لأقوام بدائية ...

فمثلا نحسب فكرة عاموس النبى عن يهوه، إله العالم كله، والديان العادل لكل شعوب الارض ، تقدماً عظيما وارتقاء رائعاً للفكرة القائلة ان يهوه هو إله شعب إسرائيل وحسب ، له سلطة محدودة ونفوذ قومى لا غير . كذلك نرى هوشع النبى يدين على لسان الله المذبحة الدموية لبيت آخاب الملك ، التى لطخ بها «يا هو» يده . وقد حسبها المؤرخ القديم أمراً صادراً من الله ! وأيضاً نرى فكرة الاقرار بكرامة الفرد ومسئوليته يبزغ نورها فى عصر حزقيال فقط ، ومن هنا ينبثق الإحساس بخلود الإنسان وقيامته . على أن التقدم والتطور لم يكن سيراً إلى الامام فى كافة الاحوال، بل كانت هناك الردّة تارة ، والقهقرى إلى الوراء أخرى .

ففى أشعياء (١٩ : ١٩ — ٢٥) نشهد فكرة رائعة واسعة الافق تجعل دين يهوه ديناً عالمياً جامعاً شاملا يضمُّ مصر وأشور مع إسرائيل سواء بسواء . وفى أشعياء الثانى نقرأ عن شعب يهوه الخادم الذى سيكون بشيراً للعالم قاطبة.

وفى سفر يونان يمدّ يهوه يده بالترحاب والغفران لأشد الشعوب لدداً فى عداوته، إذا هم تابوا وانابوا وأصغوا إلى ندائه . على أن هذا المستوى الرفيع لم يكن من الميسور الاحتفاظ به . فقد برزت فيما بعد بقرنيها قومية ضيقة عاتية ، تاقت إلى سيادة إسرائيل الدموية على الشعوب الاخرى .. وإنّا لنرى مصداقاً

لهذه النعرة فى مزامير سليمان الفريسيـّـة — التى يرجع تاريخها إلى سنة ٥٠ ق . م.
فضلاً عن هذا فإن سلسلة الأنبياء قد انتهت بالغزو الفارسى ،و بطلت النبوة .
ولم يكن خليفة الأنبياء كهنة الهيكل ، بل كتبة الناموس والشريعة الذين
شغلوا بالشرح والتأويل والاجتهاد فى أسفار موسى، حتى أخرجوا للشعب شبكة
معقدة من الاوامر والنواهى السخيفة غطت كل الحياة اليهودية ، و باتت
الطقسية الجامدة الضيقة بديلا عن الوحى والإلهام فى سعة من الافق وروحانية
فى الفكر .

حقاً لم يكن دين إسرائيل فى القرون التى سبقت مجىء المسيح على أفضل
أوضاعه ، بل قد تسلـّط عليه الفريسيون ، وراحوا ينزلون به درجات فى
الحضيض الاسفل .

الله فى اليهودية

فى رسائل الأنبياء

إذا أردنا أن نعرف ذات الله وطبيعته فى اليهودية ، فلا بدَّ من دراسة أقوال الأنبياء ، أما تصرفات الشعب والملوك والقادة فقد حادت فى فترات كثيرة عن جادة الصواب والحق ، وانغمست فى آراء وأفعال لا تمتُّ بصلة إلى وحدانية الله وبرّه وعدله .

لذلك نرى بعض كتَّابنا فى الشرق يصورون إله العبرانيين ويخلعون عليه أوصافاً حسِّية ، لا تتفق والصورة التى رسمها له الأنبياء وهم رسله ودعاته . . . فقالوا مثلاً ان يهوه إلههم اتخذ عمود سحاب نهاراً ليهديهم فى الطريق ، وعمود نار ليلاً ليضىء لهم (خروج ١٣ : ٢٠ ـ ٢١) . ويقول بعض العلماء ان هذه لم تكن فى الحقيقة ، الاّ دخاناً متجمعاً من البراكين دفعته الرياح إلى الأمام .

ويقول الدكتور أحمد شلبى فى كتابه (مقارنة الأديان ـ اليهودية[١]) ان يهوه إله العبرانيين لم يدّع أنه عالم بكل شىء ، بدليل أنه طلب من بنى اسرائيل ان يميِّزوا بيوتهم بدماء الكباش المضحاة لكى لا يخطىء فى إنزال الضربات عليهم[٢] .

ويقول ان يهوه العبرانيين لم يكن معصوماً ، وكثيراً ما يقع فى الخطأ ، ثم يندم على ما فعل[٣] . ويهوه يأمر بالسرقة[٤] . ويهوه إله قاسٍ مدمر متعصب

---

(١) مقارنة الاديان — اليهودية صفحة ١٥٥ .

(٢) خروج ١٢ : ٧ .

(٣) خروج ٣٢ : ١٤ وصموئيل الأول ١٥ : ١٠ .

(٤) خروج ٣ : ٢٢ .

لشعبه دون بقية الشعوب [1] . وهكذا إلى آخر ما ذكره الكاتب من أوصاف استند فيها إلى آيات فى الكتاب المقدس فى المراحل الأولى .

وقد قلنا فى فصل سابق من هذا الكتاب ان دين العبرانيين جاء تطوراً يتفق مع طبيعة الإنسان ، وان الكتاب المقدس يروى قصة هذا التطور ، وان الأنبياء عابوا هذه التصرفات .

وفى هذا الكتاب ـ كما قلنا فى المقدمة ـ قد آلينا على أنفسنا أن نصوّر الأديان ، لا كما يؤمن بها الكافة والبسطاء وذلك لأن بين جماهير الكافة فى كل نظام من النظم الدينية ، لا نرى إلاّ قليلاً مما نقدر على إخراجه من دائرة الوثنية الوضيعة ، والآداب الرخيصة ، والتخوف من الأرواح الشريرة . وفى حكمنا على الأديان لم نراعِ أسوأ ما فيها ، بل أفضل ما بها . ولسنا ننكر أن فى كل دين من دلائل المثل العليا ما تستطيع النفس أن تنهض به للوصول إلى الله .

ويهوه فى رسائل الأنبياء هو الإله الواحد ، خالق الكون كله ، فى وحدانية مطلقة لا مكان فيها لشريك معه . هو خالق كل الأشياء ، ما يُرى وما لا يُرى ، المادية والروحية . ولم تكن رسائل الأنبياء زبد قرائحهم استخلصوها من منطقهم وتفكيرهم ، بل كانت كلام الله أوحى اليهم . ومعنى هذا أن الأقوال التى تفوه بها الأنبياء والاختبارات التى عرفوها ، لم تكن انعكاس أفكارهم ، بل كانت أحاديث تسربت إلى قلوبهم كأنها صوت من الله ذاته ، متميز عن أفكارهم الخاصة ، حتى لقد بدوا أحياناً أنهم يتحدثون إلى الله ، بل يحتجون عليه ويعارضونه ، وأحياناً يتمنعون عن أن يكونوا أدوات لتنفيذ مشيئته .

---

(١) خروج ١٢ : ١٢ وتثنية ٧ : ١ — ٢ وتثنية ٢٠ : ١٠ — ١٦ .

وهذا الإله المتعالى الذى يفوق كل عقل ، مطلق فى برّه ، وهو لا يطلب من الناس إلاّ البرّ . ويبدو هذا البرّ واضحاً فى دينونته للخطية ، لأن الخطية عصيان ضد الله .

ولكن هذا الإله لايسره أن يدين أو يعاقب ، لأن برّه محبة ، محبة تفوق محبة الام لوليدها ، أو الزوج لزوجته .

وفى الاطوار الأولى من النبوة والتاريخ ، اقتصرت الفكرة على قيام شعب يكرس حياته لعبادة يهوه ، ولم تبرز قيمة الفرد ومسئوليته الاّ فى الأفراد الذين يمثلون الأمة كالملوك، والانبياء ، والكهنة . وكان الدرس الذى تردد صداه فى كل مناسبة أنه إذا حفظ الشعب وصايا الله وأحكامه ، وسلك أمامه فى نزاهة وعدل ، فإن النجاح يكون حليفه ، ولكن هذا الإله لا يرضى ابداً ولاء موزعاً ، لأنه إله غيور ، وينظر إلى الأمة كوحدة واحدة فى تسلسل اجيالها : « يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضيه، ويصنع احسانا إلى ألوف من محبيه وحافظى وصاياه » .

وما أحرانا فى هذا العصر أن نفكر ملياً فى صدق هذا القول . فإذا أردنا أن نحلل عوامل الشقاء والبؤس والفشل التى تصيب الأمم، ادركنا أن الخطية هى من أهم أسباب النوائب والكوارث التى تحيق بالشعوب — أى إباء مجاميع الشعب عن فعل الصواب ، والتنكر للاستقامة والنزاهة والحق والعدل . أرنى الأمة التى تحفظ شرعة القانون الأدبى ، وتعتصم بمبادىء النزاهة والصدق والعدل والتجرد من الانانية ، وتتحلى بضبط النفس فى ملاذها الشهوانية ومطامعها الاشعبية ، وانا اضمن لك زوال أسباب الشقاء والبؤس والفوضى التى تعانيها . ولكن من مآسى التاريخ أن الشعوب تعرف هذه الحقائق ولا تفطن لها، ولا ترعوى عن غيّها . وفى مثل هذه الأمة يتألم البار مع الاثيم،

بل لعلَّه يتألم اكثر منه ، لأن عصيان الناموس الأدبى يولد كثرة من الآلام والمظالم . كان هذا شأن إسرائيل فى القديم ، وأغلب الظن أن هذا سيكون مصيرها فى هذا العصر أيضاً !

الحياة الأخرى :

ومن الغريب أنه بينما كان الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت من العقائد التى نادت بها اديان كثيرة فى القديم مثل دين الفرس ، فإن أمة إسرائيل لم تلتزم بهذه العقيدة ، فى أول عهدها. صحيح أن فكرة غامضة راودت خيالاتهم عن عالم تحفُّه الظلال للانفس فى شيول ، ولكن هذا العالم السفلى كان مظلماً خارجاً عن سلطان يهوه ، واقتصر دين إسرائيل على الأهتمام بهذا العالم وشئونه. ولعل هذا التركيز على الحياة الحاضرة هو الذى أبقى لليهودية خواصها الأدبية الاخلاقية فى الإيمان ببر الله وعدله، اللذين يجب أن يتزكيا فى هذه الحياة.

على أن ضغط الأعصاب لم يعد محتملا ، وفى الاطوار الأخيرة من تطور الدين، اضطر القوم إلى قبول عقيدة قيامة الأموات والحياة بعد الموت . ولئن يكن لدين الفرس بعض الأثر فى هذا التطور ، فانه لاجدال فى أن هذه العقيدة كانت فى الواقع نمواً داخليا فى هذا الدين . وكان مردُّها إلى عوامل ثلاثة :

اولها الاحساس بعدالة الله . وذلك لأن الاختبار البشرى أقحم على العقول نتيجة منطقية ، مؤداها أنه لابد أن يكون لله مجال أوسع من هذا العالم يزكى فيه عدله : « وبعد أن يفنى جلدى هذا وبدون جسدى أرى الله » (ايوب ١٩ : ٢٠). وقد رسخت هذه العقيدة فى عصر الشهداء المكابيين .

الثانى الرقى المضطرد فى الدين الشخصى وعلاقة الإنسان بالله، كما نرى ذلك ماثلا فى سفر المزامير « الله ليس اله أموات ، بل اله أحياء ، لأن الكل يحيون لله » . وليس مستساغاً ولا مقبولا أن انفس البشر التى تستمتع بمثل

هذه الصلة مع الله تنحدر إلى « اللاشيئية » عند الموت . « اما انا فالبرّ انظر وجهك . اشبع إذا استيقظت بشبهك» (مزمور ١٧ : ١٥) .

والثالث توقع مجيء ملكوت الله ، بعد كل أسباب الفشل والخيبة التى عانتها الأمة. فلا يعقل أن الذين جاهدوا وكافحوا وحاربوا وماتوا فى سبيل قضية الأمة وتحقيق آمالها ، لا يكون لهم نصيب فى ذلك اليوم المجيد . تلك كانت صرخة اشعياء ، حين قال : «تحيا أمواتك . تقوم الجثث . استيقظوا ، ترنموا ياسكان التراب » (اشعياء ٢٦ : ١٩) .

دين العهد القديم :

ومع أن الدين فى العهد القديم يصل إلى مرتبة علياً فى تأييد الكمالات الإنسانية وابراز عدل الله، ورحمته، وقدرته، وعلمه بكل شيء، فإنه لم يكن كاملا، وذلك لأنه دين أمة معينة ، وليس ديناً جامعاً للجنس البشرى ، وان تكن هذه الفكرة منطوية بين ثناياه فى بعض المواقف. وإنّا لنلحظ القسوة والوحشية فى التعبير عن الدينونة الإلهية التى تحيق باعداء إسرائيل . على أنه مع التسليم بهذا النقص فى دين العهد القديم ، يجب أن نذكر أن فكرة النقص لم يحاول أحد من الأنبياء اخفاءها، فكلهم رنوا بابصارهم إلى يوم أفضل، إلى نور أكمل، إلى عهد جديد أكثر رواء وروحانية — هو عهد المسيّا (المسيح).

وقد يصح أن نمثل هذا القول بالنظر إلى الوصايا العشر وهى الأساس الذى بُنى عليه دين العهد القديم وآدابه وأخلاقياته . فتلك كانت وصايا ناقصة جاء اكثرها فى صيغة سلبية ، وقد نقحها وراجعها المسيح نفسه . ولكن متى مع التسليم بأن المسيح نقحها وراجعها فى ضياء روحه ، ونقل مضامينها من العمل الظاهرى إلى النوايا الخفية الباطنة وراء هذه الأعمال، ومن السلبية إلى الإيجابية، فلن ينكر أحد أنها شملت فى الواقع كل الآداب الخاصة والعامة ، وأنها قد

أوفت وأبدعت فى تصوير اسمى الأخلاق التى عرفها العالم القديم .

ذلك لأن الوصايا صورت السلطان المطلق للاله الواحد ، وأوجبت العبادة له وحده دون سواه ، وشجبت كل عبادة للاصنام ، وكل وضع من أوضاع العبادة التصويرية أو الشكلية المحسوسة ، وفصلت بين دين العبرانيين والأديان الأخرى التى حفل بها العالم القديم ، وجعلت الحياة وطيدة الأركان مادام يعبد الناس يهوه البار ، الإله الواحد ، خالق العالمين ، المنزه الذى لا يمكن تصويره بأى شكل أرضى .

ويبدو الجانب الإيجابى للوصيتين الأوليين فى سفر التثنية « كالوصية الأولى والعظمى » التى ذكرها المسيح . والوصية الثالثة التى تحظر ذكر اسم الله باطلا ، قد عمّقها المسيح فى شرعة النطق بالصدق المطلق . وتشمل الوصية الرابعة ثلاث شرائع — شريعة العمل ، وشريعة الراحة فى يوم السبت ، وشريعة المشاركة فى إراحة جميع الناس ، بل حتى الحيوانات ، ليكون لها نصيب فى هذه الراحة . وقد ردد بولس هذه الشريعة « إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً » . وشريعة السبت تمثلت فى يوم العبادة الأسبوعية يوم الأحد عند المسيحيين . وشريعة المشاركة التى تعمقت جذورها وامتدت فى العهد الجديد ، نجدها فى وضع اكمل فى سفر اللاويين (١٩ . ١٨) « تحب قريبك كنفسك » ، وقد رددها المسيح كما هى بنصها .

واكرام الوالدين — وهى شريعة تشترك فيها اليهودية مع الكنفوشية — قد تأيدت وامتدت فى العهد الجديد كنظام اجتماعى عام ، وخضوع متبادل . أما شريعة القتل فقد ذهب بها المسيح إلى ماهو أبعد وأعمق فى معناها ومدلولها ومظاهرها . كذلك شريعة الزنى التى تطلبت فى العهد الجديد الطهارة الكاملة والتسلط على كل الميول الشهوانية الجنسية ، كما تطلبت شريعة السرقة الأمانة والنزاهة والشرف فى المعاملات المتبادلة . وشريعة حظر شهادة الزور فرضت

على اللسان أن لا ينطق إلا بكل كلمة رقيقة رحيمة .أما شريعة عدم اشتهاء متاع الغير ، فقد استحالت إلى إدانة كل نزعة للتملك والطمع.

فالوصايا العشر إذاً تمثل بلا شك طوراً ناقصاً فى التربية الدينية الأخلاقية ، ولكن فى المسيحية قد تعمّقت جذورها ، واتسعت معانيها، وخلع عليها المسيح رداء جديداً من البهاء والرواء .

اليهودية بعد السبى

بدأت الحوادث المثيرة فى مستهل القرن الثانى قبل الميلاد تغذى المطارحات والدراسات اليهودية عن الحياة الأخرى ، ولو أن مؤثرات الحياة الفارسية كانت قد تغلغلت فى اليهودية فى القرن الثالث أو ربما القرن الرابع قبل الميلاد. وبعد العود من السبى ظلت اليهودية خاضعة للحكم الفارسى فترة من الزمن، على الرغم من المعارضة العنيفة التى أبداها السامريون فى الشمال ، بعد أن رفض السبيون المحافظون التعاون مع بقية الشعب فى إعادة بناء الهيكل والمدينة . وفى هذه الفترة توطدت أركان الدولة الكهنوتية تحت عزرا ونحميا وخلفائهم من بعدهم . واضطر اليهود إلى طرد زوجاتهم الأجنبيات ، وحظر التزاوج مع غير اليهود، وفرضت قواعد حفظ السبت فرضاً صارماً ، وأعيدت عبادة الهيكل كما أعيد تأويلها والاجتهاد فيها وفق آراء المدرسة الكهنوتية على أساس الوحدانية الأخلاقية التى بدأها الأنبياء ، مع طقوس ورسوم ترجع فى أصولها الإلهية إلى عصر موسى فى البرية، وجعلت التوراة التى تضمنت فى بادىء الأمر أسفار موسى الخمسة — وبعدها اتسعت لتشمل كتابات الأنبياء والمزامير وأسفار العهد القديم جميعها — مرشداً معصوماً للايمان والسلوك . ثم أقيمت المجامع لقراءة الأسفار المقدسة وشرحها والتبصر باحكامها . وقد كان الهيكل مركز العبادة ، أما المجمع فكان مكاناً للاجتماع ودراسة الكتاب وشرحه .

وقد اقترنت الحياة الدينية بسلسلة من الأصوام والأعياد مبتدئة بعيد الفصح الذى اقترن أيضاً بالعيد الزراعى—عيد الخبز غير المختمر فى فصل الربيع (مارس أو ابريل من كل عام) .

وبعد سبعة أسابيع من هذا التاريخ يجىء « عيد الأسابيع » أو باكورة

الثمار، وينتهى بعيد العنصرة فى ختام الربيع، وكان إيذاناً بنهاية حصاد الشعير وبداية حصاد القمح ، وكان فى الأصل يجىء فى منتصف الصيف . على أن أهم الأعياد الزراعية وآخرها هو عيدرأس السنة الذى كان يقع فى اليوم الأول من الشهر السابع (تشرى) فى الخريف، يوم كان يُنفخ فى الأبواق ، ويُنادى بيهوه ملـكا فى حفل تتويج رائع . وبعد هـذا التاريخ بعشرة أيام كان يجىء «يوم الـكفارة »، وهو اليوم الذى كانت الأمة تـكفر فيه عن ذنوبها التى اقترفتها فى العام المنصرم بطريقة جماعية، ويوم كان يطهر الهيكل ، والمذبح ، والـكهنة والجماعة كلها بالدم المسفوك (لاوبين ١٦ : ١ ـ ٢٨) .

يوم الـكفارة :

وهذا الطقس البدائى قد يرجع تاريخه إلى فترة ما قبل السبى ، وهو يقوم على طرد الشرّ إلى ضحية فدائية (ذبيحة خطية)[١] ، وعلى التطهير برش الدم على الأشخاص والأشياء ، وهذا طقس وضع أساسه موسى وهرون فى البرية بإرشاد إلهى ، على أنه لم يذكر فى العهد القديم إلا مرة واحدة ، ثم ذكر بعد ذلك فى القانون الـكهنوتى بعد السبى (لاويين ص ١٦) .

والظاهر أن هذا الطقس لم يكن معروفاً لدى حزقيال وزكريا ، وهما اللذان نظما قواعد الذبائح والأصوام إحياء لذكرى النوائب والأحداث القومية دون أية إشارة إلى هـذا الطقس (حزقيال ٤٥ : ١٨ وزكريا ٨ : ١٩) . من ثمّ يكون تقرير يوم الـكفارة لاحقاً لطقس تطهير المقدس فى اليوم الأول فى كلّ من الشهرين الأول والسابع ، وأغلب الظن بعد عصر عزرا (سـنة ٣٩٧ ق . م)، وذلك لأن الصوم المقرر فى اليوم الرابع والعشرين من الشهر السابع والمشار إليه فى سفر نحميا (٩ : ١ ، ٢) لا يمتّ إلى هذا الطقس بأية صلة. على أنه بعد تقرير يوم الـكفارة غدا طقساً مرموقاً منيع المـكانة فى يهودية

(١) اعتقد القوم أن الشر كان يحمله عنهم « تيس مطاق » يسمى « عزازيل » ، ثم يأخذه منه شيطان ويلقيه فى تيه البرية المقفرة .

الربيين بعد السبي، واقترن بمعان أخلاقية سامية . فقد علم الربيُّون اليهود (فقهاء الشرع) أن هذا الطقس مع قدرته على التكفير عن كبائر الذنوب التي يقترفها الإنسان بتصلف وعناد، فإنه لا بدّ أن يجرى بإخلاص فى القلب وتوبة صادقة لكى يحقق الهدف المروم . وكان من آثار السبي أن نضجت وأينعت الفكرة الأخلاقية عن التوبة والغفران التي ألح عليها الأنبياء العبرانيون، ولكنها تمشياً مع الروح التي سادت اليهودية بعد السبي، اقترنت بطقس بدائى تسنده مبررات وأسانيد إلهية .

عيد المظال :

وتختتم الأعياد الخريفية بعيد المظال،فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرى حيث كان يقيم العبرانيون فى مظلاّت مصنوعة من « أغصان الأشجار وسعف النخل وصفصاف الوادى » (لاويين ٢٣ : ٤٠) . وقد كانت تلك أهم أحداث السنة، تعبيراً عن امتنانهم وشكرهم من أجل قطاف الكروم، وثمار الأرض الخريفية عاماً بعد آخر، وإحياء لذكرى فضل يهوه عليهم فى أيام القدم، يوم هام أسلافهم على وجوههم فى البرية .

ولما كان ذلك العيد رأس سنة « فى آخر السنة » (خروج ٣٤ : ٢٢) فربما كان قريب الشبه فى أغراضه وأهدافه بذلك العيد السنوى الذى عرفته الحضارات الزراعية فى الشرق الأوسط، يوم كانوا يحتفون بيوم قيامة إله الزرع والحصاد . ومما لا شك فيه أن بعض المزامير التي اقترنت به توحى بتتويج يهوه ملكا لضمان تهطال المطر فى السنة الحالية (مزمور٦٥ : ٩ — ١٣ و ١٠٤ : ١٣ و مزمور ٤٧ و ٦٨ و ٧٤ : ١٦ ومزمور ٢٤ ـ أنظر أيضاً زكريا ١٤ : ٦) وإعلان نصرته على قوى الموت .

ولما كانت قلة من هذه المزامير يرجع تاريخها إلى ماقبل السبي، فإنها

لا تلقى إلا قليلا من الضياء على أهمية هذا العيد فى عهد الملكية ، إلا إذا حسبناه مجرد تراث من عقائد وممارسات فى تاريخ مبكر .

الاسفار المقدسة فى اليهودية

كان هدف المسئولين عن بناء نظام اجتماعى منسق وطيد الأركان على دعائم قومية صلبة ، أن ينشئوا جماعة كهنوتية تيوقراطية على رأسها رئيس الكهنة ، الذى يدّعى تحدّره من الكاهن الملكى صادوق، وقد زعموا أن هذا من سلالة هرون أخى موسى . وتحت إشرافه كهنوت الهيكل وسدنته من اللاويين . على أنه بعد أن ذاعت وتطورت الكتابات المقدسة ، وزاد اهتمام القوم بالتوراة ، ظهر بين طبقات المجتمع الدينى فئة مستقلة أخرى تولّت نسخ هذه الكتابات وشرحها — وأولئك هم « الكتبة » . وقد صار بعضهم معلمين فى المجامع ، وبالتالى من الأحبار الربّيين ، وكانت مهمتهم شرح الأسفار العبرية باللغة الآرامية ، وقد كانت لغة الشعب فى فلسطين وسورية . وعلى مرّ الزمن ظهرت ترجمة آرامية سميّت « الترجوم » ، كما بدىء بترجمة يونانية — هى الترجمة السبعينية — فى القرن الثالث قبل الميلاد، وأستكملت حوالى القرن الأول قبل الميلاد .

وكان من آثار هذا النشاط فى الكتابة والنقل أن جمع الكهنة والكتبة الكتاب المقدس العبرى (أى العهد القديم) ، كما هو الآن بين أيدينا ، وذاع استعماله وقراءته فى المجامع بمعرفة الربيين والأحبار . وقد قسم اليهود كتابهم المقدس إلى أقسام ثلاثة :

١ ـ « الناموس » أى التوراة ـ وهو الذى يشمل الأسفار الخمسة الأولى فى العهد القديم ، الذى كتبها موسى كما يقولون .

٢ ـ « الأنبياء » وهم الأنبياء المتقدمون (يشوع والقضاة وصموئيل

الأول والثانى ، والملوك الأول والثانى)، والأنبياء المتأخرون (وهم أشعياء وأرمياء وحزقيال وصغار الأنبياء الاثنى عشر) .

٣ ـ « الكتابات » (وهى المزامير والأمثال وسفر أيوب ونشيدالأنشاد وراعوث والمراثى والجامعة وأستير ودانيال وعزرا ونحميا وأخبار الأيام الأولى والثانية).

وتحت تأثير الحركة الهلّينية (اليونانية) التى سادت منطقة الشرق الأوسط عقب غزوات الأسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وتغلغل الفكر اليونانى والثقافة اليونانية ، بزغت فكرة تنظيم وتقنين الأسفار المقدسة العبرية للتمييز بين الأسفار المقدسة وأسفار الأبوكريفا (غير القانونية)، التى كانت قد انتشرت حوالى سنة ٢٠٠ ق . م . وكان الكتاب المقدس اليونانى (الترجمة السبعينية) قد تضمنت أسفار الأبوكريفا هذه (وهى عزرا الأول، عزرا الثانى . يهوديت . طوبيت . تتمة سفر استير . الحكمة . يشوع ابن سيراخ. باروخ النبى . رسالة أرمياء . نشيد الفتيان الثلاثة. قصة سوسنة. قصة بعل والتنين . صلاة منسى . سفر المكابيين الأول . سفر المكابيين الثانى) .

و « الأبوكريفا كلمة يونانية معناها « خفىّ » واستعملت أيضاً بمعنى غامض أو سر"[1] . وبعض الكنائس المسيحية تقرأها فقط للافادة وتهذيب الأخلاق .

والوحى فى نظر اليهودى هو إعلان إرادة الله وقصده فى مواقف تاريخية صريحة بتدخله الإلهى فى سير الحوادث وتوجيهها . وادّعى الأنبياء

---

(١) من أراد الاستزادة من فهم هذه الأسفار وتاريخها فليرجع إلى « المدخل إلى الكتاب المقدس » للمؤلف صفحة ١٧٩ وما بعدها .

العبرانيون أنهم لسان حال يهوه، فقدموا رسائلهم بقولهم « هكذا قال الرب »، اعتقاداً منهم أنهم يقدمون للناس رسالة مباشرة من الله. على أنهم لم يهتموا إلا قليلا بالإنباء بأحداث المستقبل، أو إعلان المبادىء والأحكام الدينية والأدبية. أما أسفار الأبوكريفا فقد تبسطت وتوسعت فى موضوع الحياة الأخرى والدينونة والسماء وجهنم ونهاية العالم. ويذهب بعض المفكرين إلى أن هذه الكتابات قد تأثرت فى تفكيرها ومتجهاتها بالإنطباعات الفارسية، كما يؤخذ من كثير فى تفاصيلها (راجع دين زرادشت فى هذا الكتاب).

عصر المكابيين

بعد سقوط فلسطين تحت حكم السلوقيين — أو العنصر الاسيوى (السورى) فى الإمبراطورية المكدونية — سنة ١٩٨ ق. م. زاد الضغط على اليهود لاعتناق طريق الحياة اليونانية، والدين اليونانى. ولما جلس انتيخوس ابيفانوس على العرش فى سنة ١٧٥ ق. م. حاول أرغامهم بالقوة والعنف على عبادة الآلهة اليونانية — زيوس وديونسيوس — وحرّم عليهم حفظ يوم السبت،
وختان اطفالهم، وقراءة الاسفار العبرية المقدسة. وقد تورط فى هذا الإعنات حتى اقام مذبحاً للاله زيوس فى هيكل أورشليم، وقدم عليه محرقات وذبائح من الخنازير، وهى أكثر الحيوانات تدنيساً فى نظر اليهودى. ولما طلب من كاهن شيخ يدعى « متياس » أن يقدّم هذه الذبيحة الدينية على مذبح قريته « مودين »، ذبح الوالى الموفد من قبل الملك، وشقّ عصا الطاعة علناً، ورفع لواء العصيان الثورى الذى حمله من بعده أولاده الثلاثة — يهوذا ويوناثان وسمعان — وأفلحت الثورة فى استعادة استقلال فلسطين، على أن نزاعاداخلياً وحرباً أهلية نشبت بين خلفائهم، حتى اضطر الرومان للتدخل وحفظ النظام. وفى سنة ٦٣ ق. م. اخضعوا البلاد لحكمهم كجزء من ولاية سورية.

وفى بداية العصر السلوقى (فى سنة ١٩٨ ق . م .) كُتب سفر دانيال الذى يصف « الرجس المخرِّب » الذى اقترفه انتيخوس الذى سمِّى « القرن الصغير »، وفيه تجسَّمت قوة الشر . وقد روى سفر المكابيين ، من اسفار الابوكريفا ، قصة الثورة وما تلاها من أحداث . ومع أنه فى أزمنة الازمات تتجه أفكار البشر إلى الرؤى والاحلام ، فإن الرؤى اليهودية لم تنسجم تماماً مع الرؤى الفارسية . والحديث عن الأخرويات فى سفر دانيال يتميز عن كتابات الانبياء المتأخرين ، وفيه يظهر رؤساء الملائكة ميخائيل وجبرائيل معاً مع يوريل ورفائيل فى اسفار الأبوكريفا . كما أن الرجاء فى مجىء المسِّيا الذى قوى فى اليهودية بعد السبى ، والاتجاه الثنائى الذى تمثل فى وجود مصدر شخصى للشر — يدلان على تبنى أفكار جديدة لها تاريخها التقليدى البعيد عن المؤثرات الفارسية إلى حد ما. على أنه بعد عصر المكابيين تشبَّع الفكر اليهودى فى أسفار الأبوكريفا بالآراء والأفكار الفارسية عن عالم الآخرة .

الأحزاب والطوائف اليهودية

بعد الثورة المكابية ، والاستقلال المؤقت ، وصدّ الثقافة اليونانية عن التغلغل فى حياة الامة ، أصبح التوراة السلطة العليا التى دان لها الشعب . وعُرف غلاة المتزمتين والمتمسكين بالتقاليد القوميـــة ، بلقب «شاسديم Chasidim» ، أى الاتقياء ، وهم الذين تميّزوا بغيرتهم على الناموس فى أيام الاضطهاد المريرة التى عانوها تحت حكم انتيخوس ابيفانوس ، وآثروا الموت جماعة فى حالة البر عن تدنيس يوم السبت — على حد قول سفر المكابيين . ومن هؤلاء نبت الفريسيون كحزب يهودى ، محافظ شديد الولاء للناموس ، ومتزمت فى حفظ التقاليد الشفوية المتواترة بمثابة توراة غير مسطور . وتخالفهم فى هذا فئة أخرى ، لها وزنها وقدرها ، هم جماعة الصدوقيين الذين نبذوا التقاليد والاحاديث كأن لاسند لها . وقد احتدم النزاع بينهم حتى انتهى بالقطيعة

والإنفصال الذى استمر حتى سقوط أورشليم سنة ٧٠ ب . م . يوم قُضى على الصدوقيين القضاء الاخير .

أما الفريسيون فقد اعتصموا بالآراء عن مجىء المسِّيا التى جاءت فى أسفار الابوكريفا ، وقيامة الاموات والدينونة الاخيرة وفق المصطلحات الفارسية ، وشددوا على التطهير الطقسى، وعلى الدين الشخصى فى البيت وفى الحياة . ومع أن بشائر الإنجيل تصورهم بألوان قاتمة ، ويسلقهم التلمود بأعنف النعوت واقسى الاوصاف ، إلا انهم كانوا موضع التقدير والاحترام خلال القرن الأول بعد الميلاد، ونشطوا فى الدعاية لدينهم حتى كانوا يجوبون البر والبحر لاكتساب الدخلاء إلى دينهم (متى ٢٣ : ١٥) . والحق أن بقاء اليهودية كدين أخلاقى بعد دمار أورشليم إنما يرجع إلى ثبات أركانه التى وضعوها هم فى صلابة وتزمت. وقد كانوا فئة « انفصالية » أشبه بالمعتزلة فى الإسلام ، وحركة الطهورين فى المسيحية ، إلا أنهم ركبوا متن الشطط فى ضيق الفكر ، والتزمت العنيف ، واحتكار التقوى لأنفسهم دون سواهم، كمدرسة قائمة بذاتها بآرائها وممارساتها. ومهما يكن من أمر، فقد استمسكوا بلا شك بالبر الذاتى فى تقاليدهم وتصرفاتهم.

وبينما كان الفريسيون جماعة من العلمانيين الغيورين ، عاشوا وعملوا فى اورشليم وما جاورها من مدن ، فإن الصدوقيين كانوا فئة ارستقراطية كهنوتية من ذوى الاملاك ، محافظين بالطبيعة فى آرائهم ونظراتهم، مستمسكين بالناموس دون سواه، ونبذوا التقاليد والأحكام التى اجتهد فى استنباطها فقهاء الشريعة وأشياخ الدين، مما حسبوه « توراة » غير مسطورة . كذلك نبذوا الآراء الدخيلة التى حفلت بها اسفار الابوكريفا غير القانونية، ولم يؤمنوا بقيامة الاجساد . ولم يكن لهم فى جماهير الشعب إلا ضئيل الأثر ، وذلك لأن الجماهير العادية لجأت إلى الفريسيين الذين استأثروا بعواطف الشعب ، اما

الجماهير التى تشبعت بالحماس الوطنى، فقد مالت اما إلى الهرادسة لتوطيد حكم هيرودس، أو إلى الغيورين المناضلين فوق تلال الجليل الشمالية ، وهم الذين آلوا على أنفسهم خلع النير الرومانى بالقوة والعنف .

وفئة قليلة من الناس قطعوا انفسهم كلية عن العالم وشئونه ، وتسحبوا من مفاسده وشروره، واعتزلوا فى البرية شرق نهر الأردن ، أو فى القرى تأهباً لمجىء المسّيا ، واولئك هم الاسينيون. وقد تشددوا فى حفظ السبت ، وعاشوا حياة مشتركة بينهم ، ونذروا العزوبة ، وصاموا وصلوا ، واتخذوا ممارسات التطهير ، ورفضوا حمل السلاح أو الاندماج فى الحياة فى أى وضع من اوضاعها.

وفى أواخر القرن الأول بعد الميلاد صار جماعة قليلة تلاميذ يسوع الناصرى ، كطائفة من طوائف اليهودية فى بادىء الأمر . وسيجىء الحديث عنهم عند الكلام عن المسيحية .

العصر الرومانى

خضعت فلسطين للرومان تحت حكم بومبى سنة ٦٣ ق . م . وألحقت بولاية سورية الرومانية . ومن ذلك العهد حتى سقوط أورشليم سنة ٧٠ ب.م. قوى الرجاء فى مجىء المسيا (المسيح) ، واشرأبت أعناق الشعب وزاد توقه لتحقيق هذا الوعد . وكان لهذا الانتظار المشبع بنفاد الصبر أثره فى حالة القلق والاضطراب التى سادت تلك الفترة من التاريخ . ومع أن القوم قد استاءوا من حكم الرومان واستنكروه ، فإن قيصر رومية نفسه كان فى أول الأمر شخصية موقرة بسبب حسن معاملته لليهود فى ارجاء الإمبراطورية الرومانية. على أن تعيين «انتيابتر الأدومى» حاكماً محلياً، وبعده هيرودس الكبير (٣٧ ق . م — ٤ ب . م) بعد موت قيصر — قد أثار غضب اليهود وحقدهم الشديد . ولم تهدأ ثائرتهم بعد أن حكم أولاده — ارخيلاوس

وفيلبس وانتيباس على اليهودية ، وبعدهم اغريباس حفيد هيرودس الكبير .
ومع أن ولده — وقد سمّي على اسمه — مُنح لقب ملك ، فإن الموقف لم يتغير .
واخيراً خضعت اليهودية لحكم الولاة الموفدين من قبل رومية ،وبينهم بيلاطس البنطي الذى خلّد التاريخ اسمه لمساهمته فى صلب المسيح . وقد عملت سياسته المتأرجحة — كما بدا ذلك فى أثناء محاكمة المسيح كما جاء فى الأنجيل — على تفاقم الموقف وشدة الاضطراب ، وانتهى الأمر بسقوطه . ولم يفلح خلفاؤه فى ازالة أسباب القلق والتوتر ، حتى حلّت الضربة القاصمة ،وثارت الحرب ضد رومية سنة ٦٦ ب. م فاضطر الرومان سنة ٧٠ ب . م إلى تدمير أورشليم ، والقضاء نهائياً على الكيان اليهودى فى فلسطين .

يهودية الاحبار الربيين

بعد خراب أورشليم انتهت عبادة الهيكل وذبائحه وكهنوته ، وانحلّت الاحزاب — الصدوقيون والغيورون والهرادسة والاسينيون . أما الفريسيون فقد ظلوا أحياء ، فما كانوا حزباً سياسياً ولا طائفة دينية ، وكانت علة وجودهم ومدار اهتمامهم شرح الناموس غير المكتوب، بما تضمنه من أحكام وقواعد لا تقع تحت حصر . أما الكتبة فكانوا فقهاء الشريعة ، وأكثرهم فريسيون ، لذلك لم يتورطوا فى المشاكل السياسية ، وكثيرون منهم لاذوا بالفرار إلى اللدّ وجامينا. وفى اللدّ انشئت مدرسة زاهرة للكتبة تحت اشراف « التقليديين » أو « المعلمين » (الربيين) ، أمثال الحبر أليعازر ،والحبر عقيبه.
أما فى « جامينا » المدينة الساحلية ، فقد انشأ الحبر يوحنان بن زكاى « داراً للعلم » . وكان هذا من جهابذة رجال الشرع ، ومن تلاميذ « هلايل » رئيس مدرسة شهيرة للربيين فى أورشليم من سنة ٦٠ ق . م . إلى سنة ١٠ ب . م

وكان « هلليل » هذا قد رحل من أورشليم إلى بابل ، واتسع آفاق

تفكيره ، وجاهد فى أن تكون الشرائع وفق الظروف المتغيرة ، وحاجات الشعب ومطالبه ، وأن تتمشى مع أحكام الاسفار المقدسة . وكان فى هذا الموقف يناقض زميله المحافظ المتزمت « شمعى » . وقد ظل الجدل محتدماً بين المدرستين إلى مابعد سقوط أورشليم . وبعدها فاز أنصار « هلايل » بالغلبة وتضاءلت نظريات « شمعى » ، وكان الفضل فى ذلك راجعاً إلى نفوذ « يوحنان بن زكاى » وسعة سلطانه، إذ وقف إلى جانبهم يناصرهم . وبعد أن صار زعيم الفريسيين المتحررين أنصار الاراء التقدمية ، حاول أن يصون ممارسات الناموس التى امكن تنفيذها (مثل حفظ السبت والختان والاجراءات المنزلية الطقسية) ، وأن يكيّف أحكام اليهودية وفق مقتضيات الزمن والظروف المتغيرة بعد توقف عبادة الهيكل. وغدت عقيدة القيامة من الأموات من العقائد الصحيحة المسلّم بها وفق أحكام التوراة . من ثمَّ حُسب الصدوقيون الذين ينكرونها من الهراطقة الملحدين . وقد ثارت أيضاً مناقشات حامية بين مدرستى شمعى وهلليل حول صلاحية سفرى الجامعة ونشيد الانشاد للاندماج ضمن اسفار الكتاب المقدس القانونية ، وقد تم الفوز لانصار هلليل، وحُسب السفران من الاسفار القانونية ، ومثلهما سفرا الامثال واستير. أما سفر « حكمة يشوع بن سيراخ » والكتابات المقدسة اللاحقة، فقد حسبت غير قانونية .

وعوضاً عن مجمع السنهدريم الذى انقضى أجله بعد سقوط أورشليم ، انشئت محكمة خاصة يرأسها « بطريرك » ، اعترف به الرومان رئيساً أعلى للجماعات اليهودية المشتتة . وتحت اشراف هذه المحكمة استمرت مدرسة جامينا فى تنسيق وشرح الأسفار المقدسة والتقاليد . وقد كانت هناك مواد مبعثرة وتعليقات شفوية متواترة على التوراة ، تعالج الطقوس الدينية والقانونية وتنظم الحياة اليومية . وقد تم جمع هذه كلها وتبويبها وتنسيقها باللغة العبرية الفصحى .

المشنا :

«المشنا» كلمة معناها «تكرار»، وهى تشمل كل تعاليم وتعليقات وتفسيرات الربيين أى تفسير الأسفار المقدسة، وأحكام الناموس غير المسطور المستنبطة منها، والقواعد المفصلة الدينية والأدبية التى تنظم الحياة كلها بأدق التفاصيل وأكثرها اسهاباً. وقد كان لكل مدرسة «المشنا» الخاصة بها، إلى أن جاء بطريرك اليهودية الفلسطينية يهوذا الأول (١٦٤ — ٢١٧ ب. م) ونسق المواد غير المتجانسة تحت ستة أبواب فى نحو ستين فرعاً. وقد ظفرت هذه « المشنا الكبرى » بسلطان قوى، لا فى فلسطين فقط، بل فى بابل أيضاً، بحيث صارت قانوناً رسمياً لليهود، لا يفضلها إلا التوراة، وهى تعالج أدق تفاصيل الحياة اليهودية، كما وضعها فقهاء الشرع وعلماء الناموس.

التلمود :

وحدث بعد ذلك اجتهاد آخر أسموه « تكلة » أو « بحثاً »، فيه جمع فقهاء بابل وعلماؤها كل القواعد والممارسات الدينية والقانونية باللغة الآرامية والعبرية، التى لم يسبق تدوينها، وأضافوها إلى «المشنا» لتكوّن معا «التلمود» اليهودى. واللفظة « تلمود » مشتقة من لفظة عبرية « Lamad » ومعناها « يتعلم » أو يعلّم. وبدأ العمل فى التلمود فى مدينة طبرية فى مدرسة يوحنان الذى توفى سنة ٢٧٩ ب. م. على أنه لم يفرغ منه إلا فى القرن الرابع. وفى الوقت عينه جمع الحبر « أشى » (٣٥٢ — ٤٢٧ ب. م) وتبعه الحبر « رابينا » (٤٩٩ م) تلموداً ثانياً باللغة الآرامية، بمقتبسات عبرية نقلها عن قدامى علماء الشرع، ليصحح بها بعض الأخطاء فى النسخة الفلسطينية. وهو فى وضعه الحالى يعادل أربعة أمثال التلمود الفلسطينى، من حيث حجمه ومحتوياته، وذلك لأنه يشتمل على ٢٩٤٧ صفحة. وقد كان لهذا التلمود أثر بالغ على اليهودية فى كل تاريخها، وكان بمثابة مرساة تشبث بها القوم فى تجاربهم وضيقاتهم التى عانوها.

وفى القرن السابع الميلادى ، هبّت عاصفة اضطهاد اليهود من بيزنطة فى الشرق إلى أسبانيا فى الغرب . وإذ ينتشر اليهود فى أنحاء أوربا ، يتفاقم العداء بينهم وبين المسيحيين . وفى ما بين النهرين يضطر اليهود إلى الهجرة إلى شمال أفريقية ، وإلى أسبانيا فى القرنين العاشر والحادى عشر ، إبان انتصار العرب وفتوحاتهم فى تلك الأصقاع ،وقد حملوا معهم العلوم غير التلمودية المتحررة من المدارس البابلية وعلوم العرب وثقافتهم . وازدهرت فى قرطبة بأسبانيا هذه العلوم اليهودية الجديدة ، وقد نبذت التقاليد وأحكام التلمود ، وحسبت العهد القديم من الكتاب المقدس المصدر الوحيد لكل المعرفة والممارسات والطقوس الدينية . وفى قرطبة ولد الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون سنة ١١٣٥ م ولكنه اضطر تحت وطأة الاضطهاد أن يهرب إلى القاهرة . وهناك حاول أن ينظم مجموعة التقاليد ، واختصر « المشنا » إلى ثلاث عشرة عقيدة أساسية ، ووضع تفسيراً عقلياً للأسفار المقدسة . وفى كتابه « مرشد الحيران » الذى كتبه أولا باللغة العربية ، ثم نقل بعد ذلك إلى اللغة العبرية القديمة ، أخضع اليهودية لأضواء الفكر الحديث والبحث العلمى ، على طريقة أرسطو فيلسوف الإغريق وابن رشد الفيلسوف العربى . وإن يكن هذا التصرف قد أثار عاصفة من الجدل المرير الطويل بينه وبين المحافظين على نصوص التلمود ، فان حركته بلا شك ، كانت أبرز المحاولات وأبعدها أثراً من جانب العلماء اليهود لمواجهة التحديات العقلية والفكرية التى برزت فى عالم الفكر الإنسانى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

الكبالا : The Kabbala

واليهودية عامة لم تبدِ ميلا للتصوف ولا للفلسفة العقلية . وقبل القرن التاسع الميلادى لم يكن فى الأدب العبرانى أثر لأى تعليم صوفى . ولم تظهر الحركة

التصوفية إلا فى القرن الثالث عشر ، حيث نلمح ظواهر للبحث وراء الحكمة الخفيّة السريةوالعلوم الباطنية . والكلمة العبرية « كبّالا » (ومعناها « الذى يُسلّم ») كانت تستعمل فقط للدلالة على التقاليد المستنبطة من الأسفار المقدسة ، على أن بعض الكتّاب مثل موسى بن نحمان (١١٩٥ — ١٢٧٠) وموسى ده ليون(١٢٥٠-١٣٠٥)، قد استعملوها مقترنة بتقاليد ثيوصوفية وانطلق معناها على العقائد السرّية الخفيّة المتعلقة بذات الله وعلاقته بالعالم . وكان المفروض أن الألفاظ والأرقام الكتابية ذات معنى أعمق . على أنهم اتخذوا من مذهب العارفين[1] فكرة المخلوقات للملائكية الوسيطة ، كما اتخذوا من الأفلاطونية الحديثة العقيدة القائلة ان كل الكائنات إنما هى نابعة أو منسكبة من الله كذات مطلقة حالّ فى الكون[2] . وقالوا إن النفس البشرية كائنة قبل الوجود، وبعد سلسلة من « التجسدات » ، مقترنة بالتوبة والروحانية الصوفية تعود إلى مصدرها الإلهى فى الله . وكانوا يستعملون الرقى والتعاويذ والتمائم للحيلولة دون المرض والشرور الاخرى . وكانوا يمارسون العرافة وعلم الغيب بإلقاء القرعة ، ويسندون هذه الممارسة بشواهد من أسفار الكتاب المقدس وأحكام التلمود .

وأهم مؤلف للكبّالا « هو كتاب البهاء Zohar »، كتب باللغة الأرامية ونسب خطأ فى الطباعة إلى «سمعان بن يوهاى» أحد أحبار القرن الثانى . والواقع أنه مجموعة تمتد إلى فترة طويلة من الزمن فى وضع تفسير تصوفى روحانى لأسفار موسى الخمسة . وقد شاع وذاع هذا الكتاب بعد طرد اليهود من أسبانيا سنة ١٤٩٢ وكان أكثر المؤلفات إنتشاراً بين اليهود . وان يكن تأثيره الآن قد أخذ يتضاءل، فإنه قد لعب دوراً خطيراً كدائرة معارف شاملة لعقائده وتأملاته وخاصة إبان الاضطهاد . ومما لا شك فيه أن « الكبالا » قد ايقظت روح

---

(١) gnosticism أى الذين يعتقدون بأن الخلاص بالمعرفة دون الإيمان .

(٢) Pantheism وهو مذهب وحدة الوجود ، أى وحدة الله والكائنات، أو ألوهية الكون، يعنى أن الله هو الكائنات. ويقال عنه أحياناً المذهب الحلولى .

الصلاة والروحانية فى اليهودية ، ولـكنها شجعت فى الوقت عينه الخرافات السحرية ، وظهور فئة من الادعياء الـكذبة بأنهم المسّيا المنتظر . وفى القرن الثامن عشر ظهرت حركة جديدة تدعى « هاسيديم Hasidim » استهدفت إنهاض الدين الروحى بالتشديد على سكنى الله فى قلب الإنسان ، وفى الـكون عامة — الدين الذى يدركه المرء بالإيمان، ويكتسبه بالصلاة ومناجاة ربه ، مؤدياً به آخر الامر إلى الاندماج فى الالوهية .

يهودية العصر الحديث

وفى العصر الحديث ارتفعت الموجة المضادة للساميّة، وأحاطت باليهود فى وسط أوربا ، وكانت نذر الخطر قد بدأت فى القرن الرابع عشر وما بعده . وكان لهذه الموجة أثرها الذى لم يكن منه بد، ألا وهو خلق حالة عقلية قوامها الانعزالية والجمود. ولما أزيلت الاحرام التى فرضت عليهم، وأعيدت إلى اليهود حقوقهم وإمتيازاتهم المدنية فى القرن التاسع عشر ، انفتح الباب على مصراعيه أمام المصلحين مقتفين آثار « موسى مندلسون» (١٧٢٩ – ١٧٨٦) ، وتواقين إلى تحرير اليهودية من أسر التلمود ، وتجديدها وإحيائها بادخال المعرفة الحديثة وأنوار العلوم العصرية . على أن فـكرة الإصلاح حسبها المحافظون « أنانيا » وتسلطت على عقول كثيرين فـكرة القومية المتطرفة ، أى العودة إلى «أرض الميعاد». وما أن ثارت عاصفة الاضطهاد من جديد حتى أستيقظت آمال الصهيونية المـكبوتة ، وراحت تشدد فى مطالبها بشتى الطرق وأعنف الاساليب ، حتى كانت سنة ١٩٤٧ التى انشئت فيها دولة إسرائيل بكل ما خلقته هذه الدولة من مشاكل دينية، واجتماعية، وثقافية، واقتصادية، وسياسية — أقضّت مضاجع العالم العربى — وهى مشاكل آخذة فى التفاقم والتفجر عاماً بعد عام .

الإسلام (١)

مؤسس الدعوة الاسلامية

« فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل (٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى بمكة . ولد يتيماً ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلاّ خمسة جمال، وبعض نعاج وجارية ، ويروى أقل من ذلك . وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جدّه عبد المطلب، وبعد سنتين من كفالته توفى جده، فكفله من بعده عمه أبو طالب. وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلّى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد الأبوين معاً، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يُعنَ بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه ، أدب إلهى لم تجر العادة بان تزين به نفوس الأيتام من الفقراء، خصوصاً مع فقر القوّام. فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والقوم منحطون ، موحداً

---

(١) قلت فى مقدمة هذا الكتاب إنى آليت على نفسى أن أشرح الأديان كما يؤمن بها الخاصة والمثقفون من أهلها . ولم أتعرض للنقد والتعليق على عقائد الناس. ولذلك استندت فى حديثى عن الإسلام إلى مقتبسات مما قاله العلماء والأئمة والكتاب أنفسهم .

وهم وثنيون ، مُسلماً وهم مشاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون[1] . . . »

بدء الوحي :

وظلَّ محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الإثنين السابع عشر من شهر رمضان وناداه :

— اقرأ

— ما أنا بقارىء

— اقرأ

— ما أنا بقارىء

— اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم[2] .

وكانت هذه أول آيات من القرآن الكريم ، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تكلف محمدا بدعوة ، ولم تخبره برسالة ، ولم تكن إلا اعلاماً بشىء غير عادى لم يدرك محمد كنهه ، ولذلك أسرع إلى البيت خائفاً مذعوراً .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك ، وكان الرسول يترقبه فى الغار وخارج الغار ، وبعد فترة من الانتظار طالت على محمد ، ظهر له جبريل مرة أخرى ، فظهرت عليه رعدة وفزع ، وسارع إلى بيته فى حالة من الخشية ، وقال لأهله : دثرونى . دثرونى ، فدثروه . ولكن جبريل جاءه وهو فى هذه الحال وألقى إليه نداء ربه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز

---

(١) « رسالة التوحيد » للاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

(٢) سورة العلق الآيات ١ ــ ٥ .

فاهجر ، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر » ، وأدرك محمد بهذه الآيات مايراد منه ، فهبَّ ينذر الناس، وبدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد.

وبدأ محمد دعوته بمكة ولكن الدعوة تعثرت ، ووقفت قوى الشر فى طريقها ، ولكن محمداً بحث عن طريق آخر تنطلق منه دعوة الإسلام ، فهاجر إلى يثرب ، وحاولت القوة الغاشمة أن تلحق به ، وأن تحطم بالمدينة الدعوة المهاجرة من مكة ، ولكن محمداً قاوم القوة بالقوة ، وخاض معارك حاسمة مع المعتدين ، كتب له فى نهايتها النصر المبين .

الله فى الإسلام

« جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين. فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحدا ، متصفا بما دلَّت عليه آثار صنعه من الصفات العلية ، كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لايشبهه شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون. قُلْ هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والأضواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب، ولم يشتبهوا فى شىء منها، وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده[1] بما شاء من علم وسلطان ، على مايريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له فى ذلك سنَّها فى علمه الأزلى الذى لا يعتريه التبديل ، وحظر على كل ذى عقل أن لا يعترف لأحد بشىء من ذلك إلا ببرهان ينتهى فى مقدماته

---

(١) يعنى الأنبياء .

إلى حكم الحسّ ، وماجاوره من البديهيات التى لاتنقص عنه فى الوضوح ، بل قد تعلوه، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو إرتفاعهما معاً ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا . وقضى على هؤلاء كثيرهم بأنهم لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون ، وأن مايجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص وبتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة » .

(رسالة التوحيد للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده)

صفات الله فى الإسلام

قصدنا بهذا العنوان « صفات الله » أن نوضح أن ذات الله توصف ولا تدرك ، فالله سبحانه وتعالى خالق الكون ، وطبيعة الخالق مخالفة لطبيعة المخلوق ، كما يختلف النجار عن الباب الذى يصنعه ، وعلى هذا يرشد القرآن إلى معرفة الله بآثاره الدالة على صفاته ، وكمال جلاله وجماله ، وتنزهه عن المماثلة لخلقه ،أو الاتحاد ، أو الحلول فى شىء مما خلق ، وأوصد أمامه باب التطلع إلى معرفة حقيقته وذاته وصرفه عن محاولة التفكير فى هذا الباب . . . والعجز عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله ، وهو نفسه برهان على سمو الالوهية الحقة عن الدخول فى دائرة التفكير العقلى المحدود بطبيعته ، والذى لا يجد مجالا لتخطى ما وراء الكون[1] .

ويقول الإمام الأكبر محمد عبده ان النظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية، ويفضى للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ... وأما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة، وهو ممتنع على العقل

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت / الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٠

البشرى ، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ، ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاول إلى ما لم تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة لأنه يؤدى إلى الخبط فى الاعتقاد ، ولأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصر.[١]

وقد قال القرآن الكريم موضحاً ذلك المعنى « ليس كمثله شئ »[٢] وقال « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[٣] . وقال « ولا يحيطون به علماً »[٤] . وقد قال النبي محمد « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » . وقال أيضاً « تفكروا فى كل شىء ولا تفكروا فى ذات الله » .

أما صفات الله كما يراها الإسلام فإن مصدرها القرآن الكريم ، وهى فى مجموعها تصور الكمال المطلق ، وليس للمسلم أن يناجى ربه باسم أو صفة لم يضعه الله لنفسه ، فهو أعلم بما يدل على ذاته وآثاره وصفاته[٥] وإليك آيات من القرآن الكريم تحمل بعض صفات الله :

— بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين[٦] — ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها[٧] .

— تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا اله إلا هو إليه المصير[٨] .

— يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[٩] .

---

(١) رسالة التوحيد صفحة ٤٨ — ٤٩ . (٢) سورة الشورى الآية ١١ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٣ . (٤) سورة طه الآية ١١٠ .
(٥) الشيخ محمود شلتوت / الإسلام عقيدة وشريعة ص ١٩ .
(٦) سورة الفاتحة الآية ١ — ٤ . (٧) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .
(٨) سورة غافر الآية ٢ — ٣ . (٩) سورة غافر الآية ١٩ .

— هو الله الذى لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشكرون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبِّح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (١) .

— إن بطش ربك لشديد ، انه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد فعال لما يريد (٢) .

— وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، ويوم يقول كن فيكون ، قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير (٣) .

— سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوّى ، والذى قدّر فهدى ، والذى أخرج المرعى (٤) .

— ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم (٥) .

[مقارنة الأديان ــ الإسلام ــ للدكتور أحمد شلبى صفحة ٨٨]

عبادات الإسلام

عبادات الإسلام تنحصر فى أربعة أنواع : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج .

والصلوات المفروضة خمس صلوات فى اليوم والليلة : هى صلاة الصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء .

وهناك صلاة أخرى تسمى فرض كفاية، أى أن أداءها من بعض المسلمين يعفى الآخرين من القيام بها ، وهى صلاة الجنازة .

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٢ ــ ٢٤ . (٢) سورة البروج الآية ١٢ — ١٦ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٧٣ . (٤) سورة الأعلى الآية ١ — ٦ .
(٥) سورة السجدة الآية ٦ .

وهناك صلوات مندوبة كصلاة العيدين والنوافل. ولا بد من الطهارة قبل الصلاة ، وهى تقضى بالاستحمام عند حدوث مضاجعة جنسية ،أو بالوضوء فقط فى غير هذه الحالة .

والزكاة خمسة أنواع هى: النقد (الذهب والفضة)، وعروض التجارة والسوائم والزروع والثمار. ويشترط لوجوب الزكاة فى كل من هذه الأنواع أن يصل المال إلى مقدار معين جعله الشارع دليلا على الغنى واليسار . فإذا لم يصل المال إلى هذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه . ويشترط كذلك الحول والنماء ، وأن تكون الماشية سائمة، وأن تبلغ الزروع حدّ قوتها ، وأن تطيب الثمار ويبدو صلاحها .

والصوم هو الإمتناع عن الأكل والشرب والاختلاط الجنسى من الفجر إلى غروب الشمس . وهو فرض خلال شهر رمضان على المسلم البالغ القادر الذى ليس له عذر شرعى، كالمرض أو السفر أو الشيخوخة أو حيض المرأة أو نفاسها .

والحج هو قصد البيت الحرام بمكة للعبادة فى وقت معين ، هو شهر ذى الحجة ، على أن يتم الوقوف بعرفة فى التاسع من هذا الشهر ، وينتهى الحج بالطواف حول بيت الله الحرام بمكة . ويجب الحج مرة فى العمر .

وكثيراً ما تخفف هذه العبادات، وكثيراً ما تسقط على النحو الواضح فى كتب الفقه . فالصلاة للمريض يمكن أن تؤدى وهو قاعد أو وهو مضطجع ، ويمكن أن تؤدى حتى بإيماءات خفيفة أو برمش العين . فالمقصود فقط أن يظل المسلم على صلة بربه فى صحته ومرضه ، وتُجمع الصلاة وتقصر للمسافر، وتسقط على الحائض والنفساء .

ولا تجب الزكاة إلا على القادر الذى وجد عنده النصاب ، ولا يعتبر النصاب كاملا إلا بعد تقدير إسقاط الديون . ويرى بعض العلماء أن الزكاة

لاتجب على الغنى إلا فيما فضل عن حاجته وحاجة مَن ينفق عليهم.

ويؤجل الصوم فى حالة المرض والسفر والحيض والنفاس ، وتستبدل به كفارة فى حالة الشيخوخة .

ولا يجب الحج إلا على القادر عليه ، من حيث الصحة والتكاليف وأمن الطريق .

العقيدة الإسلامية فى الأخرويات

يؤمن الإسلام – كما تؤمن اليهودية المتأخرة ، والمسيحية ، وكما يؤمن أتباع زرادشت – بالحياة الأخرى بعد الموت . فالمؤمن يذهب بعد موته إلى فردوس ، وصفته الأحاديث بمصطلحات دنيوية ، فيه من اللذات والمتع ما تشتهيه النفس، ومعاينة وجه الله ليلا ونهاراً . وعلى نقيض هذا الفردوس جهنم النار بأقسامها السبعة المخصصة على التوالى : للمسلمين غير المؤمنين ، واليهود ، والنصارى ، والصائبة ، والمجوس ، وعبدة الأوثان ، والمرائين – حيث يلقون عذاباً أبدياً . أما المصير الإنسانى فقد سبق تقريره ، وكتب فى لوحات خالدة ، وما قدِّر يكون . أما الأنبياء والشهداء فمصيرهم إلى الفردوس حتما ، ويفلتون من يوم الدينونة يوم يبوق رئيس الملائكة اسرافيل بالبوق ثلاث مرات .

وفى ذلك اليوم المهوب يعبر الناس على صراط أحدّ من السيف – (وهذا ما يؤمن به أيضاً دين زرادشت الفارسى) – وقبل العبور توزن الصالحات والسيئات التى أتاها الإنسان فى حياته على الأرض ، وتسلَّم نتيجة الوزن إلى يد البار اليمنى وتربط على ظهر الشرير . وبهذا يتقدم كل منهم إلى مصيره الأبدى عن طريق « الصراط » أو (للعبر) . والذين قدّر لهم فردوس النعيم

---

(١) مقارنة الأديان — للدكتور أحمد شلبى .

يعبرون سالمين، وأما المقدّر لهم نار جهنم، فيسقطون فى الحفرة وبئس المصير . ويقال إن عيسى (يسوع) مصحوباً بإمام يسمى « المهدى » سيقدّم الإسلام ديناً عالمياً ، والذين آمنوا بالرسول ودعوته ينجون من نار جهنم، وينعمون بفردوس النعيم .

الحديث الإسلامى

لما اتسع الإسلام ، وامتدت حركته إلى كثير من الأرجاء ، أحسّ قوم أن أحكام القرآن لم تعد كافية لمواجهة الحاجات المتزايدة فى عالم جديد . وقد كان النبى العربى مصدر الوحى فى حياته ، وكان المرشد والمشير ، الذى اتجهت إليه الأنظار والأفكار . وقد حدث بعد موته أن جمعت أقواله فى شتى الشئون ، ونسقّت تنسيقاً مبوباً وسمّيت « الحديث » ، وغدت تلك الأحاديث أساساً ومرجعاً سمّيت « السنة »، التى فرض على المسلمين أن يراعوها ويعيشوا على مقتضاها . على أن الأحاديث التى جمعت على هذا النحو تكاثر عددها ، بحيث اضطر العلماء والفقهاء أن يضعوا لها حدوداً ويخضعوها للبحث والدرس ، وقد قبلوا منها ما حسبوه صحيحاً متواتراً منقولا عن الصحابة على لسان النبى .

وقد صنفت هذه الأحاديث فى كتب الفقة والشريعة ، وكان أول من جمعها مالك بن أنس (سنة ٧٩٥م) ، على أنه فى القرن التاسع الميلادى صنفت مجموعة صحيحة قام بها محام فارسى يدعى « البخارى » ، وقد احتوت ٣٠٠٠ حديث ثبت صدقها وصحة إسنادها من بين ٦٠٠,٠٠٠ حديث . وهذه المجموعة التى سمّيت « صحيح البخارى » ارتفعت إلى مرتبة من القوة والسلطان ، لم يسبقها فيها غير القرآن، كما أن مجموعة « مسلم » (سنة ٨٧٥ م) نالت أيضاً مكانة الكرامة وحسن التقدير . وعلى مسار التاريخ ظهرت كتب أخرى تبين أن الإسلام كيّف نفسه وفق مقتضيات الظروف المتغيرة والأوساط التى حلّ بها دون الابتعاد نظرياً عن العقائد التقليدية الأصيلة . واستناداً إلى «الإجماع»

تمكن الفقهاء وأشياخ الشريعة من توطيد أركان مذاهب أربعة محافظة فى الفقه والشرع ، ووُصم بعض الحركات الإصلاحية الأخرى بالمروق والحيدة عن حدود الدين .

الشيع الاسلامية

على أن أبرز الانحرافات عن « السنّة » المحافظة ظهرت فى أثر النزاع الذى شجر بين أنصار الخليفة على بن أبى طالب الذين عُرفوا « بالشيعة » أى « حزب علىّ » ، وبين الذين تشبثوا بشرعية الخلفاء الثلاثة السابقين . وقد كان هذا الخلاف مبعث نشوء مشكلة دينية ، وذلك لأن أهل الشيعة رفضوا مبدأ « الإجماع » ، واستعاضوا عنه بعقيدة مؤداها أن الله يصطفى فى كل عصر إماماً معصوماً عن الخطأ يكون رئيس الدولة ، إما مباشرة أو عن طريق خلفه ، وفى مثل هذا الإمام يسكن « نور » محمد ، وهو من ثمّ يكون صاحب القول فى تفسير القرآن والقيّم على الشريعة . وقد تسلست خلافة على فى اثنى عشر إماماً ، اختفى آخرهم بطريقة غامضة سنة ٨٧٨ م . وقد زعم فريق كبير من أبناء الطائفة ، ممن عاشوا فى بلاد فارس — وكانت الشيعة دين الدولة منذ سنة ١٥٠٢ م — انهما يزال مختفياً فى مكان ما . وسيعود للظهور فى « نهاية العصور » تحت اسم « المهدى » ليثبت سلطان البرّ . وبينما يختلف الشيعة فيما بينهم حول عدد الأئمة وشخصياتهم ، فإن الرجاء فى عودة « حاكم البرّ » يكاد يكون عاماً شاملا ، مما جعلهم يرفعون علياً وبعض خلفائه إلى مقام الألوهية .

وقد اشتهر فرع من أهل الشيعة ، ممن يسلسلون نسبهم إلى الإمام السابع المدعو إسماعيل — فى غضون القرون الوسطى ، وأسموا أنفسهم « السفاحين » ، وقاموا بحملات دموية وحشية ، ولكن المغول خضدوا شوكتهم وأذلوا كبرياءهم فى القرن الثالث عشر . ومما يجدر ذكره أن الطائفة الإسماعيلية ليست فى جوهر كيانها من أهل الحرب والجلاد ، بدليل أن أغاخان هو الآن زعيمهم الروحى الوراثى .

ومن الحركات [illegible] الأخرى التى كان لها شأن فى تاريخ الإسلام « المعتزلة »، التى آمن أصحابها أن القرآن مكتوب باللغة العربية ، وهو من كلام الناس ، لذلك يعتبر مخلوقاً ، وليس من كلام الله الأزلى غير المخلوق، كما يؤمن أهل السنّة . وفى هذه الحالة التى وجد فيها العنصر الإنسانى ،فلن يكون القرآن بعيداً عن متناول البحث والدراسة والنقد وذهب المعتزلة أيضاً إلى أن الله ــ وهو عادل بارٌّ ــ لن يكون مصدر الشر ، ولا يقرر قضاء مسبوقاً بإدانة الخاطئين المذنبين بتقرير أفعالهم الشريرة قبل أن يقترفوها . فالإنسان مسئول عن أعماله، وسيُدان على مقتضى هذه الأعمال ، والعقل وحده هو المرشد والدليل إلى معرفة الله ، ولا يفرض على الإنسان قبولاً أعمى واستسلاماً لكل شيء دون وعى أو تفكير .

وقد كان من آثار الفكر اليونانى على العالم العربى أن أثيرت أيضاً مشكلة العلاقة بين العقل والوحى . وكان ميسوراً للمعتزلة أن يؤيدوا سلطان تفكيرهم لولا أنهم أساءوا استعمال سلطتهم فى عهد الخليفة المأمون سنة ٨٣٣ م بعد أن ضمنوا لأنفسهم اعترافاً رسمياً فى دين الدولة . وسرعان ما استعاد المحافظون من أهل السنة سلطانهم وتفوقهم ، وألفوا فى عالم سابق من علماء المعتزلة ــ هو أبو الحسن الأشعرى ــ حليفاً ونصيراً قوياً . وقد حاول هذا العالم تأويل السنة بمصطلحات عقلية ، فقال ان القرآن والحديث من أفكار الله الأزلى ، وتليت تلاوة على الأرض . ولله أفكاره التى لا تدركها الأفهام البشرية فى خلق الكافرين وإدانتهم .

هذه لمحة وجيزة عن نشوء الطوائف فى الإسلام . وخليق بنا فى هذا الصدد أن ننقل ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى كتابه « رسالة التوحيد » صفحة ٩ وما بعدها ــ قال :

« مضى النبى صلى الله عليه وسلم وهو المرجع فى الحيرة ، والسراج فى

ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدّر لهما من العمر في مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم . وما كان من خلاف قليل رد إليهما ، وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة مَن جاورهما من أهل البصر بالدين، إن كانت حاجة إلى الإستشارة . وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد . ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ولا يذهبون وراء مايفهمه ظاهر اللفظ .

« كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ماحدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله ، هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها ، وبقي القرآن قائماً على صراطه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . وفتح للناس باب لتعدى الحدود التي حدها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم . وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم ، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الإصالة منهم ، فقضيت أمور على غير مايحبون .

« وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ : يهودى أسلم وغلا في حب علي كرم الله وجهه ، حتى زعم أن الله حلّ فيه، وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة، وطمن على عثمان فنفاه ، فذهب إلى البصرة وبثّ فيها فتنته ، فأُخرج منها فذهب إلى الكوفة ونفث ما نفث من سم الفتنة ، فنفى منها فذهب إلى الشام، فلم يجد فيها مايريد ، فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته ، إلى أن كان ما كان مما ذكرناه ، ثم ظهر بمذهبه في عهد علي، فنفاه إلى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده .

« توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع

ماعقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد انصدع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة ، وأخذ الأحزاب فى تأييد آرائهم ، كلٌ ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وبانت نشأة الإختراع فى الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج فكفّروا مَن عداهم ، ثم استمرّ عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتفكيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا ، إلى أن تضعضع أمرهم بعد حروب أكلت كثيراً من المسلمين ، وانتشرت فارّتهم فى أطراف البلاد ، ولم يكفوا عن إشعال الفتن ، وبقيت منهم بقية إلى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية جزيرة العرب. وغلا الشيعة فرفعوا عليًا أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية ، أو مايقرب منه . وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد . . . .

« وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الإختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الإختيارية ، ومسألة مَن ارتكب الكبيرة ولم يتبْ . اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصرى ، واعتزله يعلّم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن — على قول — كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وإرادته ، وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان فى عمله الإرادى كأغصان الشجر فى حركاتها الاضطرارية . كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لايحفلون بالأمر ، ولا يمنون برد الناس إلى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ، ثم يذهب كل إلى ماشاء ، سوى عمر بن عبد العزيز أمر الزهرى بتدوين ماوصل إليه من الحديث . وهو أول من جمع الحديث .

« ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الإلهيــة أو نفيها عنها ، وإلى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع

الأحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلواً فى تأييد خطة القرآن)، أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى . ثم غالى آخرون وهم الأقلون ، فمحوها بالمرة ، وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب عناداً للاولين ، وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد ، كأنها مبنى من مبانى الإعتقاد الإسلامى .

« تفرقت السبل بأتباع واصل (وهم المعتزلة) ، وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تُؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل ، وما كان سرابا فى نظر الوهم، فخلطوا بمعارف الدين ما لاينطبق على أصل من أصــول النظر ، ولجُّوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين.

« وعرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس فى إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم — فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين فى شىء . وكان فيهم المانوية واليزدية ومَن لا دين له، وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الإلحاد ، وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم ، وإبطال مزاعمهم .

« فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر فى الكائنات جريا على ماسنَّه القرآن من ذلك ، وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته ، وانتصر للأول جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول أو صرح بالأزلية

عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة ، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق . وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين . . . .

«ومع إتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم، كان أمر الخلاف بينهم جللا، وكانت الأيام بينهم دولا، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض ، واستفادة كل فريق من صاحبه ، إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف ، وسطا بين موقف السلف، وتطرف مَن خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته . وكفره الحنابلة واستباحوا دمه. ونصره جماعة من أكابر العلماء كأبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين والاسفرايني وغيرهم ، وسمُّوا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة ، فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند الظواهر ، وقوة الغالين فى الجرى خلف ماتزينه الخواطر ، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين إلا فئات قليلة فى أطراف البلاد الإسلامية .

«غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى بعد تقريرهم مابنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها ، كما يجب عليه اليقين بما تؤدى إليه من عقائد الإيمان ، ذهابا منهم إلى أن عدم الدليل يؤدى إلى عدم المدلول ، ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالى والإمام الرازى ومَن أخذ مأخذهما فخالفوهم فى ذلك ، وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها ، فلا وجه للحجر فى الإستدلال » (اهـ) .

التصوف فى الاسلام

وإلى جانب هذه التطورات الفقهية والعقلية التى سبق ذكرها ، وكرد

فمل لحياة البذخ والرفاهة فى دور الخلفاء ، نهضت حركة تقشفية تحت تأثير الأفلاطونية الحديثة ، والمتجهات الفكرية الشرقية والمسيحية ، واتخذت لباساً تصوفياً ، على الرغم من أن النبى العربى لم يشجع هذا النموذج فى الممارسات الدينية، لأنه يتنافى مع مبدأ القوة والجهاد . وقد استمدت هذه الحركة الصوفية اسمها من لفظة عربية « الصوف » ، وذلك لأن أنصارها كانوا يرتدون لباساً صوفياً خشنا .

وقد لجأ أولئك المتقشفون الزاهدون — فى سبيل الحصول على الكمال الروحى ومعرفة الله — إلى ألوان من الممارسات، منها اليقظات الطويلة ، والتأمل العميق ، ونذر العزوبة . وماحل القرن الثانى عشر حتى كانت قد تأسست رتب من « الرهبانية » ، كان القوم يقومون فيها — فى حالة هيام وتجلّى — بحركات جسمانية، وهم يتلون عبارات صوفية ، ويرقصون رقصات مقدسة . وكان بينهم شحاذون متجولون — دراويش — لهم القدرة على القيام بأعمال عجيبة خارقة، مثل إطفاء النار بدخولهم فى الأفران المتقدة ، والصياح والتمايل فى رقصات هيامية وهوس دينى ، وابتلاع الفحم المحمى بالنار ، وأكل الثعابين الحيّة . على أن تصرفاتهم الشاذة ، وتفاهة شخصياتهم ، ودمامة أشكالهم ، قد جلبت عاراً على نظامهم ، وعلى الصوفية عامة.

وفيما عدا هذا الإفراط المشين ، كانت الصوفية فى أصولها أقرب الى الهدوء والدعة والخضوع منها الى الإباحية والضوضاء والتعصب . وفى عهد الإمام الغزالى (١٠٥٨— ١١١١م) الذى جمع بين فقه الشيخ أبى الحسن الأشعرى وبين الصوفية المستنيرة الحقة ، تهادنت الصوفية وتوافقت مع العقائد التقليدية فى الإسلام . على أنها بعدت عن سنة المحافظين بحيث لم تنظر إليها الدوائر الرسمية نظرة تقدير واحترام. ولئن تكن قد أدخلت عنصراً روحيا كان ناقصا ، فإنها قد راحت تنحدر حتى ضعف أثرها فى القرن الماضى .

القضاء والقدر

فى الاسلام والمسيحية

لعلّ الفيلسوف الألمانى الـكبير « عمانوئيل كانت » ما يزال صاحب الأثر الفعال فى عقول الطبقة المثقفة فى الغرب، حتى حينما لا يحسُّـون بوعيهم وادراكهم هـذا التأثير . واليوم لا يسلِّم النـاس بكثير من التفاصيل فى فلسفته ، على أن النظرة العامة حيال مشاكل الإنسان ومصيره ، التى كان هو أول من ابتـكرها وشرحها فى فلسفته ، لم تُستبـدل حتى الآن بشىء آخر على نطاق واسع . ومما هو جدير بالذكر أنه يلفت النظر فى كتابه « نقد العقـل المجرد » — وهو جوهر بحوثه الفلسفية — الى قيود العقل وحدوده ، والى ان العقل فى ذاته ، وفى مطارحاته النظرية المحض ، يصل الى نتائج ينقض بعضها بعضا ، ويخرج أدلة تثبت حقائق متعارضة . وهويسمِّى هذه البيانات المتعارضة المتناقضة « متناقضـات » . على أن التناقض فى هذه النتـائج ليس مردُّه الى بطلان الدليل أو تفاهة الحجة ، فالأدلة فى ذاتها صحيحة سليمة معقولة . ولـكن هذا التناقض يقع فيه العقل بطبيعته ، وهو أمر لا محيص عنه، بسبب خواص العقل وتركيبه .

وفى معالجة موضوع القضاء والقدر ، نرانا أمام مسألة تنطوى على هـذا التناقض الظاهر . وهى فى الواقع مثال من أمثلة « المتناقضات »، التى خاض الفيلسوف « كانت » فى بحثها وتحليلها . فعقولنا وأفـكارنا تؤكد لنا صدق عقيدتين ، ومع ذلك نجد أنفسنا عاجزين عن التوفيق بينهما . ويمكن شرح تينك الحقيقتين المتعارضتين بطرق مختلفة ، ولـكن حسبنا فى هذا البحث أن نذكر القاعدتين التاليتين :

(١) من ناحية ينبغى أن نؤمن بأن الإنسان مسئول عن أعماله وتصرفاته، فهو نفسه الذى يقوم بهذه الأعمال . وكل تصرفاته صادرة عنه ، فمن العدل أن يُثاب متى كانت أعماله صالحة، ومن العدل أن يُعاقب متى كانت شريرة .

(٢) ومن ناحية أخرى تسلِّم عقولنا وأفكارنا بأن الله قادر على كل شىء . وهو يسيطر على كل ما يحدث فى السموات وفى الأرض. وبغير إرادته تعالى لا يحدث شىء ، لا فى السماء ولا على الأرض . وهو الذى يدبر سير الحوادث ، ومن بينها تصرفات الإنسان .

وبين هاتين الحقيقتين ، أى مسئولية الإنسان وقدرة الله على كل شىء ، يبدو تناقض . فإذا أقدم انسان على قتل آخر ، فهو الذى أزهق روح هذا القتيل ، وليس الله . على أن الزعم بأن موت ذلك الإنسان لم يكن وفق إرادة الله ، إنما هو إنكار لقدرة الله على كل شىء .

وتؤمن المسيحية والإسلام بأن الله قادر على كل شىء ، وبأن البشر مسئولون عن أعمالهم . وإنا لواجدون ـ فى كلتا الديانتين ـ علماء الدين وكثرة المؤمنين قد حاولوا إيجاد توازن عادل بين هاتين الحقيقتين ، بحيث لا يغالون فى واحدة ويهملون الأخرى ، ولا يتغافلون عن واحدة ويؤكدون أخرى .

القضاء والقدر فى الاسلام :

من المسلَّم به إجماعاً لدى المسلمين ، أن الاسلام يشيد دوماً بقدرة الله على كل شىء. على أن الاعتقاد بمسئولية الانسان قد احتلت مكانة ذات شأن فى التعاليم الاسلامية لأنها متضمنة فى الاعتقاد باليوم الآخر. ذلك لأنه فى اليوم الآخر يُثاب الذين أطاعوا الله بالدخول إلى الجنة، ويعاقب الذين عصوه بالذهاب إلى النار .ومعنى هذا أن اعمال الطاعة والعصيان التى يُثاب من أجلها البشر ، إنما تصدر منهم وهى أعمالهم وتصرفاتهم التى يسالون عنها جزاءً وفاقاً . والله عادل فهو

لا يعاقب على عصيان أوامره ونواهيه، ما لم يكن هذا العصيان صادراً عن الانسان ومنسوباً اليه . وبما أن الله يعاقب الناس على عصيانهم ، فهم اذاً مسئولون عن أعمال العصيان ، لأن الله منصف عادل .

والمتكلمون بين المسلمين قد شرحوا الموضوع من حيث «القوة »، لا من حيث « حرية الارادة » . فهم قد تساءلوا: هل للبشر قوة على أعمالهم ، أم أن كل الحوادث الأرضية ـ وبينها التصرفات الانسانية ـ هي من قوة الله دون سواه . وعلى الرغم من الفارق فى المصطلحات ، فإن المشكلة هى بعينها .

وقد ذهب فريق كبير منهم الى أن للبشر قوة على أعمالهم ، وجعلوا هذا المبدأ أساساً لعقيدتهم فى هذه المسئلة ، ومن هذا خلصوا إلى النتيجة المنطقية بأن ما دخل فى قوة الإنسان ، خرج من قوة الله ، فإن كان من قوة القاتل أن يقتل غريمه ، إما اليوم ، أو غداً ، أو بعد غد ، إذاً يكون قتل الإنسان فى قوة القاتل. وإن كان القتل فى قوة القاتل، فهو إذاً ليس فى قوة الله . والذين ذهبوا هذا المذهب هم « القَدرية » الذين يمثلهم «المعتزلة» كما سبق القول. ولا عجب أن يتهمهم خصومهم بانكار قوة الله على كل شيء . فهم قد أفرطوا فى توكيد مسئولية الإنسان عن أعماله ، وغالوا فى قوته ، بحيث أغفلوا الحقيقة الأخرى المتعلقة بالقدرة الإلهية ، ولذلك حُسبوا من « أصحاب البدع » .

ووقع فريق آخر فى الخطأ المضاد، فأفرطوا فى توكيد قوة الله بحيث أنكروا على الإنسان أية قوة أو أية مسئولية ـ وأولئك هم « الجبرية » ، وأشهر الناس بينهم هم « الجهمية » ـ ومن أقوالهم : « حينما تغيب الشمس ، فالشمس لا تعمل شيئاً ، بل الله هو الذى يعمل. ويمكن القول فقط ان الشمس تعمل على المجاز. كذلك حينما يمشى الإنسان أو يجلس ، فهو لا يعمل فى الواقع شيئاً ، بل الله هو الذى يعمل ، ويمكن القول فقط ان الإنسان يعمل بطريق المجاز » . وقد هال

جمهرة المسلمين بطلان هذا الموقف فلم يأبهوا له . وذلك لأن أصحاب هذا الرأى تجاهلوا الفارق بين أعمال الخلائق البشرية ، وبين « أعمال » الجماد، مثل الشمس والحجارة. ومن ثم جعلوا الله سبحانه وتعالى ظالماً ، لأنه يجازى الناس عن أعمال لا سلطان لهم عليها ، وهم عنها لا يُلامون .

على أن جمهرة المؤمنين ومشاهير علماء الدين ـ وخاصة أبا الحسن الأشعرى وأتباعه ـ اتخذوا طريقاً وسطاً بين هذين الفريقين المتطرفين .فقالوا إن الله قادر على كل شيء ، وانه يخلق أعمال البشر ،بحيث تخضع كل الحوادث على الأرض لسلطانه وتجرى وفق إرادته . ولكنهم أكدوا فى الوقت عينه أنه حينما يأتى زيد من الناس عملا ، فان هذا العمل يُنسب حقاً وفعلا إلى مَن أتاه، ومن العدل أن يعاقب عنه إذا كان العمل عصياناً . وحين تنسب الأعمال إلى الإنسان على هذه الطريقة ، فان الأشعرية يقولون فى مصطلحاتهم إن الإنسان « كسبها » أو « اكتسبها ». وبهذه الوسيلة أبرزوا الفارق بين موقف الإنسان فى عمل جلوسه ، وبين موقف الشمس فى عمل مغيبها المزعوم . وذلك لأنهم لا يقولون عن الشمس انها كسبت أو اكتسبت مغيبها . وكثيراً ما يقال إن هذه العقيدة ، غامضة مبهمة ، ولكنها على قدر من الأهمية لأنها تبين ، إلى حد ما ، كيف أن الله يخلق أعمال الإنسان وكلها خاضعة لسلطانه ، وكيف أن الإنسان فى الوقت عينه مسئول عن أعماله ، ومن العدل أن يُثاب أو يعاقب عنها .

وعلى مقتضى نظرية الكسب هذه ، يقول أصحابها ان الله خلق فى كل إنسان فى وقت قيامه بعمل ما « الاستطاعة » ليأتى هذا العمل ، على أن هذه « الاستطاعة » إنما هى للعمل الذى يأتيه الإنسان فعلا ، وقد خلقت وقت قيامه به ، لا قبل ذلك . وفى هذه الآراء عارضوا أهل « القدَرية » الذين قالوا ان الله يخلق القوة على العمل قبل وقت أدائه ، وإن هذه القوة عينها هى للقيام بالعمل فعلا ، أو بعمل غيره ، أو بالامتناع عنه . ويستعمل أهل « القدرية » كلمة

« قدرة » أو « قوة » أو « استطاعة » . ولـكن الأشعرية يفضلون الـكلمة الأخيرة ، لأن كلمة « القدرة » تنسب إلى الانسان شيئاً هو من صفات الله .

وليس هذا كل مايؤمن به المسلمون ويعلـمون به عن مشكلة القضاء والقدر. وبينما يؤكد القرآن بأن الله مسيطر على كل أعمال البشر فى الوقت الحاضر ، فإن الأحاديث المتعلقة بهذه المسئلة تؤكد بأنه سبق وقرر فى وقت سابق بعض الجوانب الهامة فى حياة الانسان مثل رزقه وأجله وسعادته وشقائه . على أنه ليس ثمة تعارض بين هاتين الفـكرتين . فالله يخلق أعمال الانسان وقت حدوثها، ولـكن الذى يصنعه سبحانه وتعالى هو جزء من إرادته وقصده الأزليين. ولذلك يقال بحق ان الله يرتب ويقرر الحوادث قبل وقوعها ، كما يقال انه يخلقها أيضاً وقت وقوعها .

ومما هو جدير بالذكر أنه بينما أكد كبار المفـكرين المسلمين من علماء الدين ـ مثل الأشعرية والمريدية ـ قوة الله التى بها يسيطر على الحوادث فى الحاضر بخلقها ، فإن العامة قد جنحت إلى الاعتقاد بأن الله يقضى ويقرر الحوادث فى زمن سابق. وهذه حقيقة صادقة عن الله، ولـكن يمكن أن يُستنبط منها نتائج باطلة . وهذا هو الواقع فعلا . فحين تقول القروية الساذجة ، ان مرض طفلها من الله، انما تقول الحق، حتى متى يكون مردُّ المرض الى انعدام أسباب النظافة، وذلك بمعنى أن الله يرتب نتائج معينة تلحق حتما بالتصرفات البشرية . ولـكن حينما تمعن القروية فى الاستنتاج وتقول : « بما أن مرض طفلى من الله ، فمن العبث أن أذهب به الى الطبيب » ، فإن حجتها هنا باطلة سخيفة .

على أن القرآن يسفِّـه هذا الموقف فى صورة يس ، وينذر من يجنحون اليه بالعقاب فى النار . وكان ذلك ـ على قول البيضاوى ـ فى مناسبة جاء فيها هذا البيان .

« استطعم فقراء المؤمنين مشركى قريش. فقالوا : أنطعم مَن لو يشاء الله أطعمه ، ايهاماً بأن الله تعالى لما كان قادراً أن يطعمهم ولم يطعمهم ، فنحن أحق بذلك . وهذا من فرط جهالتهم، فإن الله يطعم بأسباب، منها حثُّ الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له » .

من ثمّ لا يجوز الاستناد فى الامتناع عن أداء الواجبات التى فرضها علينا الله ـ الى الزعم بأن الله قد سبق وقرر حوادث المستقبل .

القضاء والقدر فى المسيحية :

وفى المسيحية ـ كما فى الإسلام ـ أسرف بعضهم فى نظرية تقدير مسئولية الإنسان ، كما أفرط آخرون وغالوا فى نظرية قدرة الله على كل شىء ، بينما اتخذ جمهرة المؤمنين طريقاً وسطاً بين هاتين النظريتين المتطرفتين . وتقترن نظرية المغالاة فى تقدير قوة الإنسان ببدعة بلاجيوس التى ظهرت فى النصف الأول ، من القرن الخامس الميلادى . وكان بلاجيوس هـذا بريطانى الأصل ، ومن الغريب أن الشعوب الانجلوسكسونية ما فتئت معتصمة بعقيدتهـــا فى قدرة الإنسان على أن يأتى أعمالا كباراً بدون أية معونة إلهية . وكان الأمر البارز فى تعليم بلاجيوس حرية الإرادة البشرية حرية مطلقة بدون قيد ولا شرط . فالإنسان ولد حراً ، وهو قادر على أن يقاوم الخطية أو يستسلم لهـــا متى شاء . والإنسان معتمد على الله من حيث طبيعته، وما فيها من ممكنات كامنة قادرة على مقاومة الخطية، على أنه مستطيع بهذه الطبيعة أن يفعل الصواب من تلقاء نفسه ، ولو أنه مستطيع أن يفعله بأكثر يسر بمعونة الله . ولقد أنكر بلاجيوس عقيدة الخطية الأصلية ، التى تقول ان الإنسان ولد وفيه نزوع وقابلية للخطية ، كما أنكر أن لخطية آدم أى أثر فى الإنســان أكثر من مجرد كونها نموذجاً سيئاً ، وأيد إمكانية الحياة بدون خطية . وتختلف عقيدة بلاجيوس فى كثير من تفصيلاتها عن عقيدة أهل « القدَرية » فى الإسلام التى ألمحنا إليهـا . على

أن الفكرة واحدة فى العقيدتين ، وهى أن الإنسان قادر من تلقاء ذاته على أن يظفر بالحياة فى السماء جزاء أعماله الصالحة . وقد أبرز بطلان هــــذه الآراء كثيرون من الكتّاب مثل القديس أوغسطينوس ، وحكمت الكنيسة على آراء بلاجيوس بأنها بدعة وهرطقة .

وكذلك كان للعقيدة القائلة بأن الله يقرر ويقدّر حوادث التاريخ قبل وقوعها ، أنصار بين المسيحيين ممن غالوا وأفرطوا فى التمسك بهــا ـ وأشهر هؤلاء جون كالفن ، مصلح القرن السادس عشر ، وبعض أتباعه . ولقد زعم كالفن أن بعض الناس قدّرت لهم حياة النعيم ، وقدّر للبعض الآخر حياة الجحيم .

واستنتج بعض أتباعه من هذا الزعم أن بعض الناس لا أمل لهم فى دخول الجنة مادام قدّر لهم أن يكونوا فى النار . على أن أكثر أتباع كالفن فى العصر الحديث يرفضون قبول هذه الفكرة .

ويتخذ كثرة المسيحيين طريقاً وسطاً . فهم يعترفون بقدرة الله على كل شىء ، وإن كانوا ينسونها أحياناً . ويعتقدون أن الإنسان مسئول عن أعماله ، ولكنهم يعترفون أن الإنسان ضعيف ولا يقدر أن يبلغ ما يجاهد فى سبيله . وفى الوقت عينه يؤمنون أن الله بفضل نعمته وإرشاده ، يهيىء للانسان السبيل ليفعل ما يعجز عن فعله بمجرد قواه الطبيعية . واختبارهم العملى يدّعم هذا الإيمان .

ومن ثم نرى المسيحية والإسلام يتفقان اتفاقاً عاماً فى هذه العقيدة حسبما تمليه عليهم أسفارهم المقدسة ، وتعاليم كبار مفكريهم ، وأصحاب العقول الراجحة بينهم ، فالله قادر على كل شىء ، ومع ذلك فالإنسان مسئول عن أعماله . ومن خطل الرأى أن نغالى فى إحدى هاتين الفكرتين على حساب الأخرى . هذا

هو موقف نخبة جماعة المفكرين وصفوة العقلاء فى الديانتين . على أن موقف العامة ـ وبعض المفكرين أيضاً ـ يختلف بعض الشيء. ففى الإسلام يميل تفكير عامة الشعب إلى المغالاة فى قوة الله ، وإغفال فكرة « استطاعة » الإنسان . وفى المسيحية ـ من الجهة الأخرى ـ يميل تفكير العامة إلى المغالاة فى تقدير قوة الإنسان ونسيان قدرة الله على كل شيء . وهذا الميل الذى يبدو فى عامة الشعب فى الديانتين هو الذى يبرر الفكرة السائدة عند أهل الغرب ، بأن الإسلام هو دين القضاء والقدر ، وأن المسيحية هى دين حرية الإرادة .

ونلاحظ مما تقدم فارقاً آخر . ففى الإسلام نرى موضوع عدل الله ، والعلاقة بين العقاب العادل وبين المسئولية — من أمهات المسائل التى حفلت بها عقول الناس . ولم يغفل المسيحيون هذا الأمر ، ولكنهم عنُوا أشد العناية بموضوع آخر : وهو مدى قوة الإنسان على أن يحيا حياة صالحة طيبة ، وهل فى وسع مَن هبطوا إلى أحط دركات الشرّ والاثم أن يتغيروا ويصيروا فضلاء صالحين ، وهل يقدر الإنسان الذى قضى حياته أنانياً مؤثراً نفسه على غيره أن يتغيَّر فى سن الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين ، ويغدو باذلا مضحياً ، مؤثراً غيره على نفسه . وهل يقدر مَن كانت شيمته القسوة أن ينقلب ليصير مُشفقاً ليناً عطوفاً . وهل يقدر مَن أدمن الخمر سنوات طوالا، وألف غشيان مواخير الدعارة والفسق ـ أن يحطّم هذه القوة التى كبَّلته بها عاداته الشريرة ويصلح أخلاقه ، ويقلع عن معاقرة الخمر ، ويبتعد عن كل علاقة جنسية مع غير حليلته . .

وقد أجاب الكثرة الساحقة من المسيحيين على هذه الأسئلة بقولهم : ان هذه الأشياء غير مستطاعة لدى الإنسان بمحض قوته ، ولكن غير المستطاع للانسان ، مستطاع لله . والله قادر على أن يغيِّر الطبيعة البشرية التى خلقها ويصلحها ويجددها . وهو قادر على أن يمنح الإنسان قوة لكى يبلغ

الأهداف التي لن يقدر أن يبلغها بدون هـذه القوة ـ وهى أن يكون باذلا مضحياً ، مشفقاً رحيماً ، صاحياً رزيناً ، طاهراً عفيفاً . والله ليس قادراً على أن يصنع هـذا وحسب ، بل قد صنعه فعلا فى حياة ألوف ، وربما ملايين من الناس .

وأحياناً يكون الله البادىء ، ويتمُّ التغيير فى الشخص ضد إرادته . ولـكن المألوف أن الله لا يعين الإنسان بنعمته وعونه مالم يرغب الإنسان بملء قلبه فى تغيير أخلاقه وطريقة حياته ، ويلتمس إلى الله فى دعائه أن يغيّر حياته ويصلحها . وعندئذ يجد الإنسان نفسه مزوداً بالقوة والفهم لـكى يهجر حياته الشريرة الآثمة ، مثل انقطاعه عن عشرة الذين شجّعوه على الشر بأقوالهم ومثالهم، وميله إلى معاشرة الأخيار الصالحين، والاستمرار على الصلاة بانتظام ، وانفاق وقته فى التأمل بالحقائق المتضمنة فى الأسفار المقدسة .

وهذا هو الخطوة الأولى فقط فى سير العملية . فالشر أشبه بشجرة كانت تنمو فى قلب الإنسان مدى سـنوات كثيرة، حتى تأصلت جذورها، وكبرت وتعاقدت أغصانها، وعزمه على نبذ حياته السابقة أشبه بقطع هـذه الشجرة . فالجذع والأغصان والأوراق قد ذهبت . ولـكن الجذور باقية تكمن فيهـا الحياة . وإذا لم يُعن الإنسان بأمره ، تنبت هـذه الجذور جذعاً وأغصاناً جديدة . وفى الوقت عينه تشبه رغبته — فى أن يحبّ الله ويخدمه — شجيرة غضة زرعت فى قلب الإنسان . وعلى مرّ الزمن تنمو وتـكبر أكثر من شجرة الشر ، ولـكن هذا يستغرق سنوات طوالا ينبغى أن يتعهدها فى خلالها بالسقى بانتظام . وما السقى هنا إلا الصلاة والعبادة العامة .

المشكلة فى هذا العصر :

وفى الشرق والغرب اليوم ، نرى كثيرين من المسلمين والمسيحيين يتخذون

فى هذه المسائل التى أسلفنا موقف كبار المفكرين والكتّاب فى الإسلام والمسيحية. على أننا نرى فى الشرق والغرب على السواء، فريقاً من الناس — ولو أنهم يدعون أنفسهم مسلمين ومسيحيين — يجنحون إلى الاعتصام بالآراء العالمية، لا الآراء الدينية. وهنا نرى اتجاهين من التفكير :

فهناك أولا موقف أحرار الفكر، وهو موقف الذين يرفعون شأن قوة الإنسان وقدرته للسيطرة على سير الحوادث فى هذا العالم. وهم يفكرون فى مظاهر التقدم العلمى، والكشوف التى ظفر بها القرن أو القرنان الأخيران، والقوى الكثيرة التى أخضعها الإنسان لسلطانه من بخار وكهرباء وبترول وطاقة ذرية، وكافة المنافع والخدمات التى سخّر لها هذه القوى لرفع مستوى معيشته، مثل الآلات فى المصانع، والسيارات فى الطرقات، والنور فى المنازل . . . يفكرون فى أسباب التقدم والارتقاء الكثيرة المتزايدة ويتوهمون أن لا حد لما يقدر أن يبلغه الإنسان. يقولون ان الإنسان بلغ فى هذا العصر حداً بعيداً فى التسلط على قوى الطبيعة، وإذا اتخذنا التقدم الحديث مقياساً، جاز لنا القول انه فى سنوات قلال، أو فى عشرات من السنين، سيخضع كل حادث فى الأرض للعقل البشرى خضوعاً تاماً لخير الجنس البشرى.

هكذا يحاجّون ويجادلون فى حماقتهم، لأنهم ينسون أن «الإنسان يدبر والله يقدّر». وهذا قول حقٌّ اليوم، كما هو حق منذ الأزل. فعلى الرغم من أساليب الدعاية الحديثة، لا يمكن التسلط على قلب الإنسان تسلطاً تاماً. وليس ثمة دليل على أن الإنسان قد اقترب من حلٍّ لمشكلة القضاء على الحرب والفقر والجوع. ويقول الخبراء ان الجنس البشرى يتزايد بنسبة تزيد عن موارد الأغذية فى العالم. وقد تمكن الأطباء والجراحون من إطالة الحياة، ولكنهم عجزوا عن إنقاذ الناس من الموت. والحوادث والنكبات التى تقضى على الناس آخذة فى الزيادة، لا النقصان. وقصارى القول ان بعض الناس يفكرون فى أن الإنسان قد غدا إلهاً

بفضل القوى العظمى التى ظفر بها الجنس البشرى . ولكن الأمر غير ذلك . وحتى إن ظفر الإنسان بقوى أعظم فى المستقبل ، فإن الأمر يبقى غير ما يتوهمون. وخير للبشرية كلها وأبقى ، أن يعرف الإنسان قدره تماماً ، ومكانته الصحيحة فى هذا العالم .

وثانياً : هناك الاتجاه الآخر ، الاتجاه المادى ، وهو موقف الذين يقولون ان كل تصرفات الخلائق البشرية ، وكل حوادث التاريخ البشرى — إنما تخضع للنواميس المادية ، أى النواميس الطبيعية والكيماوية والبيولوجية والسيكولوجية التى كشفها العلماء ، والنواميس الاقتصادية التى كشفها علماء الإقتصاد وعلماء الإجتماع .

وفى هذا كثير من الحق . وأكثر الفلاسفة فى القرون الثلاثة الأخيرة قد غالوا فى تقدير قوة عقل الإنسان ومدى سيطرته على أعماله وأفكاره ، وتغافلوا عن الأساس المادى فى الحياة الإنسانية . وليس من ينكر أن جسد الإنسان مادى وطعامه وكساءه ماديان . ولكن التسليم بهذا منطو على أن النشاط البشرى مادىٌّ فى بعض نواحيه دون البعض الآخر . وشتان بين القول ان عملا ما يخضع فى بعض نواحيه للنواميس المادية ، والقول انه خاضع بكليته وجملته لهذه النواميس .

ولإيضاح هذه النقطة لنأخذ ، مثلا ، فكر مفكر عظيم مثل الإمام الغزالى . وما من شك فى أن فكره كان خاضعاً لعوامل خاصة من حيث أنه ولد فى طوس ، وعاش ردحا من الزمن فى بغداد ، ثم فى سورية ، وهكذا ، وأيضاً من حيث تركيبه الجسمانى . والآن لنفرض أنه قد توافرت لدينا كل هذه البيانات العلمية الكافية عن ظروف حياته الخارجية ، وعن دماغه ، وغدده ، وأعضائه المضمية ، وهكذا — نقول حتى لو تكاملت لدينا كل هذه البيانات

فإننا عاجزون عن أن نفهم النظريات العقلية التى تعلق بها ، والتعاليم الدينية التى شرحها . ولكى نفهم هذه ، ينبغى أن نقرأ كتبه ومؤلفاته . وبهذه الطريقة دون غيرها ، نقدر عظمته وعلو كعبه كمفكر .

وكلمة أخيرة . لنشكر الله من أجل المعرفة الصحيحة المتزايدة التى استنار بها الجنس البشرى، لأن هذا فى الواقع هو مزيد من معرفة أعمال الله فى خلق العالم وما فيه ، ولندرك أن النواميس الطبيعية والإقتصادية إنما هى الأسباب التى بمقتضاها يسيطر الله على حوادث التاريخ وعلى حياة البشر ، ولنقدر أجمل تقدير فضل الله فى إعطاء الإنسان قوة بها يغير أخلاقه من الشر والإثم إلى الخير والبر، ولنعتمد على معونته فى إصلاح حياتنا وعاداتنا . ومهما بلغنا نحن الخلائق البشرية من معرفة متزايدة ، ومن السيطرة على الطبيعة وعلى قلوبنا، فلنذكر دوماً أن هذا هو عالم الله وليس عالمنا ، وأنه هو المتصرف الأعلى ، والمدبر الأكبر، لكل الحوادث الأرضية فى هذا الكون الذى صنعه .

عقيدة أهل الإسلام

ولعلّ خير مانختم به بحثنا عن الإسلام خلاصة للعقيدة، كما كتبها الشيخ الأكبر محيي الدين العربي[1]

قال الشيخ الإمام العالم العامل محيي الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن العربي: هذه رسالة تتضمن ماينبغي أن يعتقد في العموم وهي عقيدة أهل الإسلام، مسلّمة من غير نظر إلى دليل ولا إلى برهان. فيا أخوتي المؤمنين ختم الله لنا ولكم بالحسنى، لما سمعت قوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام حين قال لقومه للمكذبين به وبرسالته: إني أشهد الله واشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه. فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والاقرار بأحديته، لما علم عليه السلام أن يستوقف عباده بين يديه ويسألهم عما هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدي كل شاهد شهادته. وقد ورد أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس وكل من سمعه. ولهذا يُدبر الشيطان عند الآذان وله حصاص، وفي رواية وله ضراط. وذلك حتى لايسمع نداء المؤذن بالشهادة، فيلزم أن يشهد له فتكون تلك الشهادة له من جملة مَن يسعى في سعادة المشهود له. وهو عدو محض ليس له الينا خير البتة. وإذا كان العدو لابد أن يشهد لك بما أشهدته على نفسك، فأحرى أن يشهد لك وليُّك وحبيبك مَن هو على دينك وملتك، وأحرى أن تشهده أنت على نفسك بالوحدانية والإيمان في دار الدنيا. فيا اخواني ويا أحبائي رضي الله عنكم، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف

---

(١) نقلا عن كتاب (الهدية السعدية)، وهو مجموعة ست رسائل لبعض علماء الإسلام طبعت بمطبعة النجاح، لصاحبها محمد حسين الترزي.

هذا الكتاب ومنشؤه ، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين ومن سمعه ، أن يشهد قولا وعقدا أن الله تعالى إله واحد لاثانى له فى ألوهيته ، منزه عن الصاحبة والولد ' لاشريك له ، ملك لا وزير له، صانع لامدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده ، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى فى وجوده ، والعالم كله موجود به ، وهو أوجده وهو متصف بالوجود لنفسه . لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه ، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيز فيقدَّر له المكان ، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ، ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء ، مقدس عن الجهات والأقطار ، مرئى بالقلوب والأبصار ، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله ' وعلى المعنى الذى أراده ، كما أن العرش وما سواه به استوى وله الآخرة والأولى ، ليس له مثل معقول ولا دلَّت عليه العقول، لا يحده زمان ولا يقله مكان ، بل كان ولا مكان وهو على ماعليه كان . خلق المتمكن والمكان ،وأنشأ الزمان وقال أنا الواحد الحىّ لا يؤده حفظ المخلوقات ، ولا يرجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعه المصنوعات. تعالى أن يحله الحوادث ،أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها ، بل يقال كان ولاشىء معه . فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذى أبدعه ، فهو القيوم الذى لاينام ، والقهار الذى لايرام . ليس كمثله شىء . خلق العرش وجعله حد الاستواء.وأنشأ الكرسى وأوسعه للأرض والسموات. العلى اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتباً بعلمه فى خلقه إلى يوم الفصل والقضاء . أبدع العالم كله على غير مثال ، سبق وخلق الخلق ، وأخلق الذى خلق . أنزل الأرواح فى الأشباح أمناً ، وجعل هذه الأشباح المنزلة اليها الأرواح فى الأرض خلفاً . وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، فلا تتحرك ذرة إلا اليه ، وعنه خلق الكل من غير حاجة اليه،ولا موجب أوجب ذلك عليه ، ولكن سبق بأن يخلق فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو

على كل شىء قدير . أحاط بكل شىء علماً وأحصى كل شىء عدداً . يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، كيف لايعلم شيئاً وهو خلقه ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير . علم الأشياء قبل وجودها . ثم أوجدها على حد ماعلمها فلم يزل عالماً بالأشياء . لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء ، وأحكمها وبه حكم عليها من شاء وحكمها . علم الكليات على الاطلاق ، كما علم الجزئيات بالاجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق ، فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى الله عما يشركون. فعال لما يريد فهو المريد الكائنات فى عالم الأرض والسموات ، لم تتعلق قدرته بشىء حتى أراده ، كما أنه لم يرده حتى علمه ، إذ يستحيل فى العقل أن يريد مالم يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل مالا يريده ، كما يستحيل أن يوجد نسب هذه الحقائق فى غير حىّ ، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها. فما فى الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران ، ولا عبد ولا حر ، ولا برد ولا حر ، ولا حيوة ولا موت ، ولا حصول ولا فوت ، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل ، ولا بر ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا أرض ولا سماء ، ولا تركيب ولا تحليل ، ولا كثير ولا قليل ، ولا بياض ولا سواد ، ولا رقاد ولا سهاد ، ولا ظاهر ولا باطن ، ولا متحرك ولا ساكن ، ولا يابس ولا رطب ، ولا قشر ولا لب، ولا شىء من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمماثلات الا وهو مراد الله تعالى . وكيف لايكون مراداً له وهو أوجده . وكيف يوجد المختار مالا يريد. لارادّ لأمره ولا معقب لحكمه، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء، ويضلّ من يشاء، ويهدى من يشاء. ماشاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن . لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا

شيئاً لم يرد الله تعالى أن يريدوه ما أرادوه ، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن لا يريدوه مافعلوه ، ولا استطاعوا على ذلك، ولا أقدرهم عليه . فالكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، من مشيئته وحكمه وارادته. ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الإرادة أزلا والعالم معدوم غير موجود ، وإن كان ثابتاً فى العلم فى عينه ، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر عن جهل أو عدم علم ، فيعطيه التفكر والتدبر علم ماجهل جلّ وعلا عن ذلك ، بل أوجده عن العلم وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان أكوان وألوان . فلا مريد فى الوجود وعلى الحقيقة سواه ، إذ هو القائل سبحانه : وماتشاءون إلا أن يشاء الله ، وأنه سبحانه كما علم فاحكم وأراد فخصص وقدّر فأوجد ، كذلك سمع ورأى ماتحرك أو سكن أو نطق فى الورى، من العالم الأسفل والأعلى . لايحجب سمعه البعد فهو القريب ، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد. يسمع كلام النفس فى النفس وصوت الماسة الخفية عند اللمس، ويرى السواد فى الظلماء والماء فى الماء ، لا يحجبه الامتزاج والظلمات ولا النور وهو السميع البصير . تكلم سبحانه ، لامن صمت متقدم ولا سكوت متوهم ، بكلام قديم أزلى كسائر صفاته من علمه وإرادته . وكلّم به موسى عليه السلام سمّاه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل ، من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا نغمات . بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات . فكلامه سبحانه من غير لهات ولا لسان ، كما أن سمعه من غير اصمخة ولا آذان ، كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان ، كما أن ارادته من غير قلب ولا جنان ، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر فى برهان ، كما أن ذاته لاتقبل الزيادة والنقصان . فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الأحسان جسيم الأمتنان. كل ماسواه فهو من جوده فائض فضله وعدله الباسط له القابض ، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه . لاشريك له فى ملكه . إن أنعم فنعم فذلك فضله ،

وان أبى فعذّب فذلك عدله. لم يتصرف فى ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف، ولا يتوجه عليه لسواه حكم، فيتصف بالجزع لذلك والخوف . كل ماسواه تحت قهره سلطان ومتصرف عزّ ارادته وأمره . فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء، والأخذ بها من شاء، هنا وفى يوم النشور. لايحكم عدله فى فضله ولا فضله فى عدله. أخرج العالم قبضتين وأوجدهم منزلتين، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالى، وهؤلاء فى النار ولا أبالى. ولم يعترض عليه معترض هناك ، فقال إذ لاموجود ثمّ سواه هيا كل تحت تصريف اسمائه الاءه، ولوأرادسبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لـكان، أو شقياً لما كان من ذلك فى شأن. لـكنه لم يرد فـكان كما أراد ، فمنهم الشقى والسعيد هنا وفى المعاد . فلا سبيل إلى تبديل ماحكم عليه القديم. وقال تعالى هى خمس وهى خمسون مايبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد لتصرفى فى ملـكى وانفاذى مشيئتى فى ملـكى، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر ، ولم تعثر عليها الأفـكار والضماير ، إلا بوهب إلهى لمن اعتنى به من عباده وسبق له ذلك برحمة اشهاده . فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم، وأنه من دقايق القديم، فسبحان مَن لافاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا اياه. والله خلقكم وماتعلمون، لايسأل عما يفعل وهم يسألون . ولله الحجة البالغة فلو شاء لهدا كم أجمعين .

الشهادة الثانية :

وكما أشهدت الله وملائـكته وجميع خلقه وإياكم بالإيمان بمن اصطفـاه واختاره واجتباه من جوده، ذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذى أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ صلى الله عليه وسلم ما أنزل من ربه إليه ، وأدى أمانته ونصح أمتـه ووقف فى حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه ، فخطب وذكر وخوف وحذر وبشر وأنذر ووعد وأوعد وأمطر وأرعد . وما خصّ بذلك التذكير أحدا من أحد

عن إذن الواحد الصمد . ثم قال أهل بلغت . فقالوا بلغت يارسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد وانى مؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم مما علمت ومما لم أعلم . فما جاء به وقرر أن الموت حق عن أجل مسمى عند الله، إذا جاء لايؤخر، فأنا مؤمن بهذا إيمانا لا ريب فيه ولا شك ، كما آمنت وأقررت أن القبر حق . وعذاب القبر حق . وبعث الأجساد من القبور حق . والعرض على الله حق . والحوض حق . والميزان حق . وتطاير الصحف حق ، والصراط حق . والجنة حق . والنار حق . وفريق فى الجنة حق . وفريق فى السعير حق ، وكرب ذلك اليوم حق على طائفة ، وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر . وشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين واخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق . والتأييد للمؤمنين والموحدين فى النعيم المقيم فى الجنان حق ، والتأبيد لأهل النار فى النار حق . وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله علم أو جهل حق ، فهذه شهادتى على نفسى أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤديها اذا سئلها حيث كان نفعنا الله وايا كم بهذا الإيمان، وثبتنا عند الانتقال من هذه الدار الى دار الحيوان ، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان ، وحال بيننا وبين دار سرابيلها القطران ، وجعلنا من الذين أخذوا الكتب بالإيمان ، وممن انقلب من الحوض وهو ريان ، وثقل له الميزان، وثبت له على الصراط القدمان، انه المنعم المحسان . لقد جاءت رسل ربنا بالحق فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام أهل التقليد وأهل النظر ملخصة مختصرة ، والحمد لله وحده (تمت) .

المسيحية

مصدر الايمان المسيحى :

إن كل دين من الأديان الحيَّة يؤمن بالله ،وإن اختلفت مناحى التفكير فى ذاته ووجوده . وتستمد المسيحية إيمانها بالله من أكثر من مصدر .

وأولى هذه المصادر الكتاب المقدس ، وخاصة العهد الجديد ، الذى يرون فيه الله معلناً فى حياة المسيح وخدمته وتعاليمه وموته وقيامته . وقد صاغت الكنيسة هذه المعتقدات فى قانون مسطور يسمونه « قانون الإيمان »، وهو الذى يشمل ماتسلَّمته الكنيسة مدى أجيال متعاقبة من حقائق الكتاب المقدس.

ومع التسليم بأن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد لمعرفة الله ، فإن هناك شواهد وأدلة عن الله فى نظام الطبيعة وجمالها وتنسيقها ، وفى الإنسان ذاته وما فيه من صلاح ونبوغ وقدرة على الكفاح فى سبيل القيم العليا، مثل الأنبياء والقديسين ، وكذلك فى الاختبار الدينى الذى يشهد له ملايين من أخيار الناس.

ولله فى المسيحية صفات وخواص ـــ كما فى الأديان الأخرى نجملها فيما يلى :

أولا — الله هو الخالق :

يستهلُ الكتاب المقدس بقوله: «فى البدء خلق الله السموات والأرض»[١] ثم تعقب هذه آيات أخرى تثبت أن الله خالق جميع الكائنات بكلمة قدرته . وفى سفر المزامير يتغنى المرنم بقوله : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه»[٢] . وفى سفر أشعياء يقول النبى : « أما عرفت ، أم لم تسمع . إله الدهر ، الرب خالق أطراف الأرض لا يكلُ ولا يعيا. ليس عن فهمه فحص».[٣]

وقد أشار المسيح فى العهد الجديد ، فى أقواله وأمثاله ، إلى خالق عالم الطبيعة مثل طيور السماء ، وزنابق الحقل ،والشمس التى تشرق على الصالحين والطالحين ، والمطر الذى يهطل على الأبرار والظالمين (متى ٥ : ٤٥ و ٦ : ٢٥-٣٣) . وكذلك يشير إلى خالق عالم الإنسان ، الذى يعتنى به ويرعاه ، فى مثل حديثه عن الدرهم المفقود ، والراعى الذى يصعد فوق النجاد ويهبط إلى الوهاد ، سعياً وراء الخروف الضال (لوقا ١٥ : ٣ — ٣٢) .

ثانيا ـ الله هو الديان :

إن الخطية فى العالم شر مستطير ، وهى تتنافى مع إرادة الله الطاهر القدوس وقصده نحو الإنسان . ولكن ما هى الخطية ؟ لعلَّ المسيحية هى الدين الوحيد الذى استعمل هذه اللفظة بمدلول خاص . وهى فى نظر المسيحية تعنى أحد أمرين: إما حالة شخصية للانسان كله ، أو عمل خاطىء معين أو موقف معين . وفى كلتا الحالتين هى مضادة لإرادة الله المقدسة .

وإذا حسبنا الخطية حالة عامة للانسان،أو خطايا معينة، فالله لا يستخفُ بها. وهو عادل بار فى إدانة الخطيئة ، وعقاب الخاطىء الذى يرفض التوبة . وقد

(١) تكوين ١ : ١
(٢) مزمور ١٩ : ١. (٣) أشعياء ٤٠ : ٢٨

يكون هذا العقاب ألماً ينشأ عن مخالفة نواميس الله الأدبية . ويرى بعضهم أن هذا الرأى عن دينونة الله لا ينسجم مع محبة الله . ولكن ينبغى أن نضع محبة الله وعدله جنباً إلى جنب ، والله ليس متهاوداً عاطفياً ، ولا جباراً منتقماً . انه عدل ورحمة وبرٌ ومحبة . والله من فرط رحمته ومحبته لا يريد أن يهلك أحدا ، ولكن عدله وبره لا يُغفلان .

ثالثا — الله فاد ومخلص :

ليست دينونة الله الكلمة النهائية . وهذا هو جوهر العقيدة المسيحية . لأن محبة الله ورحمته تبقيان على الرغم من خطية الإنسان . وفى العهد القديم وعد الله شعباً اختاره أن يكون له ربا وإلها ماداموا على العهد مقيمين ، ولكنهم زاغوا وفسدوا مرارا وتكرارا ، وعبدوا آلهة أخرى ، واقترفوا المعاصى والذنوب . ولكن الله بقى على عهده ، ووعدهم بفاد أو مخلّص ، حتى ولو أنصتت لدعوته أقلية ضئيلة من المؤمنين به .

وقد زعم هذا الشعب أن المسيَّا الذى وعدهم به ربهم ، سيكون منقذا سياسيا يعيد إليهم مجدهم الدارس ، وعزَّهم السليب . ولما جاء المسيح أبى عليهم هذا الزعم الباطل ، وأعلن لهم أنه جاء ليذيع محبة الله ورحمته ، وينقذ الخاطئين من شرورهم وآثامهم ، ويردُّهم إلى الحياة الجديدة عن طريق الإيمان والتوبة والطاعة ليحقق لهم غفران الله ومرضاته .

هذه هى الرسالة التى قدمتها المسيحية للناس ، والتى صاغها الرسل وقادة الكنيسة فى عبارات لاهوتية مسطورة .

ولأن أتباع المسيح رأوا فيه الله متجسدا ، تحدثوا عنه كربٍّ ومخلِّص وفاد . وليس معنى هذا أن المسيح إله ثان ، فالمسيحية ديانة توحيد لا تؤمن بإله غير الله الواحد الأحد ، على أنهم رأوا فى يسوع صفات المحبة والرحمة والحنان التى

تسوقهم للتوبة عن ذنوبهم ، وطاعة الله وعبادته ، الله الذى دعاه يسوع أباً .

رابعا – الله الآب

تفرّدت المسيحية فى إطلاق هذه الصفة على الله ، ولـكن ليس لهذه اللفظة فى المدلول المسيحى ، أية صلة بالأبوة البيولوجية ، وقد علّم يسوع أتباعه أن يصلوا قائلين : «أبانا الذى فى السموات ٠٠» ، وهى الصلاة الربانية التى يرددها المسيحيون فى كل أرجاء الأرض ٠

وقد تبنّت الـكنيسة هذه الصفة من صفات الله ، وصاغتها فى نصوص عقائد الإيمان . وكلمة « أب » بسيطة فى مبنـاها، عميقة فى معنـاها ، فالله الآب السماوى يحبنا كأبناء ـ أبراراً كنا أو خاطئين ، مذنبين كنا أو تائبين ، حكماء كنا أو جاهلين— وقد لا نـكون أهلا لمحبة الأبوة الإلهية (كما شرح المسيح ذلك فى مثل الابن الضال ـ لوقا ١٥ : ١١ ـ ٣٢) ، ولـكنه لا يفتـأ يحبنا حينما نجىء إليه بروح التوبة والإخلاص، ولســان حالنا « أقوم وأذهب إلى أبى وأقول له يا أبى أخطأت إلى السماء وقدامك ، ولست مستحقا بعد أن أدعى لك إبنا » ٠

هذه هى الصفات الأساسية لله فى المسيحية: خالق. ديان عادل. فاد مخلّص. أب . ولـكن المسيحيين يؤمنون أن الله يرى كل شىء ، ويسمع كل شىء ، ويعرف كل شىء ، وهو قادر على كل شىء ، أزلى أبدى . انه الحاكم الأعلى لـكل الـكون ، وهو الأله الواحد الذى نستمد منه حياتنا ، وكل نعمة من نعم الأرض . وهو بعيد عنا جداً وبلا حدود ، ولـكنه معنا أيضاً ، ويعمل الخير لأجلنا . هو يمنحنا عزاء فى كروبنا ، ونوراً فى ظلامنا، وقوة فى ضعفنا .

ويؤمن المسيحيون بوحدة الله الواحد ، وهو كأب يحبّ الناس أجمعين، بحنان غير محدود ، فـكلهم أخوة وأبناء للآب الواحد وفى يسوع المسيح

أعلن لنا ذاته وطبيعته فى جلاء ووضوح . وبالروح القدس نحس بحضوره معنا وقربه منّا — كأب وابن وروح قدس — وسنعود إلى عقيدة الثالوث فى فصول تالية.

يسوع المسيح فى المسيحية

« المسيح » كلمة يونانية تعنى « الممسوح » ، ولذلك دُعىِ المؤمنون به « مسيحيون » . وقد كان المسيح إنسانا كاملا معصوماً من الخطيئة ، خلافا لسائر الأنبياء والمرسلين . ولكنه لم يكن عبقرياً دينياً ولا مجرد رسول ، بل كان « كلمة الله وروحه » . كان إلها متجسداً ، أعلن للناس فى حياته ذات الله ، وصفاته ومحبته للبشر .

ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن المسيح ولد فى فلسطين من عذراء طاهرة ، لم يمسسها رجل ، فى قرية بيت لحم ، وفى عصر أغسطس قيصر الرومان . وفى بداية خدمته العامة اختار اثنى عشر رجلا من تلاميذه يحملون الرسالة من بعده . وبعد خدمته العامة التى ناهزت ثلاث سنوات قضاها يعلِّم الناس عن ملكوت الله ، ملكوت البر والحق والمحبة والخير ، ويشفى المرضى ، ويجرى المعجزات الباهرات ، تصدّى له الفريسيون اليهود ، وهم الحفاظ على الناموس ، والصدوقيون وهم طبقة الكهنوت الأرستقراطية ، والرومان الذين خشوا على سلطتهم من تعاليمه الجديدة ، وحكموا عليه بالموت صلبا .

على أن صلبه لم يكن نهاية القصة ، فقد قام فى اليوم الثالث وانتصر على الموت وعلى القبر ، وأظهر قوة الله العجيبة فى فداء البشرية . والقيامة عقيدة جوهرية فى المسيحية ، إذ تؤكد وجود المسيح الحىّ بين أتباعه والمؤمنين به ، وهى عربون الحياة الأبدية ، وأقوى دليل على قوة الله وعدله وتزكيته الخير والبر .

تجسد الـكلمة :

« التجسد » كلمة فى علم اللاهوت المسيحى تدلّ على أن « (المسيح) قد صار جسداً، وحلّ بيننا ورأينا مجده ـ مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » (يوحنا ١ : ١٤)، ففى المسيح المتجسد نرى مشيئة الله وقصده، وندرك طبيعته وذاته ، وحقه ومحبته . [وسنعود إلى هذا البحث باسهاب]

وليس المسيح إعلان الله وحسب ، بل هو أيضا فادِى الأنام، ومخلّص البشرية ، الذى يقود الناس الى الحياة الجديدة .

معنى الصليب :

الصليب هو رمز الإيمان المسيحى ، وذلك لأن موت المسيح بأيدى آثمة أبغضوه وأساءوا فهم رسالته، حقيقة تاريخية. ويسمّى التعليم المسيحى عن الصليب « عقيدة الـكفارة » ،فـكأن موت المسيح على الصليب أقام « قنطرة » على الفجوة التى كانت قائمة بين الله والناس .

وهذا لا يعنى أن الله قد انفصل عن البشر وتغاضى عنهم ، ولـكن العكس هو الصحيح ، فالناس هم الذين بعدوا عن الله بعصيانهم وذنوبهم ، ولـكن محبة الله لهم ظلّت قائمة ، وقد حاول الله أن يردنا إليه بمحبته التى تبدّت فى المسيح، لـكى نصير خليقة جديدة فيه. هذا هو لبُّ الإيمان المسيحى والإختبار المسيحى.

وينبغى أن نفـكر فى موت المسيح ، لا كموضوع قائم بذاته ، بل مرتبط بما سبقه وما لحق به . . . بدعوة المسيح وحياته على الأرض ، حيث كان الله يتكلم فى ابنه (كلمته)، داعياً الناس إلى الخلاص. وقد بانت محبة الله ورحمته وقوته على الخطية والموت فى غلبة يسوع على الموت ، وفى القيامة التى زكّـت هذه الحياة الطاهرة ، وأيدت غلبة الخير على الشر ، والحق على الباطل .

ومنذ فجر المسيحية قامت العقيدة المسيحية على أن « يسوع المسيح ربُّ ».

وفى سبيل هذه العقيدة كافحوا وناضلوا بدعوى السلام فى عالم معادٍ ، وعانوا الاضطهاد والموت راضين مؤمنين . وما تزال هـــذه العقيدة قوة المسيحية ، تقوم على حياة يسوع المسيح وموته وقيامته ثم حضوره الحىّ . ولئن كان الذين يدعون أنفسهم مسيحيين لا يتمسكون دائماً بهـذا الإيمان الحىّ ، إلا أن المسيحية قوة للخير أينما حلّت .

الروح القدس :

الروح القدس هو الأقنوم الثالث فى الله الواحد الأبدى غير المحدود ، وهو يعمل فى حياتنا ، وموجود معنا دائماً . وفى البيان الذى سجله البشير يوحنا عن عشاء يسوع الأخير مع تلاميذه، قال لهم المسيح انه سوف لا يتركهم بلامعين ، وانه سيرسل لهم معزياً باسمه ليكون معهم إلى الأبد ، ويرشدهم إلى كل الحق ، ويذكرهم بكل ما علّمهم به . ويسوع، كانسان، لم يكن ممكناً له أن يوجد فى كل مكان ، وفى كل زمان . لذلك وعد تلاميذه أن يكون روحه معهم فى كل مكان وإلى نهاية الزمان . فالروح القدس هو المسيح الحىّ . من ثم يكون الإله الواحد متمثلا فى مظاهر ثلاثة : الله الآب . الله الابن . الله الروح القدس .

وسنعود إلى الموضوع بأوفى بيان فى فصول تالية عن « كلمة الله » و « الثالوث » .

عمل الروح القدس فينا :

هل نحن فى حاجة للروح القدس مادام لنا الله ؟ إن بولس الرسول يفترض عقيدة الثالوث كأنها قضية قد سلّمت بها الـكنيسة منذ البداية بقوله : « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم أجمعين » (٢ كورنثوس ١٣ : ١٤) . وهى البركة الختامية فى العبادة المسيحية . وترى ما معنى « شركة الروح القدس » ؟

إن الروح القدس هو حضور الله معنا ، وعمله فينا . ويؤمن المسيحيون أن

الله ذو جلال يعلو بعيداً عنا. هذه هي طبيعة الله في السمو والعلو والعظمة والقدرة، على أن المسيحيين يؤمنون أيضاً أن الله روح شخصيٌّ محب للبشر، يهتم بهم وهو قريب منهم. والإيمان بالروح القدس يؤكد هذا القرب الإلهي والمحبة الالهية. الله الروح القدس يتحدث إلى أعماق أرواحنا، ونستجيب له بأفكارنا وحياتنا. ونحن نتحدث إليه في الصلاة، واثقين أنه السميع الذي يهبنا الإرشاد والقوة، ويهدينا إلى سواء السبيل، في كافة القرارات التي نتخذها.

الكنيسة المسيحية

كان يوم الخمسين عيداً يهودياً مقدساً، وهو يقع في اليوم الخمسين بعد عيد الفصح. وكان أتباع المسيح مجتمعين معاً بعد صعود ربهم إلى السماء، وإذا بإحساس جديد قد غمرهم، وحماس قد استبدَّ بهم. وتقول القصة «ألسنة من نار» استقرت عليهم. وسمعهم الواقفون يتكلمون، كلٌّ في لغته. وقد يرمز هذا المظهر إلى وحدة عميقة في المسيح، ارتفعت فوق حواجز الجنس والقومية واللغة... هذا هو الذي نسمِّيه في المسيحية «حلول الروح القدس» على أتباع المسيح. وبعد أن ألقى بطرس زعيم الجماعة عظة دعاهم فيها إلى التوبة وغفران خطاياهم في المسيح، قبل كلامه ثلاثة آلاف شخص، اندمجوا معاً في شركة واحدة، في الصلاة والتسبيح. وتختتم قصة يوم الخمسين بهذه العبارة: «وكانوا يوماً فيوماً يجتمعون في الهيكل معاً ويكسرون الخبز في بيوتهم، وكانوا يتناولون الطعام بفرح وبهجة قلب، مسبِّحين الله، ولهم نعمة لدى جميع الشعب. وكان الرب يضمُّ كل يوم إلى الكنيسة الذين يخلصون» (أعمال ٢ : ٤٦ ـ ٤٧).

هنا نشأة الكنيسة في التاريخ

وفي سفر الأعمال ورسائل العهد الجديد، نتتبع حماس الكنيسة الفتية لنشر الدعوة المسيحية في كل مكان، بدون سيف ولا رمح، وبدون حرب

ولا جهاد. وعلى الرغم من الصعاب الكثيرة، والاضطهاد الذى عانته تلك الفئة المستضعفة من الناس، تكونت فى العهد الأول جماعات مسيحية على الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وفى آسيا الصغرى ، وفى جنوب أوربا ، وإلى جهة الغرب حتى رومية . وكان بولس اليهودى المهتدى مرسلا عظيما، كما كان لاهوتياً وإداريا ، وكتب رسائله إلى الكنائس التى أسسها فى رحلاته .

ويؤمن المسيحيون أن الروح القدس ما فتئ يتكلم حتى اليوم للافراد وللكنيسة الجامعة ، مقدما الإرشاد والقوة فى كل موقف جديد ، وفى كل مشكلة عاصية. والمسيحية لا تنظر إلى الوراء ، إلى تاريخ قديم ، بل إلى مستقبل أمجد، بقوة الروح القدس وإرشاده ، وهو حىٌّ على الدوام .

طوائف المسيحية :

هناك طوائف عديدة فى المسيحية مثل الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت، وثمة خلافات ليست جوهرية ظهرت على مسار التاريخ لأسباب قومية ولغوية وعنصرية ، ولكن جوهر الإيمان واحد فى جميعها . وفى هذا العصر نضجت فكرة الوحدة المسيحية ، وهى تأخذ الآن مجراها فى التاريخ . والكنيسة المسيحية ليست نظاماً دنيوياً ، ولكنها شركة فى المسيح ، ومؤسسة فى المجتمع ، ونظام لبث الدعوة وخدمة العالم أجمع .

١ — الكنيسة شركة فى المسيح :

المسيحية بطبيعتها لا يمكن أن تكون دين عزلة . وقد ظنّ قلة من المسيحيين أن يهربوا من العالم ، وينخرطوا فى سلك الرهبنة ، لحفظ نفوسهم طاهرة . ولكن الحالة الطبيعية للمسيحية أن تعيش فى العالم ، وتبث دعوتها ورسالتها ، وتخدم البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وبيئاتهم ، وأن تحيا حياة جماعية فى جماعات كبرى أو صغرى ، تسمّى كنائس أو طوائف ، هى بمثابة عرق فى

أمة الله، تجمعها كلها رابطة وأخوة هى الإيمان بالمسيح، وإن اختلفت فى بعض الطقوس والعادات والممارسات الشكلية .

فالكنيسة إذاً هى شركة رأسها المسيح .

الكنيسة مؤسسة فى المجتمع :

ولئن تكن الكنيسة ، قبل كل شيء ، شركة رأسها المسيح ، ومسيِّرها هو الروح القدس ، إلاَّ أنه لابد من نظام فيها يدبِّر شئونها ، وقوانين تحكم إدارتها، وقادة ومجالس إدارية يشرفون على نواحى نشاطها وخدمتها فى العالم . وعلى الكنيسة أن تتعاون مع الهيئات والمجتمعات الأخرى ، ومع الدولة التى تعيش فى كنفها — على أن يكون ولاؤها أول كل شيء ، وقبل كل شيء ، لله، ولو عانت فى سبيل ذلك أمرَّ صنوف الاضطهاد .

الكنيسة شاهدة لربها :

والكنيسة ملتزمة باذاعة كلمة الله ، بالعظة وإقامة العبادات ، وممارسة الأسرار المقدسة ، والقيام بالخدمات المسيحية ، الإجتماعية والطبية والتعليمية والثقافية .

الكنيسة خادمة للعالم :

رأينا الكنيسة فى مهدها تشهد للمسيح ، وتخدم العالم بباعث من الروح القدس، وتذيع رسالتها فيما وراء حدود الشرق الأوسط، حيث نبتت اليهودية والمسيحية . وفى كل أطوار التاريخ لم تتوانَ الكنيسة عن نشر هذه الدعوة فى كل أرجاء الأرض ، وإلى أبعد الأصقاع ومجاهل الدنيا .

وليس الهدف من رسالة الكنيسة، كسب الأنصار إلى هذا الدين وحسب، ولكن المسيحية تهتم قبل كل شيء بالخدمة العامة فى سائر بلدان الدنيا ، وتمدُّ يد العون والإسعاف لأبناء الإنسانية على اختلاف نزعاتهم وأديانهم وجنسياتهم إبان الكوارث والأزمات والضيقات ، وتسهم بنصيب وافر فى الخدمات الإجتماعية ، ومحو الأمية ، ومساعدة اللاجئين ، وغير ذلك من جهود .

الله فى المسيحية

الله قريب المنال – هو قوة أدبية روحية – اله تداخل الى عالم الاختبار الانسانى .

إن فكرتنا عن الله تطبع أثرها العميق فى حياتنا العملية ، لأنها تؤثر على المرء وهو يباشر عمله ، وهو يعامل أفراد أسرته ، وهو ينفق أمواله . لماذا ؟ لأن الناس يسيرون على نسق الأشياء التى يعبدون . قال المرنم العبرى القديم :

« مثلها يكون صانعوها » !

والله هو المثل الأعلى الذى عرفه الإنسان ، وحسبك أن تجعل هذا المثل خفيضاً أو دنيئاً لتهبط بالناس إلى مرتبة خفيضة دنيئة . والإله القاسى الغاضب الذى لا يبالى، يجعل الناس الذين يعبدونه قساة غاضبين غير مبالين .

ولعلَّ أهم سؤال يوجهه السائل لإنسان قوله : « مَن هو إلهك؟ » وهنا مفتاح السر، لكشف أخلاق الفرد ومُثله العليا.

وحين نسأل هذا السؤال الهام ، ونصطدم ببعض الصعاب ، فأين نجد الجواب ؟ ما أكثر الذين فكروا فى هذا الموضوع وتكلموا عنه ، وما أكثر الكتب التى أخرجتها القرائح البشرية فى وصف الله سبحانه وتعالى، وما أضخم المؤلفات التى حوتها المكتبات . ولكن إلى مَن نتجه للظفر بالجواب الصحيح، وما الصوت الصارخ من بطون الأجيال لإرشادنا اليه ؟ إننا لا نجد فى نهاية الأمر إلا صوتاً واحداً — هو صوت يسوع ، فهو النبع السخى الذى استمدت منه الأجيال المسيحية وحيها وإلهامها . ولقد اختلف علماء اللاهوت وتباينت آراؤهم ، ولكنهم اتجهوا كلهم فى تفكيرهم نحو يسوع . فلنتجه اليه نحن أيضاً . وليست عظمته فى أنه أدبى أخلاقى وحسب ، فإنه قد أعلن أيضاً فى اختباره

حقيقة الله وذاته ، فمنه نعرف مَن هو الله فى الاختبار الإنسانى .

الله قريب المنال دائما :

وحين نفكر فى صلة يسوع بالله ، كما دونتها بشائر الإنجيل ، ألا نجد قبل كل شىء أنه قريب المنال ؟ هو قريب إلى الناس ، وهو يملؤ كل لحظة من حياة يسوع ، فهو لم يعهد البعد عن الله فى أى وقت من أوقات حياته ـ سواء اكان فى إبراء الناس أم تعليمهم ، سواء أكان فى راحته أم سيره ـ الله معه فى كل وقت .

وليس معنى هذا أن الله موجود فى كل شعور، وفى كل مكان وحسب ، بل انه قريب إلى الإنسان فى قصده وعطفه واهتمامه وعنايته ، وتأثيره يمتد إلى كل لحظة فى الحياة وإلى كل موقف منها . وقدقال يسوع : « ألا يباع عصفوران بفلس ، ولكن واحدا منهما لا يسقط بدون أبيكم » . وهذا القول يقوم على فكرة قوامها أن العالم ملىء بإله قريب إلى كل شىء ، ويُعنى بكل شىء .

وتبرز هذه الفكرة بروزاً قوياً فى استخدام يسوع لكلمة « الآب » وصفاً لله . ولم تكن هذه الكلمة مستحدثة، بل جاءت من قبل فى العهد القديم وفى دين الإغريق ، ولكنها كانت تظللها فكرة أخرى ـــ هى فكرة قوة الله وسلطانه . فكان القوم ينظرون إلى الله نظرتهم إلى الإمبراطور الرومانى ، عاهل قوى جبار لا يقربه أحد . كان « ملك الملوك ورب الأرباب » وهذه فكرة صحيحة لاعيب فيها ، ولكن إلهاً كهذا لا يكون قريباً من الناس . يحكم ويتسلط، ولكنه لا يتخلل نسيج الحياة . ولذا قال يسوع « أبا الآب » ـ وبهذه الكلمة ذكّر الناس أن الله هنا على الأرض، وأنه يُعنى بالبشر ، لا يستصغر أحدا فى نظره ، بل يفهم أقل حاجات خلائقه وأدق أفكارهم .

ولكى نفهم معنى هذه الفكرة يجب أن نوازن بينها وبين فكرتين آخريين عن الله — فهناك فكرة تقول ان الآلهة أعظم وأرفع من أن تُعنى بشئون البشر، ان الآلهة تتحكم فى الناس، ولكنها لاتهتم بأمورهم. هذه كانت الفكرة اليونانية القديمة، فان آلهتهم كانت تولم الولائم وتقيم الأفراح فوق جبل الأولمب وهى فى شغل شاغل عن البشر، ليس لديها فسحة من الوقت أو الفكر لتعنى بشأن عبد حقير. وهذه أيضا هى الفكرة الإسلامية عن الله، فهو عظيم أكبر، سيِّد الحياة وربها، ولكنه ليس قريبا الى حياة الإنسان، لا يُعنى بمشاكلها ولايجوز اختباراتها.

وثمة فكرة أخرى، هى فكرة العلم الحديث التى تقول ان الله خلق العالم، ولكنه تخلَّى عنه الآن. وكأن الله أشبه بالمهندس واضع التصميم، خلق السموات والأرض ووضع نواميس الطبيعة، ثم كفّ يده عن العمل وترك الكون يسير على هدى نواميسه، وهو بعيد عنا اليوم بعد صانع قطار السكة الحديد عن الناس الذين يسافرون فيه.

لكن المسيح يصيح احتجاجاً على هاتين الفكرتين، فالله ليس اكبر وأعظم من أن يهتم بنا، وهو لم يتخلَّ عن أداة الكون بعد صنعها. إنما هو موجود اليوم، يملؤ حياة كل بشر، كما تملؤ أفكار الآب حياة ابنه. « وإذا صليتم فقولوا: أبانا .... ». هذا هو سرُّ الله الذى عرفناه فى المسيح، يملؤ حياة كل بشر.

الله فى الجوهر قوة ادبية روحية :

اقرأ الإنجيل مرة أخرى واسأل نفسك: ما الذى يجعل الله إلهاً، وما سرُّ حياته، وما جوهره، وكيف فكَّر المسيح فى الله.

وقد أجاب البشر على السؤال القائل: « مَن هو الله » جوابين. قالوا

أولا ان الله قوة. سرّحوا بابصارهم إلى البحار والجبال ، وشعروا بالعواصف والزوابع ، فهالهم قوتها وبطشها . فاصطنع الإنسان البدائى لنفسة آلهة القوة وقضى معظم وقتهخائفاً مذعوراً منها لئلا تؤذيه . وقالوا ثانيا ان الله عقل مدبر، رأوا بعيونهم عجائب النواميس الطبيعية ، فقالوا ان الله عاقل حكيم ، يدير دقائق الكون بحكمة وعقل . هذا هو اله العلم الحديث . ولقد أطلق أحد العلماء لقباً على الله فقال انه « الرياضى الأكبر » .

وقد اعترف يسوع طبعا أن الله قادر عزيز ، وأنه مدبر حكيم . ولكن حين أراد أن يصف الله بأخص أوصافه قال : الله هو الخير والصلاح ، هو القوة الادبية الروحية ـ فالحق والعدل والقداسة والبر ـ هذهأخص صفات الله. وفى أقوال الإنجيل الكريم يلقى المسيح أبهر الأنوار على طبيعة الله الأدبية والروحية ، لا يقول إلا القليل عن قوة الله وحكمته ، ولكنه يتكلم فى كل صفحة من صفحاته عن طبيعة الله الأدبية . وهذا هو معنى « محبة » الله . ليست إحساساً من العطف ولا الإشفاق ، بل هى عمل الخير والصلاح للناس ، محبة الله العامل فى الكون . وقد كانت هذه الفكرة فى قلب أشعياء حين قال عن الله « تعالى الله فى البر والصلاح» . فلا الحكمة ولا القوة هى التى تجعل الله إلها ، بل البر والصلاح.

وأقوى مظهر لطبيعة الله الأدبية نراه ماثلا فى الصليب . وانه ليصعب على كثيرين أن يروا ضرورة الصليب فى العقيدة المسيحية . فإن إخواننا المسلمين يقولون : «ان الله بلا شك قادر أن يمحو الخطية ، وان يقول (معلهش) كما نقول نحن فى حديثنا» . نعم يقدر الله أن يقول هذا ، وهو يقوله إذا كان لا يعبأ شيئاً بالصلاح والبر ، ولكن لأن الله يهتم اهتماماً جدياً بالصلاح والبر ، نراه لا يكتفى فقط بأن يغفر للانسان، بل يغيّره ويجدد ذهنه ، ليكون إنساناً أفضل. لا يكتفى الله بأن يمحو الخطية ، بل يمحوها على طريقة تحمل الإنسان على

كرهها ومقتها . من ثمَّ كان الصليب الذى أعلن فيه كل غضب الله وألمه إزاء مظالم العالم وأخطائه ومساوئه ، وتمثل فيه كره الله للخطية وحزنه عليها . هذا هو ما تفعله الخطية بالله — تجرح قلب الله جرحاً عميقاً بحيث يرتضى أن يحملها فى نفسه ، إذا كان فى هذا السبيل الغلبة عليها .

والأخذ بهذه الفكرة أخذاً جديا يبدل وجه الحياة كلها ، فلا نخدم الله فقط بصلواتنا وأصوامنا وعبادتنا ، بل بصلاحنا ، لأن الحياة الصالحة البارة هى العبادة الحقيقية التى يرضاها الله . وبهذا تغدو الأخلاق ، لاشيئا تكميليا للدين ، بل هى الدين ذاته ، لأن حياة الصلاح والبر هى التى يريدها الله منا .

وهذه الحقائق كلها نتعلمها من التجسد

ورب قائل يقول : هذه كلها أفكار نبيلة عظيمة ، ولكن كيف نعرف أنها حق ؟ مَن ذا الذى رأى الله إلها قريبا إلينا ، ورآه قوة أدبية روحية ؟

وهذا السؤال يأتى بنا الى النقطة الثالثة فى الفكر المسيحى عن الله . فهو إله تداخل الى عالم الاختبار الإنسانى بواسطة تجسده فى يسوع الناصرى . فإذا سئلنا هذا السؤال ، أجبنا : « انظروا الى يسوع ، وادرسوا حياته ، واستمعوا إلى أقواله ، وأبصروا فعاله ، فتروا قلب الله » . كان هذا فكر يسوع نفسه. ألم يقل لفيلبس : « من رآنى فقد رأى الآب » .

ولا أنكر أن هذا بحث عميق حقاً . على أنى أعتقد ان أساس التجسد لا يحتاج إلى عناء الفكر . فإننا اذا أردنا أن نعرف شيئاً عن أمر ما ، وجب علينا أن نتصل بهذا الأمر عن قرب . واذا أنا أخفيت شيئاً فى يدى ، فأنت لاتعرفه إلا اذا جسسته ولمسته ورأيته وذقته وشممته . وبدون هذا تقدر فقط أن تذهب الى الحدس والتخمين ما شئت أن تذهب . هكذا مع الله ، إذا أردنا أن نعرفه ، فلا بد أن يكون بيننا وبينه صلة .

فما هذه الصلة ؟ يقول بعضهم انها الطبيعة التى تعلن مجد الله وحكمته ، ويقول آخرون انها كتاب دينى مثل الكتاب المقدس أو القرآن الكريم ، حيث دونت شرائع الله وأحكامه. ولكن الفكر المسيحى عن الله لا يتمشى مع هذا الرأى ولا ذاك . فإن كان الله فى جوهره وذاته صلاحاً أدبياً وبراً ، لا بد أن يعلن ذاته فى حياة ، لأن البر والصلاح لا يتمثلان الا فى حياة انسانية. فأنت لا تقدر أن تقول مثلا على الأحجار أو الكتب انها صالحة بارة . ولن تقدر أن تقول إلا رجالاً أبراراً أو نساء صالحات . ولذلك لا يمكن أن يعلن لنا الله قلب بره وصلاحه وقوته الأدبية إلا عن طريق حياة إنسانية كاملة . ويسوع المسيح هو الله يتصل بنا فى حياة البشر . وهذا هو السبب الذى يحمل المسيحى على الإيمان ان « كلمة » الله ليس كتاباً — ولا الكتاب المقدس ذاته — بل هو شخص حىٌّ — يسوع الناصرى الذى يشعُّ نور الله فى وجهه .

وهذا ما يجعل المسيحى واثقاً أن الله قريب اليه ، وأن الله فى جوهره برٌّ وصلاح . والمسيح هو هذه الأشياء كلها ، نرى إلى وجهه ، فنبصر صفات الله متلمعة فيه .

الإنجيل فى المسيحية

خيّل للذين وقفوا فوق تلة الجلجثة تحت صلبان ثلاثة ، ان تلك كانت نهاية المطاف . فقد مات يسوع الناصرى بين لصين . وكان ذلك بعد ظهر يوم الجمعة فوق تلة جرداء خارج أسوار أورشليم . وفى وقت الظهيرة أظلمت الشمس ،وتحت ستارهذه الظلمة الرهيبة أسلم يسوع الروح، وانتهت الأيام القلال التى قضاها معلماً وشافياً . ولم تعد الجموع تسمع من شفتيه كلمات الحق والحياة . ولم تعد تطأ قدماه — هو وحفنة من أتباعه — طرقات الجليل واليهودية المعفرة بالتراب . انتهت مهمته التى خالها الناس بعثة المسِّيا المرتقب.

فى خلال ظلمة يوم الجمعة ،أحسَّ التلاميذ ان رجاءهم قد بات ملفوفا بالسخريه . فلا يعقل أن مَن حسبوه ابن الله يحكم عليه قادة دينهم ، وتصلبه السلطات الرومانية . ولم يكن مستساغا ان تحقيق المواعيد التى حفلت بها أسفارهم المقدسة ، يتمُّ عن طريق إنسان مائت على الصليب . من ثمَّ يهرب بطرس والآخرون مثقلين بخيبة الرجاء، وتحطيم الآمال العريضة. ولم يبق عند قدمى المصلوب غير التلميذ الذى أحبه سيده، والأم العذراء .

واذ تقترب النهاية ينسدل على المشهد ستار كثيف . ويسوع لم يخلف وراءه سجلا مكتوبا . ولم تختزن ذكريات أعماله وأقواله إلا فى قلوب وعقول فئة قليلة من مريديه وتلاميذه . والأعرج الذى طفر على رجليه ، والأعمى الذى غدا بصيرا ، والجائع الذى شبعت بطنه ، والأطفال الذين نعموا بلمسة محبته وعطفه ، والرجال والنساء الذين امتلأت قلوبهم بالأمل الكبير ، والتلاميذ الذين بهرتهم الرؤى المجيدة — كل هؤلاء سيذكرونه إلى حين . . ولكن ماذا بعد ذلك . فالعقول البشرية مهما قويت خزائن رقيقة ، فكيف تخلد هذه الذكريات السعيدة ؟

لم يكن هذا أملاً قابلاً للتحقيق . فصدمة موته كانت كافية لمحو هذه الذكريات . وقد اقترن هذا الموت بالعار والخوف والأمل الضائع ، بحيث كان محتملا أن ينسى التلاميذ أحداث السنوات القلال التى قضوها معه .

وبعد ثلاث ساعات من الظلمة المدلهمة خرجت صيحة داوية من فوق الصليب « قد أكمل » وبعدها همسات خافتة : « يا أبتاه فى يديك استودع روحى » .

أهذه هى النهاية المفجعة ؟ !

بقلوب ملفوفة بالغم والحزن ، اقتاد التلميذ المحبوب الأم المباركة إلى بيته فى أورشليم . وأشار الكهنة والشيوخ والكتبة إلى المائت على الصليب الأوسط إشارة الشماتة والتشفى قائلين : لم يعد له الآن حول ولا طول لإثارة الشعب علينا .

وفى تلك اللحظة الحاسمة فى تاريخ البشرية ، كنت ترى مواطنى أورشليم يعودون إلى بيوتهم وحوانيتهم ومجامعهم، وهم لا يدرون معنى ما رأوا وما سمعوا. أما الكهنة والكتبة فقد عادوا إلى أدراج الناموس والأنبياء ، وهم يجهلون أن هذا الذى مات قد كملت فيه كل المواعيد . وراحوا ينقبون فى كتبهم عن المسّيا المرتقب ، وملكوت الله ، والفادى ، والمنقذ ، ونور الأمم والشعوب ، وديان العالم . وظلوا فى أناتهم وتنهداتهم آملين أن يتحقق هذا يوما ما !

وفى قصر هيرودس كنت تشهد الوالى الرومانى — بيلاطس البنطى — يوقع على صك الإعدام رسمياً ويتأهب لإرساله مع حاشية عسكرية إلى طيباريوس قيصر لاعتماده .

لقد انتهى كل شىء . ولعل المدونات التاريخية يومئذ سطرت عبارات قليلة عن هذا الحادث . فان تاسيتوس المؤرخ الرومانى يقول فقط : « إنسان

اسمه المسيح حكم عليه بيلاطس البنطى بالموت فى عهد طيباريوس قيصر » ..
وذلك لأن التاريخ لاتتسع صفحاته للآمال الضائعة والحركات الخاسرة !

فى يوم السبت كان صمت وحزن وخوف . وفى فجر الأحد ، ارتفع الستار الأسود الذى أعمى أبصار الناس . فأبصروا أمجاد القيامة وأخذ التلاميذ والرواة يتحدثون عن هذه الأحداث الجسام . .

وكان نسوة قد انطلقن فى فجر ذلك اليوم حاملات الأطياب لتحنيط الجسد الموضوع فى قبر منحوت فى قلب الصخر ، وقد رأين الحجر مدحرجا والقبر فارغاً ، وسمعن ملاكاً يقول : المسيح قام ! وظفرت مريم المجدلية بأول حديث مع السيد المقام ، وهرولت مسرعة لتنبىء بطرس ويوحنا اللذين أقبلا سراعاً ورأيا فآمنا .

وفى بادىء الأمر لم يصدق أحد هذه الروايات عن القيامة ، حتى بعض التلاميذ أنفسهم حسبوها قصصاً خرافية ،ولكن يسوع ظهر لهم خلال أربعين يوما أكثر من مرة . وشهده تلميذان فى طريقهما إلى عمواس وتمشيا معه . ورآه بعيونهم خمسمائة من الأخوة . وتجمعت لديهم كل الأدلة المثبتة لحقيقة القيامة . وبدون هذا لايمكن تأويل التغيير العظيم الذى طرأ على التلاميذ ، فقد غالبهم يوم الصلب رعب هائل ، وحزن عميق ، ويأس مرير . ولكن ما تنقضى أسابيع قلال حتى يخرجوا كالأسود من مخابئهم ليفتنوا المسكونة .

إذاً لم تنته رسالة يسوع عند الجلجثة فى ألم وعار ، ولم تُنس أقواله وأعماله . فان التلاميذ أخذوا الآن يفهمون سيدهم ، ويستذكرون أقواله وأعماله فى معان جديدة . وبقلوب عامرة بهذه الذكريات راحوا ينادون ويبشرون جموع الشعب ، وحلّ الروح القدس يوم الخمسين على جماهير غفيرة . . . وولدت الكنيسة . . . ومن حياة الكنيسة واستجابة لحاجاتها ورغباتها ، انبثقت

هذه الكتابات الخالدة التى نسميها « الإنجيل او اسفار العهد الجديد ».

ويشمل العهد الجديد سبعاً وعشرين وثيقة ـ أربع منها هى بشائر الإنجيل، وواحدة سفر تاريخى هو أعمال الرسل ، واحدى وعشرون رسالة ، وسفر الرؤيا . واقدم وثيقة فى رأى بعض الشراح هى رسالة بولس إلى تسالونيكى على أرجح الأقوال ، كتبها من كورنثوس حوالى سنة ٥٠ ب . م اى بعد الصلب بعشرين سنة . ويقول آخرون ان الرسالة إلى غلاطية هى أقدم هذه الوثائق .

أما اقدم بشائر الإنجيل فهى بشارة مرقس كتبت فى رومية حوالى سنة ٦٥ ب . م اى بعد أ كثر من ثلاثين سنة من تاريخ الحوادث التى دونتها .

وهنا تتصدى لنا مشكلة : إن كانت أولى الوثائق المسيحية كُتبت بعد حياة يسوع ، فكيف نستوثق بأنها مدونات تاريخية صحيحة . ثم ان ا كثر هذه الوثائق كتبها أشخاص غير التلاميذ الأصليين الذين عاشوا مع المسيح . فبولس لم يرَ يسوع بالجسد ، وان يكن قد رآه فى رؤيا باهرة فى طريق دمشق. وقد يكون مرقس رأى يسوع ، ولكن فى فترات متقطعة اهمها فى بستان جشيمانى . فكيف إذاً نضع ثقتنا فى وثائق العهد الجديد ؟ وكيف نركن إلى مجرد ذكريات اختزنها الصحابة الأولون فى عقولهم ؟ إننا اليوم ندون تقاريرنا ومذكراتنا بطرق شتى ، ولكن فى القرن الأول لم يكن لدى العالم غير الأصوات البشرية ، والذاكرات البشرية ، لتدوين الوقائع التاريخية . فكيف قام الأولون بتدوين هذه الوقائع ؟

لو ان تلك السنوات التى انقضت بين موت يسوع وبين كتابة اول وثيقة ، كانت صمتاً مطبقاً ، ولو ان الرسل وشهود العيان الأولين ماتوا دون ان ينطقوا باسم يسوع ، لما كانت هناك مسيحية على الإطلاق ، ولكانت

أسفار العهد الجديد مجرد احلام ابتكرها كتّاب اذكياء ، وكنا نحن المسيحيين نسلّم بأن اسفارنا المقدسة ليست إلا مصنفات ادبية لاتستند إلى حقائق راهنة .

ولكن تلك السنوات لم تكن صمتاً ، بل حفلت بنشاط عارم لنشر الدعوة المسيحية ، وحماسة منقطعة النظير فى الشهادة للمسيح. كانت تلك سنوات نادى فيها الرسل والمؤمنون جميعاً الذين رأوا سيدهم وسمعوه ، بعقيدتهم التى استندت إلى شهادة العيان . وقد تبدت، آثار هذه الحركة الكاسحة ، وقوة المسيحية الأولى ، فى فصول سفر أعمال الرسل ورسائل بولس . وما حلّت سنة ٧٠ ب. م حتى كنت ترى الكنائس المسيحية منتشرة ، لا فى فلسطين وسورية وآسيا الصغرى فقط ، بل فى مصر واليونان وإيطاليا ، وربما فى أسبانيا أيضاً ...

كل هذا يشهد لدعاية واسعة النطاق ، وشهادة كانت تمتزج أحياناً بالعرق والدموع والدماء .

ولا شك أن أولى القصص التى اعتصمت بها الكنيسة ، وأحلتها مكانة الإعزاز والتقديس هى موت المسيح وقيامته ، وذلك لأن القيامة كانت الشماعة التى أشعلت ضياء المسيحية ، وكانت استهلال البشارة المفرحة التى قهرت العالم، وهى البشارة التى افتتح بها بطرس الرسول خطاباته الثلاثة الأولى (أعمال ٢ : ١٤ — ٣٦ و ٣ : ١٢ — ٢٦ و ٤ : ٨ — ١٢) وهى البداية التى بنى عليها الرسول بولس رسالته : « إن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا ، وباطل أيضاً إيمانكم » (١ كورنثوس ١٥ : ١٤) .

وليس مستغرباً بعد هذا أنه عندما كتبت بشائر الإنجيل ، احتلت قصة

الآلام والصلب والقيامة ، التى لم تشغل إلا أسبوعاً واحداً من حياة يسوع ، ثلث بشائر متى ومرقس ولوقا .

ومن هنا أخذت الكنائس تتناثر فى كل مكان ، لأن الرسل والمعلمين جابوا أصقاع العالم المعروف يومئذ، حاملين هذه الرسالة الجديدة. وأذاع الرسل والدعاة من كنوز ذكرياتهم أقوال يسوع وأفعاله ، وقصة حياته وموته وقيامته. وقد كتبت البشائر فيما بعد من هذه المواد التى تلقنها المسيحيون الأولون . فلم تنسج بشائر انجيلنا من نظريات مجردة ، ولم تؤلف فى أبراج من العاج للتأمل والنجوى ، ولم تكتب بطريقة فنية مصطنعة وتزويق لفظى ، إنما كتبت من وقائع حفظها الناس عن ظهر القلب ، وتناقلوها شفاهاً فى كثير من البلدان .

البشائر والانجيل .

بعد صعود المسيح ، راح الرسل وغيرهم يجوبون البلاد منادين ببشرى الخلاص بيسوع المسيح بحياته وموته وقيامته . وقد أطلق على مادة مناداتهم كلمة « الانجيل » . فمثلا يكتب بولس إلى أهل رومية يقول : « مستعد لتبشيركم انتم الذين فى رومية أيضاً .. بانجيل المسيح » (١ : ١٥). وهكذا حينما كان يسمع أحدهم فى عصور المسيحية الأولى كلمة « الإنجيل » ، يتجه تفكيره تواً الى البشرى بالمسيح. وبعد زمن اقتضى الأمر تدوين بعض الاشياء من سيرة يسوع وكان طبيعيا أن تُطلق اللفظة التى عرفت فى المنادة الشفوية على السيرة المكتوبة التى تضمنت بعض تفاصيل هذه البشرى (فى ايجاز لا اسهاب) . وقد أطلق على كل سيرة مكتوبة كلمة «الإنجيل» أو « بشارة »، لأن كل سيرة تضمنت البشرى عينها. لذلك نسمع الناس اليوم يتحدثون عن أربعة أناجيل أو أربع بشائر . ومعنى هذا أن هناك انجيلاً واحداً فى أربع بشائر مختلفة لأربعة من الكتّاب . وحين نقول « انجيل لوقا » نعنى البشرى أو البشارة كما شرحها الكاتب لوقا .

ومن الشيِّق أن نلاحظ هنا أنه فى المخطوطات القديمة للعهد الجديد، جمعت السير الأربع (التى نسمِّيها الآن الأناجيل الأربعة أو البشائر الأربع) فى كتاب واحد تحت عنوان واحد « الإنجيل » . وكتب اسم الكاتب فى أول كل سيرة ، كأن يقال « الإنجيل كما كتبه لوقا » .

اذا فالفكرة القائلة ان يسوع المسيح جاء إلى العالم بانجيل فى شكل كتاب مجهز ، أو خلاصة للحق الذى سلَّمه للناس — خاطئة لا تطابق الواقع. ولا يصح أن يقال ان الإنجيل نزل عليه ، بل الأولى أن يقال انه عندما انزل الله يسوع إلى العالم ، أعطى الإنجيل للناس ، الذى معناه كما قلنا « البشرى » . وكان مجىء يسوع المسيح إلى العالم، بكل ما انطوى عايه ، بمثابة البشرى أو « الإنجيل» . وهو الإسم الذى يُطلق على رسالة يسوع التى تلقاها العالم فى حياته وأفعاله وأقواله . «جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله» (مرقس ١:١٤). وقصارى القول ان يسوح المسيح نفسه هو الإنجيل ، وهو البشارة من الله .

وقد يقال فى معرض الجدل أنه كان الأصح أن تكون سيرة واحدة بدل أربع سير للمسيح . ونحن لا ننكر أن فى وجود سير كثيرة شيئاً من الحرج ، وقد أحسَّ بهذا الذين يقومون بالتعليم الدينى ، وخاصة للطالبين والباحثين من غير المسيحيين . ومماهو جدير بالذكر أنه فىأواخر القرن الثانى أحس «تاتيان» بهذا الحرج ، وحاول التخلص منه بجمع البشائر الأربع فىرواية واحدة متحدة، وصاغ منها اتفاقا عُرف باتفاق البشائر. وظل مائتى سنة (إلى سنة ٤٣٠ ب . م) النسخة الوحيدة المتداولة للأنجيل التى كانت تقرأ فى الكنائس بين المسيحيين الناطقين بالسريانية . وفى تلك الرقعة من العالم لم تكن تستعمل بشائر الإنجيل منفردة إلا نادراً ، واطلق على هذه النسخة الشاملة روايات البشائر الأربع مسلسلة « الإنجيل » . ولو أن هذه النسخة الشاملة خلدت وبقيت على الزمن

واختفى ما عداها ، لكان المسيحيون فى الشرق الذين اختلطوا بالمسلمين تجنبوا متاعب لاحصر لها ، إذ كانوا يقفون وبين أيديهم « انجيل واحد » . ولكن لا . فإنه من حسن حظ العالم المسيحى أن هذا لم يحدث . لأن فى البشائر الأربع التى بأيدينا نرى صورة مختلفة أخاذة من صفات ربنا وحياته ، ومظاهر مختلفة من تعاليمه التى كانت تختفى عن انظارنا أبد الدهر . والواقع أن وضع سيرة واحد رسمية مستقاة من البشائر الأربع، لم ترق فى نظر الكنيسة الجامعة . وفى هذا الصدد يقول أحد علماء الإنجيل « ان الإنجيل يقدم لنا يسوع المسيح. فمن انجيل مرقس نتعلم مَن كان يسوع المسيح ، وما الدور الذى لعبه على الأرض فى التاريخ البشرى . ومن أناجيل لوقا ومتى نتعلم شيئاً من تعاليم يسوع . ومن انجيل يوحنا نتعلم المعنى العميق الذى استخلصه اتباعه من حياته » .

الفوارق فى روايات الانجيل :

إن البشائر الأربع على اتفاق تام فى الحقائق الجوهرية الأساسية — وهى أن يسوع جال بين الناس يصنع خيراً ، ويشفى المرضى والمنكوبين، وأنه صلب وقام من الأموات ثانية ، وظهر للتلاميذ . وقد خضعت روايات الإنجيل لضروب من النقد الدقيق والفحص الشديد أكثر من أى كتاب قديم آخر . ومع هذا لايستطيع ألا المكابر أو المتحيز أو الجاهل، أن ينكر الاتفاق التام بين البشائر فى الحقائق الأساسية من سيرة المسيح . فالنظريات القائلة ان يسوع نفسه لم يُصلب ، وأن آخر حلّ محله ، أو أنه لم يقم من الأموات— لا أثر لها اطلاقا فى البشائر الأربع .

على أنه يجب التسليم فى غير مواربة أن هناك بعض الفارق أو التناقض أو الاختلاف فى قليل من الروايات. وقد لوحظت هذه الحالات منذ القرن الثانى ، واتخذها الهراطقة مادة للنقد والتجريح. وكان النقد فى ذلك الزمن البعيد محصوراً فى الفوارق بين سلسلة نسب يسوع، كما رواها كل من متى ولوقا ،وبين الترتيب

التاريخى والتسلسل الزمنى لبعض الحوادث فى رواية يوحنا عند مقارنتها بروايات البشيرين الثلاثة الآخرين. ولم يدع أحد العصمة اللفظية الحرفية لروايات الإنجيل. فقد كان الكتاب خاضعين للعوامل العقلية والنفسية التى يخضع لها الكتاب عادة فى كل جيل . ولا نجنى شيئاً إذا نحن تظاهرنا أو أدعينا أن ليس بين البشائر بعض الفوارق التافهة ، ويمكن فى غير عناء تعليل بعض هذه الفوارق والمتناقضات . وقد ألقى العلماء فى العصور المتأخرة كثيراً من النور على هذه المشاكل .

على أن هذا كله لن يضير الصورة الرائعة التى رسمتها بشائر الإنجيل عن « النموذج الإسمى ، والإنسان الكامل ، وإعلان الله الأزلى الخالد ، ذلك الذى كان انسانا تاماً ، وإلهاً تاماً ، ابن الإنسان ، وكلمة الله ، ومخلص العالمين ، ورب الحياة » . هذه هى الصورة الجميلة التى رسمتها كل من بشائر الإنجيل . وإن كنا لا ندعى العصمة اللفظية الحرفية لكتابنا ، فان من حقنا أن نشيد بصدقه ووحيه ومطابقته للواقع تماما . وكما أنه من السخف والبعد عن النظرة العلمية الفاحصة ، أن نتجاهل المشاكل الكثيرة التى تواجهنا فى روايات الإنجيل ، فإنه من الجهل المطبق أن يدعى المكابرون أنه ليس لدى المسيحيين مصادر وثيقة يستندون اليها بسبب وجود هذه الفوارق والمتناقضات التافهة فى الروايات .

وأقرأ مايقوله فى هذا الصدد الأستاذ الكبير عباس العقاد فى كتابه « عبقرية المسيح » صفحة ١٩٤ و ١٩٥ :

« ليس من الصواب أن يقال ان الأناجيل جميعاً عمدة لا يعول عليها فى تاريخ السيد المسيح ، لأنها كتبت عن سماع بعيد ، ولم تكتب عن سماع قريب فى الزمن والمكان ، ولأنها فى أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين ، كانشقاق القبور ، وبعث

موتاهم وطوفهم بين الناس — وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال . . .
وإنما الصواب أنها العمدة الوحيدة فى كتابة ذلك التاريخ ، إذ هى قد تضمنت أقوالاً فى مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها . ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء اسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذاك . فإنجيل متى : مثلا ملحوظ فيه أنه يخاطب (اليهود) ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس فى منتصف القرن الأول للميلاد. وإنجيل مرقس : على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب (الأمم) ولا يتحفظ فى سرد الأخبار الإلهية التى كانت تحول بين بنى إسرائيل المحافظين والإيمان بإلهية المسيح . وإنجيل لوقا : يكتبه طبيب ويقدمه إلى سرىٍّ كبير فيورد فيه الأخبار والوصايا من (الوجهة الإنسانية)، ويحضر فى ذهنه ثقافة السرى الذى أهدى إليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية . وإنجيل يوحنا : غلبت عليه فكرة (الفلسفة) وبدأه بالكلام عن الكلمة Logos ، ووصف فيه التجسد الإلهى على النحو الذى يألفه اليونان ومَن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة. وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر، فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان أنها هى العمدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفى سنة عمدة أحق منها بالاعتماد ».

المسيحية والخطية البشرية

والآن : نعود إلى موضوع آخر يحسبه كثيرون من غير المسيحيين عثرة : ماذا عسى أن تقول المسيحية عن الخطية ؟ كان على المسيحية منذ نشأتها الأولى أن تكافح وتناضل مع وجهات نظر الآخرين فى معنى الخلاص . وانه لشيِّق حقاً أن نلاحظ أنها قد عُنيت عناية جدية من البدء بهذا الفارق الصارخ الذى ميَّزها عن العقائد الأخرى . فلم تكن الخطية فى نظر كتَّاب الأسفار المقدسة المسيحية حماقة أو دمامة ، ولم تكن داءً أو جهلا ، بل هى عصيان وإرادة شريرة جامحة، ليست موجهة الى تقليد من التقاليد الاجتماعية المرعية ، ولا إلى نظام أدبى عاطل عن العنصر الشخصى ، بل إلى الله الحى ذاته . ولم تحتل التوبة مكانة رفيعة فى الكتاب المقدس وحسب ، بل قد حثَّ الكتاب المقدس الإنسانَ على أن ينيب ويتوب ، لا عن هذا العمل أو ذاك من الأعمال الخاطئة ، بل من أجل نفسه . وعلَّمه أيضاً أن يحكم على نفسه ويدينها ، على أساس مقياس يسوع المسيح الأدبى .

وقلَّ بين الناس مَن ينكر علىالمسيح سمو تعاليمه الأدبية الأخلاقية ، مهما يكن موقفه حيال المسيح ذاته . وليس هيناً على الذين يقرأون كلماته الأخاذة الخارقة عن النقائص البشرية، مثل الأفكار الشهوانية ، والأعمال الجموحة ، أو الطمع فى المال ، أن ينسوها أو يغضوا الطرف عنها . وهو يأمرنا أن نحبَّ أعداءنا ، وأن نلقى وراء ظهورنا كل أثر من آثار الآداب الضيقة ، وان نمارس بدلا عنها المحبة الواسعة المجيدة ، التى فى نطاقها يهمى الآب السماوى غيثه على الأبرار والأشرار سواء . ونحن نعلم علم اليقين انه حين نقترب إلى يسوع ، لا نقدر ان نبلغ مستواه ، واننا واقعون تحت دينونته ، لا بسبب الخطأ الذى نأتيه ، ولكن بسبب الخير الذى نأباه . وحين نقع تحت مؤثرات طهر يسوع ومحبته ، نتعلم شيئاً عن معنى الخطية .

وهل هذا كل مافى الأمر ؟ أليس لدى المسيحية مزيد مما تعطيه غير شريعة جديدة تفضل العقائد الأخرى ؟ هنا يبدو إنجيل الخلاص فى انصع مظاهره وأبهاها . فالخطية من وجهة النظر المسيحية ، عصيان ضد الله ، وشرود عن الصلة به ، ومعصية ضد قداسته تعالى . لكننا ندرك فى سر الصليب ان الله لم يكتف بكراهة الخطية كراهية مقدسة ، ودينونته إياها والحكم عليها . إنما يعلن لنا يسوع ، وهو على الصليب ، فكر الله فى حمل الخطية على نفسه . ويبين لنا موت يسوع معنى خطية الإنسان فى نظر الله ، كما ذهب إليه قدماء علماء اللاهوت فى قولهم : « شناعة الخطية الشنيعة » — بل يبين ايضاً ان الله قد تنازل ليجدد الصلة التى قطعت خطيئتنا أواصرها ، ويتخطى الشقة التى أحدثها بيننا وبينه اعوجاجنا وزيغنا .

ومن المبادىء الأولية التى يجب مراعاتها فى وجهة النظر المسيحية عن الخطية والغفران ، ليس ما يفعله الإنسان ، بل ما يفعله الله . وترى ما الذى فعل الله ؟ أليس يُسأل هنا فى هذا المقام هذا السؤال الفاحص الخطير؟

لقد رأينا مدى العصور كيف عالج الناس الموضوع . فهم إما اقتنعوا واكتفوا بمستوى من الآداب الوضعية المألوفة ، وإمّا أحنوا الرءوس أمام إله مطلق القوة يعزّ من يشاء ويذل من يشاء ، قد خسفت القوة فيه كل صلاح ، بحيث لم يعد من الميسور إحكام صلة أدبية بين الإنسان وبين الله ، وإما أنهم تعلقوا بأهداب رجاء خافت ، وأسطورة كريمة ، عن إله يبدأ هو نفسه من جانبه بالعمل على إنقاذ الإنسان . على أنه إذا اقتصر هذا الرجاء على رغبة الإنسان ليس إلا ، فإنا لا نتقدم قيد إنملة إلى ما نصبو من يقين .

وفى قلب المسيحية ، وفى لبابها ، عاش يسوع الناصرى ، ومات ، وقام ليكون مع تلاميذه وأنصاره . وفى قلبها ولبابها أنه عاش فى مكان عرفه التاريخ ، وفى حقبة عيّنها الزمن ، ونسج الناس حوله أفكاراً ، لامن خيالات

أدمغتهم ، ولا فى فضاء السموات الخاوية ، بل من قوة تأثيره فيهم وفضـله عليهم . ولقد وجد الناس فى يسوع المسيح حضور الله ذاته ، الذى تنزل ليفتديهم . وبان ذلك الدليل الناصع فى شعور السيد بأن بينه وبين الله علاقة وثيقة . ويسوع هو الذى عرف أن ابن الإنسان سيبذل حياته فدية عن كثيرين . والذين كتبوا عن مجىء يسوع المسيح إلى العالم ليخلّص الخطاة ويموت عن الفجار ، ليصالح العالم مع الله ، كانوا قوماً ممن رأوا مرأى العين ، أو على الأقل عرفوا الذين رأوا السيد فى حياته وفى موته الشنيع ، فتكلموا بما عرفوا هم أنفسهم .

وقد وقعت الواقعة فعلاً ، وتمّ العمل . ولم تعد الحادثة قصة يرويها الناس « عن » الله ، لأنه قد أجرى فعلا ما أراده فى (كلمته) ابنه ، ومَن كان واحداً مع الآب قد حمل عبء خطايا العالم ، وقَبِل أن تنفذ فيه مشيئة الإنسانية . فإن كنا نؤمن فى المسيح أن الله يحب أولاده الخطاة ويردُّهم — وهم عاجزون عن ذلك — إلى الصلة التى قطعوا وشائجها بأعمالهم ، فإنه لا يسعنا أن نقبل هذا الإيمان أمراً هيناً ، أو نتغاضى عن الكلفة الباهظة التى تقاضاها . ولدى مقارنة هذا بكل أنواع الترضية والاستغفار البشرية ، وبكل أسباب الشدة والآلام التى يحفل بها العالم ، فإنا نرى هنا غفـرانًا قد أُشترى ، لا بتضحية الإنسان وآلامه ، بل بآلام الله ذاته .

* * *

هذه هى الرسالة التى تاق إليها البشر كما يتبين من الجهود والمحاولات المضنية فى أديان العالم . فالذين تقربوا إلى الله ، أحسُّوا إحساساً قهرياً بعدم جدارتهم واستحقاقهم ، وعرفوا أن بينهم وبينه شقّة واسعة لا تتخطاها الأصوام والصلوات والذبائح، ولا صرامة الزهد والتقشف، وما ينطويان عليه من ضناء وتذلل . ولن يؤمنوا إلا متى رأوا الله يتخذ الخطوة من جانبه أولا ، ويبدو أمامهم متأهباً لقبول الإنسان فى صلة القربى التى انقطعت أواصرها .

والغفران ، الذى هو إعادة ودّ مقطوع واستعادة صلة مبتورة ، ليس معناه محو الخطايا كما تُمحى الكتابة من على الصبّورة ، بل هو كلفة باهظة كما نتمثلها فى الصليب . وليس هذا مجرد الصفح والتجاوز عن الخطية ، فالله ليس متراخياً متهاوناً ، ولكنه غافر غفور ، رحمن رحيم . هذا هو الحق الذى يخضد قوة الخطية ويذلّ شوكتها .

الحياة والموت :

وما الذى تقول المسيحية عن الحياة والموت؟ إن إنجيل المسيحية ليس مجرد شريعة جديدة تُطاع بالروح القانونى . كما أن الحياة المسيحية فى جوهرها هى صلة بالله، فيها تستقر روح الله (وهى روح المسيح) فى روح الإنسان . وبذلك يتسنى للانسان أن يختبر حياة الله ، فيقوى على غلبة التجربة وعلى فعل مشيئته تعالى . وليس فى هذا كله شىء عن الشعوذة أو السحر ، فالعملية خاضعة لنواميسها البسيطة الجامعة . ذلك أنه إذا أراد الانسان باتضاع أن يسكن الله فى قلبه ، ورضى أن يقبله ، معترفاً بخطاياه ، وطالباً فى اخلاص ملكوت الله قبل كل شىء ، فإن الروح الالهى ينساب إلى داخله ، ويبدّل تدريجاً حياته ويجدد شخصيته .

وفى هذه الصلة بين الله والانسان ، فى يسوع المسيح ، يتوافر لنا الرجاء المسيحى فى الخلود . ولم يقل العهد الجديد إلا قليلا لاشباع رغبة حب الاستطلاع ، والوقوف على وصف تفصيلى مسهب للعالم الآخر ، ولكن الكتّاب المسيحيين أفصحوا بجلاء عن نقطة واحدة : وهى أنه متى أحكمت هذه الصلة الجوهرية بين نفس الانسان وبين الله فى المسيح ، فلن يكون للموت سلطان على تلك النفس . لأن هذه الحياة الجديدة أقوى من القبر . ويغدو الموت طوراً من أطوار الرحلة ، لا يعقبه أدوار متوالية من الوجود المتتابع كما يذهب إليه الهنود فى عقيدة تناسخ الأرواح ، وإنما يعقبه وجود سعيد تظهر

فيه بأجلى معانيها الحياة المستترة فى المسيح . وحين يؤمن المسيحيون بقيامة المسيح من الأموات ، لا يقتصرون فى هذا على المسيح وحده ، بل يؤمنون أيضاً أن المؤمنين به سيقومون مثله ، كيف لا وقد « صار (هو) باكورة الراقدين » ..

المسيحية والتقدم :

ومن النتائج التى تترتب على هذه العقيدة فى الروح واهب الحياة ، أن المسيحية هى بالضرورة ، دين التقدم والرقى . وربما يبدى المسيحيون فى بعض الأحيان شيئاً من الضعف والهزال فى هـذا المضمار ، ولـكن الأمر الذى لا يُنـكر أنه حيث يسود الروح المسيحى الحق ، يصبح الصوت الداوى حاثاً الناس على التقدم والارتقاء . ومن الطبيعى أن ينظر القوم الذين يؤمنون بالله كروح ، بينه وبين البشر صلة، إلى الحياة كأداة لمظهر الله وإعلانه ، وأن يتعلموا المزيد من إرادته وطرقه ، كلما تقدمت الأجيال وتعاقبت العصور .

المسيحية دين جامع :

إن الانجيل فى جوهره رسالة جامعة شاملة ، فليس فيها ما يقتصر فقط على أمة واحدة ، أو جنس واحد ، أو طبقة واحدة من الناس . ولم يفقه التلاميذ الأولون فى بادىء الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت ، ولـكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت إلى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية ، وعرف أنها لليهودى والاممى ، والبربرى واليونانى ، والذكر والانثى ، على السواء ، دون تفريق أو تمييز . إن إعلان الله فى المسيح قد خلا من كل نعرة عنصرية أو نزعة ضيقة — هو يسع البشرية قاطبة . وإنجيل الخلاص من الخطية لجميع الناس ، كلهم فيه سواسية ، وهو لا يقوم على ذبائح وتقدمات معينة ، ولا يتطلب ميزات عنصرية خاصة . وليس أساسه استحقاق الإنسان وجدارته ، بل عطف الله

ومحبته. حقاً ان رسالة الحياة فى روح الله وقوته ، التى بها يغلب الإنسان التجربة ، ويفعل مشيئة الله ، جامعة شاملة فى دعوتها وفى آثارها. فلا حدود فيها ولا قيود ، ولا شرق ولا غرب ، ولا قداسة متفوقة للمستجدين البرّ ، ولا إنكار لحق البسطاء والجهلاء فى رؤيا السماء — ولكنها حياة بشرية كاملة ، لأنها إلهية كاملة ، فيها يشترك كل الناس على قدم المساواة . وإن وجد بين المسيحيين مَن يخرج على هذا الاجماع ، فهو عدو الدين وعدو الله .

ومما تألم له نفوسنا أن الأوبئة القديمة التى تفتك بالإنسانية قد نشطت فى هذا العصر نشاطاً لم يسبق له مثيل . ففى أكثر البلدان يجثم شبح الخوف على قلوب الناس ، ويسدل ظلاله الكثيفة على آمال البشرية وأمانيها . والكراهية بين الجماعات والشعوب ، وما ينجم عنها من اضطهاد قبيح مذموم ، قد أمست إلهاً قومياً فى كثير من الميادين ، وتزداد سطوة هذا الاله حتى ليخشى أن يغدو معبوداً تعنو له الجباه ، والجشع الكَلِب فى المال يقيم فاصلا بين الذين لهم والذين ليس لهم ، ويحفز الأخيرين على الغضب والانتقاض والثورة ، ويفزع الأولين بداء العصبية التى يحسُّ بها القوى حينما تستهدف قوته للخطر .

على إننا فى هذه الفترة من التاريخ ، نرانا مضطرين للاستناد إلى إيماننا لنتخلص من التشاؤم إلى رجاء مجيد . ونعلم يقيناً أن هناك « واحداً » — على غير غرارنا — لا يُهزم ولن يعرف الهزيمة . ففى إعلان المسيح نرى الله ، لا إلهاً بعيداً لا يبالى ولا يعبأ إلا بنفسه ، بل أباً محباً للجنس البشرى كأبناء له ، حباً لا يوصف ولا يُستقصى. ونحن الذين عرفنا المسيح ، رسوله وابنه ، مصدعاً بالألم على الصليب ، الذى ارتفع عليه بسبب محبته للإنسان — قد فزنا برؤيا خارقة متلمعة ، ازاحت لنا اللثام عن عمق عاطفة الله نحو خاصته . وبسبب هذه الرؤيا المجيدة استعذب المسيحيون ميتة الاستشهاد مدى عصور التاريخ ، ونزحوا عن الأهل والوطن إلى أقاصى الأرض لحمل رسالة الأنجيل .

كلمة الله

«قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ . اللهُ الصَّمَدْ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد ».

« . . . إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم »

(قرآن كريم)

«فى البَدْءِ كانَ الكلِمةُ ، وَالكلِمةُ كانَ عِندَ اللهِ ، وكانَ الكلِمةُ اللهُ».

(إنجيل يوحنا ١ : ١)

نؤمن حقاً ويقيناً أن الله لم يلد ، ولم يولد . ولكن نؤمن أيضاً أن المسيح هو ابن الله (كلمته الأزلية) . ولا خفاء أن المسيحية ولدت فى مهد يهودى ، وكان طبيعياً أن تتكلم بلغة اليهود، وفكر اليهود، للعقلية اليهودية . على أنها جاءت إلى العالم ديناً جامعاً شاملا، فلم يمض زمن طويل حتى خرجت إلى العالم لتشق طريقها بين الأمم . ولم تمض ثلاثون عاماً على صعود المسيح إلى السماء حتى كانت قد سيطرت على أهم بقاع آسيا الصغرى ، وغزت بلاد اليونان ، ووصلت إلى روما . ويقدِّر البعض أنه فى تلك الحقبة الضئيلة كان تعداد المسيحيين من الأمم (الوثنيين) ، بالنسبة للمسيحيين من اليهود ، ما يوازى مائة ألف أممى لكل مسيحى يهودى . ولم تكن العادات اليهودية ولا التقاليد الموسوية ، معروفة عند هذه الجماهير . مثال ذلك أن اليونانيين ما سمعوا قط عن « المسِّيا » الذى ينتظره اليهود . وفكرة مجىء المسيح ، وملكه الشامل، بحسب الفكر اليهودى ، كانت عقيدة غريبة ومعادية للأمم. فما لهم ورجاء اليهودية ، وأحلامها ، ومليكها ؟ ولم تكن سلسلة نسب المسيح

وانتمائه إلى داود ، وحسبانه حسب الجسد من النسل الملكى ، تعنى شيئاً بالنسبة لليونانى . هنا لبُّ المشكل ، فكيف تُقدم المسيحية للعالم اليونانى ؟ وما من شك ان قوة أية عقيدة من العقائد ، لا تعتمد على قوة هذه العقيدة ، قدر اعتمادها على توافقها مع فكر العصر ، واستعداد الجماهير لقبولها. وكان على المسيحية أن تخلق هذا التوافق، وأن تهيىء نفسها لقبول الجماهير لها . ألا يوجد مدخل فكرى جديد ، غير المدخل اليهودى تستطيع به المسيحية أن تجتذب أصحاب الفكر الهلّينى ، إلى حظيرتها ؟ أيلزم للأممى أن يتهود أولا حتى يدرك أسرار المسيحية ؟ لقد كانت المشكلة تكمن فى كيف يُقدَّم المسيح والمسيحية ، فى ثوب يستطيع اليونانى أن يدركه ويستوعبه .

ولقد استخدم الوحى الإلهى يوحنا الرسول ، ليقوم بحلّ هذا المشكل . ولقد عاش يوحنا فى مدينة أفسس حوالى عام ١٠٠ الميلاد . وعرف بلا شك مشاكل الفكر اليونانى ، ومداخله ، فتقدم ببشارته لليونانيين ، واليهود على السواء تحت عصمة الوحى الإلهى ، وإرشاد الروح القدس . ولقد تمجد الإعلان الإلهى فيه حينما أرشده بأن المدخل للفكر اليونانى ، واليهودى على السواء ، هو فى الحديث عن « الكلمة » . هنا يستطيع أن يصل إلى العقل اليهودى ، ويستوعبه الفكر اليونانى . فكلتا الدائرتين ، تتداخلان معاً عند هذه النقطة الفريدة ... وسوف نتحدث عن « الكلمة » فى الفكر اليهودى، ثم نعرض بعد ذلك للكلمة عند فلاسفة اليونان. و نخلص من هذه وتلك إلى التطبيق المسيحى .

(وهنا نقتبس آراء الدكتور وليم باركلى فى تعليقه على الأصحاح الأول من انجيل يوحنا) .

الكلمة فى الفكر اليهودى :

كانت هناك عوامل أربعة ، شكلّت أفكار اليهود عن الكلمة :

١ — كان اليهودى يرى فى الكلمة أكثر من صوت صارخ ؛ فالكلمة لها قوتها ، ولها وجودها الذاتى المستقل الذى يعمل عمله . وكما قال أحد أساتذة اللاهوت « الكلمة المنطوقة عند العبرانى ، كانت قوة حيَّة رهيبة ، فهى وحدة نشاط مشحونة بالقوة . إنها تندفع كطلقة الرصاص، لتصيب الهدف». وربما لهذا السبب كانت اللغة العبرية شحيحة فى كلماتها . فهى لا تضم أكثر من عشرة آلاف كلمة ، بينما اليونانية التى يتحدث بها الشعب ، زادت كلماتها عن المائتى ألف كلمة ....

٢ — والعهد القديم حافل بالإشارات إلى هذه الفكرة العامة عن قوة الكلمة . فحينما خُدع اسحق ، ونطق بالبركة ليعقوب، بدلا من عيسو البكر ، لم توجد هناك قوة تستطيع أن تسترد البركة ولم يبق للبكر سوى اللعنة . (تكوين ٢٧) . لقد خرجت الكلمة من فيه لتعمل عملها ، ولا تستطيع قوة على الأرض أن توقفها .

وفى بداية سفر التكوين ، يُفتتح كل فصل من فصول قصة الخلق بالقول « وقال الله ... » . (تكوين ١ : ٣ ، ٦ ، ١١) . إن كلمة الله قوة جبارة تخلق كل شىء من لا شىء ، وفى سفر المزامير نستمع إلى المرنم يقول : « بكلمة الرب صنعت السموات » (مزمور ٣٣ : ٦) . وفى المزمور المائة والسابع « أرسل كلمته فشفاهم » (مزمور ١٠٧ : ٢٠) . وفى المزمور المائة والسابع والأربعين« يُرسل كلمته فى الأرض . سريعاً جداً يجرى قوله» (مزمور ١٤٧ : ١٥). وفى نبوات أشعياء « لأنه كما ينزل المطر .... هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى ، لا ترجع إلىَّ فارغة ، بل تعمل ما سررت به ، وتنجح فيما أرسلتها إليه » (أشعياء ٥٥ : ١١) . ويتحدث الله على لسان

أرميا : «أليست هكذا كلمتي كنار ،وكمطرقة تحطم الصخر» (أرميا ٢٣ : ٢٩).

والنغمة عينها نسمعها فى الأسفار الأبوكريفية :

ففى سفر عزرا يتحدث الكاتب عن الله بالقول : « لقد تكلمت من بدء الخليقة ، من أول يوم ، وقلت : لتكن السموات والأرض . وكانت كلمتك عملاً كاملاً » . أما كاتب سفر الحكمة فيخاطب الله « كالواحد الذى صنع كل شيء بكلمته » .

إننا نلمح فى العهد القديم بجملته إشارات متعددة يضيق بها المقام ، عن قوة الكلمة وأثرها . وإذا كانت كلمة الإنسان لها مثل هذه القوة ، فكم تكون كلمة الله الحى ؟ . . .

٣ — ثم حدث تطور فى الحياة العبرانية ، نجم عنه أثر كبير فى تشكيل الفكر العبرانى ، عن الكلمة . فلمدة تزيد على مائة عام قبل مجيء المسيح ، أصبحت العبرية لغة منسية ، ولقد كانت الأسفار المقدسة مسطّرة باللغة العبرية ، التى لم يكن يدركها عامة الشعب ، عدا فئة قليلة من العلماء ، وكان الشعب يتحدث الأرامية ، وهى لغة متطورة عن العبرانية . ولذلك كان لزاماً أن تترجم الأسفار المقدسة إلى الأرامية حتى يستطيع الشعب أن يدرسها ، ويستوعبها . وهكذا قام العلماء بترجمة أسفار العهد القديم ، ودُعيت هذه الترجمات « بالترجوم » . وكانت فصول التوراة تُقرأ فى المجامع بالعبرية ، ثم تُتلى بعد ذلك بالأرامية من أسفار الترجوم . ولقد كتبت أسفار الترجوم ، فى وقت ساد على أفكار الناس الإحساس بعظمة الله ، وسموه ، وأصبح اتضاعه أمراً يدعو للدهشة . فالله يسمو على أفكارنا ، وتشابيهنا ، وأمثالنا ، وتصوراتنا . وطبيعى كان أولئك الذين قاموا بترجمة التوراة ، يشاركون أبناء عصرهم فى هذه العقيدة . لذلك كانوا يخشون أن ينسبوا لله الصور المادية ، والتشبيهات الحسّية ، واللمسات الإنسانية . وهكذا بذلوا غاية الجهد ، فى تخليص الذات الإلهى من

هذه الصور . والدارس للتوراة يستطيع أن يلمس الكثير من هذه الصور ، والاستعارات المادية ، أى أن التوراة تتحدث عن الله بصور إنسانية . فحيثما التقى علماء الترجوم بآية يستشف منها الاتجاه إلى هذه الصور ، كانوا يعبّرون عن ذات الله بلقب « كلمة الله » . على سبيل المثال ورد فى سفر الخروج القول : « وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله » . . فقد رأى العلماء أن هذا التعبير أكثر بشرية من أن نتحدث به عن الله ، فترجموها « فأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة **كلمة الله** » (١٩ : ١٧) . وفى السفر عينه نقرأ أيضاً أن الله قال لشعبه عن يوم السبت « سبوتى تحفظونها ، لأنه علامة بينى وبينكم فى أجيالكم المتعاقبة » (خروج ٣١ : ١٣) . هذه لمسة بشرية يسمو عنها جلال الله . فلذلك لا بد أن يكون السبت « علامة بين **كلمتى** وبينكم » . وفى سفر التثنية : « الرب إلهك العابر أمامك نار آكلة » (تثنية ٩ : ٣).وقد وردت فى الترجوم « كلمة الرب إلهك . . . نار آكلة » . ونقرأ أيضاً فى نبوات اشعياء قول الله عن الخليقة : « أنا الأول وأنا الآخر . يدى أسست الأرض ويمينى نشرت السموات » (اشعياء ٤٨ : ١٣) رأى فيها علماء الترجوم استعارة بشرية ، فترجموها : « **بكلمتى** أسست الأرض ، وبقوتى نشرت السموات ». ولقد وردت « **كلمة الله** » فى الترجوم ، ما يقرب من ثلثمائة وعشرين مرة . ولكن ينبغى ألاّ يتطرق إلى القارىء الظن أن المقصود استبدال كلمة من كلمات الوحى . بل لقد كان هدف أحبار اليهود ، التعبير عن ذات الله باسم جديد إذ لا يجوز ارتباط الصفات المادية ، والاستعارات البشرية ، بالذات الإلهية ، ولكن الحقيقة بقيت ان كلمة الله أصبح تعبيراً جديداً فى قاموس علم اللاهوت العبري ، وابتدأ الشعب يعتاده ويدركه ، لأنه كثيراً ما كان يسمعه يتردد فى قراءات المجامع اليهودية . إن كل يهودى كان معتاداً أن يسمع لقب « الممْرا » كلمة الله ، من فم الكتبة والأحبار .

٤ — فى هذا المجال علينا ألاّ نغفل حقيقة جوهرية ، كان لها أيضاً أثرها فى تطوير الفكر اليهودى عن الكلمة . فلقد كان لليونانيين معرفتهم باللوجوس Logos. ولكن اللوجوس اليونانى، كان يعني الكلمة، كما كان يعنى الفكر أو العقل . ولقد كان كلا المعنيين ، مترابطين فى ذهن الرسول يوحنا ، وفى أذهان كبار المفكرين من اليهود فى حديثهم عن « الكلمة » ، فحينما كانوا يتحدثون عن « الكلمة »،كانوا يقصدون فكر الله ، وكلمة الله .

وهذا يبدو واضحاً فى أماكن متفرقة من أسفار الحكمة . ولقد كان الأدب العبرى يحوى مجموعة عُرفت بأسفار الحكمة . وهذه الأسفار هى خلاصة أقوال الحكماء ، والفهماء ، ممن اختبروا الحياة أكثر من سواهم . ولكن هذه الأقوال لم تكن فلسفية نظرية ، بقدر ما كانت عملية تمسّ شئون الحياة ، ومشاكلها . ومن بين أسفار الحكمة اليهودية سفر الأمثال لسليمان . وفى سفر الأمثال نلتقى بجمل غريبة تضفى على الحكمة قُوَى سرية ، خلاّقة ، أزلية ، حتى يخيَّل للباحث وكأن الحكمة ذات متميزة ، وواسطة أزلية ، وعامل خلاّق مع الله منذ البدء . وهناك ثلاث فقرات تبدو فيها هذه الفكرة بوضوح ..

فنى الإصحاح الثالث من سفر الأمثال ، يرد القول عن الحكمة . . .

« هى شجرة حياة لمسكيها ، والمتمسك بها مغبوط . الرب بالحكمة أسس الأرض . أثبت السموات بالفهم . بعلمه انشقّت اللجج . وتقطّر السحاب ندى» (أمثال ٣: ١٨ — ٢٠).

لقد عرفنا من اليونان ، ان اللوجوس Logos يعنى الكلمة ، ويعنى أيضاً العقل ، أو الفكر . ورأينا كيف أضفى الفكر اليهودى على الكلمة السلطان ، والقوة الخلاّقة . وهنا نرى الجانب الثانى من الفكر عن اللوجوس يتبلور ويتضح .. فما الحكمة والعقل أو الفهم إلا صنوان ، أو تعبيران عن شىء

واحد .. فى البداية رأينا الفكر العبرانى يتحدث عن كلمة الله ، هنا نراه يتحدث عن حكمة الله ، وفكر الله .

وفى الأصحاح الرابع : « اقتن الحكمة . اقتن الفهم . . . احفظه فإنه هو حياتك » (أمثال ٤ : ٥ ، ١٣) .

يقول يوحنا « فى البدء كان الكلمة .. فيه كانت الحياة » .وهنا يتحدث سليمان عن الفهم أنه الحياة ، الجانب الواحد يرتبط مع الآخر فى الفكر العبرى عن الكلمة . .

على أن أوضح الفقرات هى الفقرة الثالثة . وفيها نقرأ القول عن الحكمة « الرب قنانى أول طريقه . من قبل أعماله منذ القدم . منذ الأزل مُسِحت . منذ البدء . منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن غمرٌ أُبْدئت . إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبْدئت . إذْ لم يكن قد صنع الأرض بعد ولا البرارى ، ولا أول أعفار (تراب) المسكونة . لما ثبّت السموات كنت هناك أنا . لما رسم دائرة على وجه الغمر . لما وضع للبحر حدّه ، فلا تتعدى المياه تخمه ، لما رسم أسس الأرض ، كنت عنده **صانعا** . وكنت كل يوم لذته . **فرحة دائما قدامه** » (أمثال ٨ : ٢٢ — ٣٠) .

ألا يرى القارىء فى هذه الكلمات صورة مما ورد فى حديث يوحنا عن الكلمة ؟ ألا نسمع هنا أصداءً من أفكار الوحى فى البشارة الرابعة عن الكلمة الأزلى ؟ فالحكمة هناك منذ الأزل ، قوة جبارة خالقة ، يصــدر عنها النور والبهجة والحياة ، أليس هذا هو نفس حديث يوحنا عن الكلمة (اللوجوس) الذى من البدء كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان ؟! ، إن الحكمة هنا تبدو صنواً لشخص المسيح بالصورة التى وردت فى مستهل بشارة يوحنا .

ولا تتوقف هذه الفكرة عن الحكمة عند الأسفار القانونية فحسب . فبين

العهد القديم ، والعهد الجديد، استمرت كتابات اليهود الحكمية ، التى جُمعت فيما بعد ضمن أسفار الأبوكريفا ، فى ما يسمى بأسفار الحكمة .

وفى أحدها ، ويُدعى « حكمة يشوع بن سيراخ » ، نقرأ هذا الفقرة على لسان الحكمة :

« من فم العظيم الأسمى خرجتُ ،
وملأتُ الوجود كله كالضباب .
فى الأماكن العالية مسكنى ،
وعرشى فى عمود السحاب .
بمفردى طوّفت دائرة السماء ،
وقدماى سارتا فى أعماق الهاوية » .

هنا نرى الحكمة قوة أزلية خالقة كانت مع الله منذ البدء . ولقد كتب سفر يشوع بن سيراخ ، أو « الجامع » كما يلذ للبعض تسميته، فى فلسطين قبل ميلاد المسيح بمائة عام. وحوالى نفس التاريخ ، كتب سفر آخر بالأسكندرية فى مصر، وعرف باسم « حكمة سليمان » ، هذا السفر يضمّ أسمى ما كتب عن الحكمة . فالحكمة هى الكنز الذى يقتنيه بنو البشر ، ليصبحوا أقرب الكل إلى الله، وهى صانعة كل شىء ، وهى نفخة سلطان العلىّ ، والذات المنبثقة من القدير ، وهى تستطيع أن تصنع كل شىء ، وتعيد خلقه من جديد . والأكثر من هذا أن كاتب الشعر لايقف عند حد الحديث عن الحكمة وعن صفاتها ، بل يصل إلى حد مساواة الحكمة بالكلمة. فالكلمتان تعبّران عن ذات واحدة. فهو يتحدث عن حكمة الله ، وعن كلمة الله ، بنفس الجمل ، وبنفس المعنى . ففى صلاته إلى الله نستمع إليه يقول :

« ياالله ، إله آبائى ، ورب المراحم ، الذى صنعت كل شىء بكلمتك ، وهيأت الإنسان بحكمتك » (٩ : ٢) .

وفى حديثه عن الكلمة نستمع إلى أصداء مما نادى به التلميذ الحبيب: « فبينما كل شىء فى سكون تام ، والليل فى مسيره السريع ، إذا بكلمتك الأزلى الجبار، يقفز من السماء ، من عرشك الملكى، كجبار حرب شديد البأس ، إلى أرض الخراب والدمار ، ليقدم وصيتك الصريحة ، كسيف حاد » .

إن كاتب « حكمة سليمان » يتحدث عن الحكمة كقوة الله الخالقة ، المنيرة ، الأزلية . فالحكمة والكلمة صنوان . إنهما واسطتا الخالق للخلق ، وهما يقربان إرادة الله ، إلى قلوب وعقول الناس .

وهكذا وجد يوحنا ، أن أفضل طريق يصل به إلى قلوب أبناء شعبه أن يبدأ بالحديث عن الكلمة ، الكلمة التى ليست مجرد صوت صارخ ، بل قوة دافعة لها فاعليتها ، كلمة الله الذى به خلق العالمين ، الكلمة كما وردت فى الترجوم لتعبِّر عن فكرة عمل الله، وذاته ، وصفاته . ثم الحكمة الإلهى ، كما تصوره أسفار الحكمة، قوة الله الخالق الأزلى ، الذى ينير كل إنسان. وهكذا قال لأبناء شعبه مستعيراً هذا الفكر ليعبر عن المسيح : « إذا أردتم أن تروا كلمة الله الأزلى ، وأن تنظروا قوة الله الخلاقة . إذا أردتم أن تبصروا الكلمة الذى به خلق الوجود بما فيه ، والذى وهب النور والحياة لكل إنسان، تطلعوا إلى ربنا يسوع المسيح ، فهو كلمة الله قد تمثل بشراً فيما بينكم » .

وفى الفكر اليونانى :

أسلفنا فى البداية أن مشكلة يوحنا لم تكن فى تقديم المسيح لليهود ، بقدر ما كانت فى تقديم المسيح لليونانيين ، ترى هل واءمت فكرة الكلمة العقلية اليونانية ؟

عرفنا أن فكرة الكلمة كانت معروفة عند مفكرى اليونان ، ويرجع تاريخها إلى ٥٦٠ ق. م. ، ومن الغريب فى مدينة أفسس أيضاً ، حيث كتبت بشارة يوحنا . فهناك عاش فى ذلك الحين ، فيلسوف يدعى « هيراكلتوس »، كان محور فلسفته أن كل شيء فى الوجود فى حالة فيضان، وتدفق ، وحركة مستمرة ، فكل ما فى الوجود يتغير يوماً بعد يوم ، ولحظة بعد لحظة . ولقد كانت الصورة التى استلهمها : إنك لا تضع قدمك فى مجرى الينبوع الواحد مرة بعد أخرى، فالمياه تتغير بين حين وآخر ،لأن المجرى دائم الجريان ، وعلى هذا القياس نادى هيراكلتوس بأن كل ما فى الوجود فى حالة فيضان متغير . ولكن إن كان الأمر كذلك،ألا يعنى هذا أن الحياة كلها فى حالة فوضى ، وتغيُّر، وارتباك كامل ؟ وأين نكتشف معنى ثابتاً فى وجود يسود عليه المد ، والجذر ، والتغير ، والتبدل ؟ يجيب ذلك الفيلسوف ان هذا المد والجذر ، والفيضان العارم ، والثورة المتغيرة ، لا تسير على غير هدى، وإلا عمّت الفوضى الوجود ، ولكن تحكمها نواميس ثابتة ، وقوانين محددة ، وتتبع مثالاً معيناً لا يتغير خلال العصور والأجيال ، وإلى أبد الدهر ، ومَن الذى يحكم هذه النواميس ويسيطر على هذا المثال ؟ إنه **اللوجوس «الكلمة» ـ العقل الالهى** . فالكلمة عند هذا المفكر هو رائد كل نظـــام يسير عليه الوجود ، والمهيمن على كل ناموس يخضع له . ولكنه لم يكتف بالوقوف عند هذا الحد ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقال انه لا يوجد فقط مثال فى العالم الطبيعى ، بل هناك أيضاً مثال فى عالم الأحداث ، فلا يتحرك شيء فى هذا الوجود على غير هدى . وفى كل حياة ، ووراء كل حادث فى الحياة ، يوجد هدف ، وقصد ، وخطة موضوعة. ومَن الذى يسيطر أيضاً على الأحداث ، ويجريها حسب حكمته؟ الجواب مرة ثانية **اللوجوس .. الكلمة . العقل الالهى** .

ثم تعمق المفكر بعد ذلك إلى أبعد من هذا، فبدأ يتأمل فى أعماق الانسان، قال وما هو ذلك الشيء فى أعماق الانسان الذى يجعله يميز بين الخير والشر ؟ ما الذى يُعطينا المقدرة على التأمل ، والتفكير ؟ ما الذى يعيننا لنعرف الحق، ونختار الخير ؟ ومرة ثالثة يجيب المفكر، انه اللوجوس فى أعماق الانسان. فهو الذى يهب الانسان العقل المميز ، ومعرفة الحق ، والمقدرة على تمييز الأشياء المتخالفة . ففى عالم الطبيعة والأحداث يسير كل شيء حسب سلطان اللوجوس، وفى عالم باطن الانسان « اللوجوس » فى الأعماق هو الكائن المميز بين الحق والباطل ، والقوة المعينة على قبول الخير ، فاللوجوس يسيطر على هذا الوجود ، كما يسيطر على كيان الانسان .

وحين اكتشف اليونانيون هذا الحق تمسكوا به ، ونادى به أكثر أتباع المدرسة الرواقية ، فقد كان الرواقيون فى عجب ودهشة من النظام الذى يسير عليه هذا الوجود . فالنظام يستلزم وجود قوة مفكرة ، والناموس يستوجب كيان عقل مدبر ، وحيث هناك نظام ، ومثال ، وناموس ، وأنموذج ، فلا بد أن يكون وراء هذه كلها العقل المنظم .

فمَن الذى يحفظ الكواكب فى مجراتها؟ مَن الذى يسيطر على المد والجذر؟ مَن الذى يسود على تعاقب الليل والنهار ، وتعاقب الفصول بانتظام ؟ والجواب كما أسلفنا : اللوجوس، كلمة الله، عقل الله . فاللوجوس هو القوة التى تفسر ظواهر هذا الوجود ، وهو السلطان الذى يسيطر على نواميس الكون ، فلا يسوده الارتباك والتشويش . وهو المقدرة السامية التى تدفع العوالم إلى الحركة بكل هدوء ونظام ، أو بحسب التعبير الرواقى ، اللوجوس هو الذى يتخلل كل شيء ، ويتسلط على كل شيء .

بقيت لمحة أخرى فى الفكر اليونانى عن الكلمة . فبين يهود الأسكندرية

عاش فيلسوف يُدعى « فيلو » ، ولقد أوقف هذا المفكر حياته على دراسة الفلسفتين ، اليهودية واليونانية . فلم يكن هناك واحد بين اليهود نظيره ، له الإلمام التام بكل ما ورد فى أسفار العهد القديم ، كما لم يكن هناك يهودى مثله ، أدرك عظمة الفكر اليونانى ، وتعمق فى أسراره .

وهو أيضاً خلبت لبّه فكرة الكلمة أو اللوجوس ، فنادى بأن اللوجوس كائن منذ الأزل ، وأنه الواسطة التى بها خُلق الوجود ، ثم قال إن اللوجوس هو فكر الله مطبوعاً على العالم ، كما أنه وسيلة الله للخلق. وعلى حد تعبيره: « كما يمسك الزارع بالمحراث ، ويتخذ منه واسطة لبعث الحياة والازدهار فى الأرض الجرداء ، هكذا الكلمة هو الواسطة لبعث الكون وتسيير دفته » .

ثم قال : ان عقل الانسان يحمل طابع اللوجوس ، فهو الذى يهبه التمييز ، والمقدرة على المعرفة . فاللوجوس هو الوسيط الواحد بين الله والانسان . . بين الكائن والحادث .. وكما قال: اللوجوس هو الكاهن الذى يسمو بالانسان أمام الله ..

هكذا كان « الكلمة » فى الفكر اليونانى ، قوة الله الخالق ، والمسيطر ، والمرشد ، والحافظ ، والمسيّر لكل ما فى الوجود . فأتى يوحنا فى بشارته ، وقال لليونانيين « انكم لأجيال طويلة كنتم تفكرون عن الكلمة ، وتكتبون عن الكلمة ، وتحلمون عن الكلمة ، القوة الخالقة لهذا الكون ، والقوة الحافظة والمسيِّرة لهذا الوجود ، والقوة العاقلة المفكرة فى قلوب الناس ، والقوة الروحية الملهمة لكل ما هو سامٍ ، ورفيع فى الحياة ، **وها هو اللوجوس .. كلمة الله، فكر الله، قد تجسد الى العالم فى شخص يسوع المسيح. . . « والكلمة صار جسدا ، وحل بيننا »** .

استطاع اليهود واليونانيون على السواء ، أن يصلوا إلى إدراك معنى اللوجوس ، كلمة الله ، وفكر الله ، وعقل الله،الذى أبدع هذا الوجود، والذى أعطى لكل شىء معناه . وهكذا أتى يوحنا إلى اليهود واليونانيين على السواء ، ليخبرهم أن يسوع المسيح هو كلمة الله ، القوة الخالقة ، الحافظة ، المسيطرة ، المنيرة لكل عقل ، قد أتى فى ملء الزمان ، ولبس جسم بشريتنا . وما عليهم بعد أن يرهقوا عقولهم فى البحث والتنقيب ، إلا أن يتطلعـــوا بالإيمان إلى يسوع المسيح ، ليلمسوا فكر الله المتجسد الحى فى شخصه المبارك .

هذا هو يسوع المسيح الذى تدعوه المسيحية « ابن الله » .

الثالوث فى المسيحية

عقيدة الثالوث من العقائد الجوهرية الأساسية فى الدين المسيحى، وهى قديمة كقدم إعلانها منذ خُلق عاقل يعبد الله. أما الإسم ثالوث فموضوع محدث. كأن تسمِّى جبلا أو بحيرة أو بقعة من الأرض باسم لم يكن لها من قبل. فحدوث الإسم لايعنى أن ذلك المكان محدث. والاسم العربى « ثالوث » معرَّب كلمة «ثرياس» اليونانية أو كلمة «ترنيتاس» اللاتينية. ولم أقف على أول من استعمله فى العربية. وأعتقد أن القرآن أشار إلى استعماله باللغة العربية فى سورة المائدة آية ٧٧ « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ». وعليه يكون إستعمال هذا الإسم قبل الإسلام، وهو مشتق من ثلث الشيء، أى جعله ثلاثة أركان. وأول مَن استعمل لفظ «ثرياس» باليونانية هو تيوفيلوس أسقف أنطاكية نحو سنة ١٧٠م وأول من استعمل كلمة « ترنيتاس» باللاتينية هو ترتوليانوس فى آواخر القرن الثانى. على أن كلمة ، « ثالوث» العربية لاتعبرِّ تمام التعبير عن الكلمة اليونانية أو اللاتينية، لأن فيهما معنى وحدة ثلاثة، أو تثليث بوحدة.

عقيدة الثالوث فى الوحدة.

لاتعنى عقيدة الثالوث أن لنا ثلاثة آلهة، بل إله واحد فى ثلاثة أقانيم. وقد عبَّر عن هذه العقيدة أحسن تعبير قانون ماراثناسيوس - « الإيمان الجامع هو أن نعبد إلها واحداً فى ثالوث، وثالوثا فى وحدانية، لانخلط الأقانيم ولا نفصل الجوهر. فإن للآب أقنوما على حدة، وللابن أقنوما آخر، وللروح أقنوما آخر. ولكن لاهوت الآب والإبن والروح القدس كله واحد، والمجد متساو والجلال أبدى معا.. الآب إله والإبن إله والروح القدس إله، ولكن ليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد . . . الآب رب والإبن رب والروح القدس رب ، ولكن ليسوا

ثلاثة أرباب بل رب واحد . . . الدين الجامع ينهانا عن أن نقول بوجود ثلاثة آلهة أو ثلاثة أرباب » .

وليس المعتقدون فى الثالوث أقل توحيداً من غير المعتقدين به. وكيف يمكننا أن نكون غير موحدين أمام آيات الكتاب الكثيرة الصريحة فى كلا العهدين. وإليك بعضها ، وبعضها القليل فقط، لأنها أكثر من أن تقتبس:

« اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد» تثنية ٦ : ٤ـ وفى العبرانية كلة رب بالمفرد، وكلة إله بالجمع ، أى « الرب آلهتنا رب واحد . وقد اقتبس يسوع هذه الآية ودعاها أولى الوصايا (مرقس ١٢ : ٢٩).

« هكذا يقول الرب ملك إسرائيل، وفاديه رب الجنود ، أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى » أشعياء ٤٤ : ٦ـ« ليس إله آخر إلا واحدا . لنا إله واحد » يعقوب ١٩:٢ ـ « أنت تؤمن أن الله واحد. حسنا تفعل» . فالخلاف ليس فى الوحدة بل فى كيفية الوحدة .

ومن الحقائق الأولية المسلَّم بها بداهة أن المخلوق مهما سما ، لايستطيع أن يدرك كنه الخالق. والخالق الذى يدرك المخلوق كنهه ليس خالقا . فلما أراد يسوع أن يوضح لنيقوديموس حقيقة التغيير الذى يؤهل الإنسان لدخول السماء، والذى بدونه لايستطيع أن يرى ملكوت الله، استعار كلة ولادة : « ينبغى أن تولدوا من فوق ». فلم يفهم نيقوديموس العالِم المعلم الشيخ ذلك، فأجاب يسوع « ان قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون ان قلت لكم السمويات » ، أى ان بسطت لكم الحقائق السموية بلغة بشرية ، لاتفهمونها فكيف تفهمونها ان كلتكم بلغة السماء ، وهى اللغة التى قال عنها بولس «لا يُنطق بها ولا يسوغ لإنسان أن ينطق بها » ، وهذا هو السبب فى أن الذين قاموا من الموت عجزوا عن التعبير عما شاهدوه، لأن لغة البشر عاجزة عن ذلك.

أسماء الصفات

إن كل أسماء الله فى كل لغات البشر هى فى الحقيقة صفات . ولاعبرة لقول

مَن قال ان اسم الله فى العربية مرتجل، وانه هو سمَّى نفسه به. وعلى فرض صحة هذا، فهو قد سمَّى نفسه للبشر بلغة البشر. والحقيقة أن اسم الله صفة، معناه «القدير» مثل إيل العبرانية. وفى العربية ٩٩ إسما لله كلها صفات. ولعلَّ أقرب ماوصف به البشر الله، قولهم « الله روح » وهو مستعار من الريح.

وما أكثر الآيات عند المسيحيين والمسلمين التى تنسب إلى الله الأجزاء كالقول ــ يد الله . عين الله . رجل الله . قلب الله . وتنسب إليه الإنفعال كالقول ــ غضب ، وفرح ، أو سرَّ ، وندم إلخ . وماذلك إلا لتقريب الحقائق إلى أفهامنا بلغتنا .

بل اننا فى كثير من الأحيان نجد أن لغة البشر عاجزة عن التعبير عن أفكار العلماء النوابغ بلغة البشر أنفسهم ، مهما اجتهدوا أن يبسطوها لنا . ولقدحاول كثيرون أن يبسطوا لنا أفكار الفيلسوف انشتاين فى النسبية، ولكنها لاتزال غير مدركة عند كثيرين وأنا منهم . فاذا كنا إلى الآن عاجزين عن إدراك ماهية المادة ، أفننتظر أن ندرك ماهية خالق المادة ؟

أمسك الإمبراطور تراجانوس أمام الحبر يشوع، صنما كان يعبده ، وقال له: أرنى إلهك كما أريتك إلهى. فقال له الحبر: تعال غدا عند الظهر فأريك إلهى . ولما جاء أخذه إلى السطح، وأشار إلى قرص الشمس، وقال له: حدِّق جيدا فإلهى هناك ، فبهر نور الشمس بصره ، ولم يقدر أن يفتح عينيه ــ فقال له الحبر ، هذا نور إلهى ، فان كنت غير قادر أن تفتح عينيك فى نوره، فكيف تقدر أن تراه هو .

وقد شبَّه ابن خلدون فى مقدمته العقل بميزان الصائغ ، فانه يصلح لوزن الذهب بمقدار معين ، وإذا وزنت فيه مافوق طاقته تحطم . هكذا كل من يريد

أن يزن الله بما هو فوق طاقة العقل، يتحطم ذلك العقل، ويضلّ في غياهب الكفر والإلحاد. إذاً يجب أن نميز بين ماهو فوق طاقة العقل، وبين ما هو ضد العقل، فعقيدة الثالوث ليست ضد العقل بل فوق العقل . ومع قصور لغة البشر عن إدراك كنه هذا السر ، فقد رأى بعضهم أن يذكر تشبيها لذلك ، مثل جرم الشمس ونورها وحرارتها ، والكل شمس واحدة . أو أن كلا من الماء والهواء مؤلف من أكثر من عنصر واحد وهو ماء واحد وهواء واحد، أو كما ورد فى قانون مار اثناسيوس « كما أن النفس والجسد إنسان واحد ، كذلك الإله والإنسان مسيح واحد » .

ومن أقوال أبى بكر الصديق ـ «العجز فى طلب الإدراك إدراك. والبحث فى عين ذات الله إشراك » . وقال أحد مشايخ الإسلام فى الاستانة « لا أعلم » جواباً لسائل سأله سؤالا لا يعلمه . فأجاب السائل ـ أو أنت فى هـذا المقام وتقول « لا أعلم » ـ أجابه الشيخ ـ أنا فى هـــذا المقام لـكى أقول لا أعلم .
وقال الإمام علىٌّ .

« كيفية المرء ليس المرء يدركهـا
فكيف كيفية الجبار بالقـــدم »
« هو الذى أنشأ الأشياء مبتدعاً
فكيف يدركه مستحدث النسم »

واعترف أيوب الصديق قائلا ـ « قد نطقت بما لم أفهم بعجائب فوق لم أعرفها » أيوب ٤٢ : ٣ـ اقرأ أيضاً مزمور ١٣٩ ـ وهتف الرسول بولس حين واجه أحد أسرار الله التى لاتدرك « يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص، وطرقه عن الاستقصاء » رومية ١١ : ٣٣ .

فإن كانت هذه أحكامه وطرقه ، فماذا عساه أن يقول عن عين ذات الله .

ان قال هكذا الأئمة مثل أبى بكر وعلى، وإن قال هكذا أيوب وداود وبولس، الذين تجلّى عليهم وحى روح الله، فماذا عسانا نقول نحن؟

عقيدة الثالوث فى غير المسيحية :

هذه العقيدة منتشرة فى أهم الأديان الوثنية قديماً وحديثاً . فنى ديانة الفينيقيين نرى أنه كان لكل عاصمة من عواصمهم ، ولكل مستعمرة من مستعمراتهم، ثالوث . وقد وجد المنقبون فى جبيل ثالوثاً ، وهو إيل وتموز (انظر حزقيال ٨ : ١٤) وعولم ، أى القـــدير والسيد والأزلى . وثالوث المصريين أوزريس وإزيس وهوروس ، وثالوث الهنود بوذا وبرهما وفيشنا ، وعند الصينيين ثالوث يعبّرون عنه بمثلث متساو الأضلاع والزوايا .

وإن قيل ما علاقة ذلك بثالوث المسيحيين ، وهل هم أخذوه عن الوثنيين ؟ أقول لم يأخذه المسيحيون عن الوثنيين ، غير أن عقيدة الثالوث فى المسيحية وغيرها مستقاة من مصدر واحد، مثل عقيدة وجود إله أو عبادة إله. فليس من أمة بلا معبود أو عبادة . ولم أذكر وجود هذه العقيدة عند غير المسيحيين إلا للدلالة على أن مصدرهـا واحد هو الله نفسه ، وأنها غير موضوعة وضعاً من البشر، وإن تكن فى الوثنية مشوهة مبعثرة بعيدة عن الوحدانية السماوية . واستشهادى بها إنما هو من قبيل الاستدلال على الكل من الأجزاء المبعثرة ، كما يستدل علماء الآثار بمثل ذلك فى أبحاثهم ، فيستدلون من عظام حيوانات مبعثرة مع فقد بعضها ، على حجم ذلك الحيوان وغير ذلك من خصائصه ، كالدينصور .وليس الاستدلال على كمال عقيدة الثالوث من آثارها وأجزائها فى الأديان الأخرى، أقل وضوحاً من الاستدلال على وجود الدينصور من آثاره وأجزائه المبعثرة .

عقيدة الثالوث فى الاسلام .

ومع كل تشديد المسلم على عقيدة التوحيد ، فلا تعجب إن قلت لك إن

عقيدة الثالوث موجودة فى القرآن، كما هى فى الكتاب المقدس ، بل هى ليست فى العهد القديم أكثر وضوحاً مما هى فى القرآن وإليك البيان :

« قال (الله) يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت » سورة ص ٧٥ « وما خلقنا الجن والإنس إلا ليعبدون » الذاريات ٥٦. « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » الأنبياء ١٦. « أو لم يروا إنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً فهم لها مالكون » يس ٧١. « أم خلقنا الملائكة إناثا » الصافات ١٥٠. « إن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فسلْ الذين يقرأون الكتاب من قبلك » يونس ٩٤.

ومما نلاحظ هنا :

١ — ان الآيات التى يتكلم الله فيها عن نفسه بصيغة المفرد ، والدالة على الوحدة فى القرآن ، ليست أكثر مما يتكلم فيها عن نفسه بالجمع ، الدالة على التثليث .

٢ — لا يمكن أن يقال إن ضمير الجمع للتعظيم. فهل هو جلّ جلاله يعظّم نفسه أحياناً ولا يعظمها أحياناً أخرى . بل إن المفرد دلالة على الوحدة، والجمع على التثليث .

٣ — لا يمكن أن يقال انه بضمير الجمع أشرك الملائكة معه (ا) لأنهم مستثنون لقوله « أم خلقنا الملائكة » (ب) حاشا لله أن يشرك معه فى الخلق إلا مَن كان مساوياً له فى الذات والصفات .

٤ — قد نسب القرآن الخلق للمسيح « إنى أنا (المسيح عيسى) أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » آل عمران ٤٩ والبقرة ١١٣ — ومَن يخلق حياً يكون إلهاً . أما القول « بإذن الله » فيصدق على المسيح من جهة الجسد . وقد قال هو عن نفسه فى الإنجيل « أنا لا أقــدر

ومن يذهب من أجلنا »[1] . لاحظ القول « أرسل » بالمفرد و « من

الأقدس ، ويوصف غالبا بلفظة «قدس» و «قدوس» ، فيقال الروح القدس (متى ١ : ١٨ و ٢٠) وغير ذلك كثير.

ويُراد به فى الكتاب أقنوم ذات. يقال عنه فى الغيبة هو ، وفى الخطاب أنت . ويقول هو فى التكلم: أنا. وهو إله مساو للآب والابن فى الجوهر والذات والصفات. فله كل جوهر اللاهوت وذاته وصفاته كما ترى مما يأتى :

١ ـ قد اشترك فى الخلق وسمِّى روح الله، فقيل « كان روح الله يرفّ على وجه المياه ». وهو أحد الأقانيم المتضمن فى ضمير الجمع فى القول « نصنع » (تكوين ١ : ٢ و٢٦)، بدليل ماورد فى أيوب ٣٣ : ٤ « روح الله صنعنى » ومزمور ١٠٤ : ٣٠ «ترسل روحك فتخلق ». أنظر أيضا حزقيال ٣٧ــ والدليل على كون الروح هو أحد الأقانيم فى ضمير الجمع، قول الله نفسه عن نفسه « من يذهب من أجلنا » أيام ٦ : ٨ ــ وقال بولس ان المتكلم هو الروح القدس «حسنا كلّم الروح القدس آباءنا» الخ. وهو يشير إلى هذه الآية (أعمال ٢٨ : ١٥) وفى مزمور ٩٥ : ٧ و ٨ « اليوم إن سمعتم صوته (صوت الله) فلا تقسوا قلوبكم كما فى مريبة مثل يوم مسَّة فى البرية ». وقال الرسول فى عبرانيين (٣ : ٧) إن هذا الصوت هو صوت الروح القدس .

ولما أغاظ بنو إسرائيل الله فى العهد القديم وأحزنوه، قيل ان تصرفهم كان ضد الروح القدس(أشعياء ٦٣ : ١٠) « تمردوا وأحزنوا قدسه » ، وأيد ذلك

(وجود الله)أنا هناك والآن السيد الرب أرسلني وروحه ».وقال « روح السيد الرب عليّ لأنه مسحني ... أرسلني» الخ (أشعياء ٤٨ : ١٦ و ٦١ : ١).يؤيد هذا بشارة الملاك للعذراء وشهادة يسوع نفسه (لوقا ١ : ٣٥ و ٤ : ٨) . وهو الناطق بالأنبياء « لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » ٢ بطرس ١ : ٢١

(٢) ذكر الروح القدس مع الاب والابن ممتازاً عنهما وواحداً معهما ، قال يسوع «عمدوهم باسم (لا بأسماء) الآب والابن والروح القدس». وفي البركة الرسولية « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس مع جميعكم » ٢ كورنثوس ١٣ : ١٤

(٣) مع أن ترتيب الأقانيم الآب أولا ، والابن ثانياً ، والروح القدس ثالثاً،هو الترتيب الغالب،فليس هو الترتيب الوحيد، كما رأيت في البركة الرسولية، حيث ذكر الابن أولا. وكما جاء في رسالة يهوذا آية ٢٠ « مصلّين في الروح القدس، واحفظوا أنفسكم في محبة الله منتظرين رحمة ربنا يسوع المسيح للحياة الأبدية »،حيث ذكر الروح القدس أولا .

« المجد للاب والإبن والروح القدس ، كما كان من البدء، وهو الآن ، وسيكون إلى دهر الداهرين آمين » .

هذه هي التمجدة المسيحية من أقدم أزمنة الكنيسة إلى الآن، وستدوم إلى أبد الدهور .

الله الآب ، الله الابن ، الله الروح القدس(١)

الإنسان البشرى تواق أبداً إلى الحياة ، والحق ، والحب . وهو عاجز عن أن يبلغ ملء مراده فى حياته على الأرض . ذلك لأن الحياة هنا مختلطة بالموت ، والحق ممتزج بالباطل ، والحب بالكراهية . من ثم يرى الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يبتعد عن هذا العالم — على الأقل فى أنبل سويعاته — ليسعى وراء الحياة الطاهرة ، والحق الطاهر ، والحب الطاهر ، الذى هو الله .

على أن سعى الإنسان إلى معرفة الله عن طريق التفكير المنطقى حول الأشياء المنظورة فى العالم لا تهىء له إلا فكرة ناقصة عن الله . إنها أشبه بالمعرفة التى يحظى بها المرء عن فنان بارع بمجرد النظر إلى تحفه الفنية الرائعة . وفى طوقى أن أتفرس فى الروائع التى أبدعها أمهر الفنانين ، من الآن إلى يوم الدين ، وأقف خاشعاً أمام جمالها وروعتها ، ومع ذلك لن أقدر أن أعرف شيئاً عن أفكار الفنان التى تراوده ، وآماله وأشواقه التى تتردد بين جوانحه .

كذلك أقدر ان أعرف شيئاً عن الله ، عن قوته اللانهائية ، وقدرته ، وجماله ، بالتفكير فى الكون البديع الذى صنعه ، ولكن لن اقدر ان اسبر غور فكره ومحبته . ان الخليقة لا تقدم لى إلا وشلاً يتقطر من معرفة الله . لذلك كان طبيعياً ان يسعى الإنسان للاستزادة من هذه المعرفة ، وان يفكر عقله فيما وراء المرئيات ، كما فعل فيلسوف الأغريق القديم افلاطون ، يوم تساءل قبل المسيح بقرون طوال قائلا :

« إن كان هناك إله واحد ، ففيمَ يفكر ، لأننا نفترض انه كائن عاقل ، وكل كائن عاقل يفكر فى شىء ما . . وإن كان هناك إله واحد ، فمن يكون موضع حبه . والمحبة من مقومات السعادة والغبطة » .

هذه الأسئلة وما ماثلها ، رفعتها عقول البشر إلى السموات العليا لعلها

---

(١) « كتاب ، أوراق متناثرة ، للمؤلف .

تستجيب إلى هذا النداء. ولن يأتى الجواب إلا من الله ذاته. وقد جاء يوم نزل ربنا إلى هذه الأرض ، واعلن لنا ذات الله وحياته فى اقانيم ثلثة : الله الآب ، الله الابن، الله الروح القدس. وهذا الإعلان هو سر الثالوث الأقدس الذى يجيب عن أسئلة الفلاسفة، وهو سرٌ يفوق العقل كما قلنا، ولكنه لا يناقضه، كما سنرى الآن..

إن دراسة فكر الإنسان وارادته تقدم لنا صورة ـ ولو باهتة الألوان ـ عن فكر الله وإرادته . وإذا حللنا « فكر » الإنسان نراه يتألف من عناصر ثلثة فهو **كلمة** ، وهو **مولود** ، وهو **طابع شخصيته** .

الإنسان يفكر فى بعض المعانى مثل « العدل » و « الإيمان » و « الثبات » و « المحبة » . هذه الأفكار « **كلمات** » حتى قبل ان أنطق بها ، لأن الكلمة الصوتية ان هى إلا تعبير عن الكلمة الداخلية الكامنة فى عقلى. وهذه الأفكار ـــ او الكلمات الكامنة ـــ « **مولودة** » . فمثلا منذا الذى جلس يوما إلى مائدة عشاء مع « العدل » ! او من ذا الذى سمع ان « المحبة» خرجت يوما إلى نزهة خلوية ! او مَنذا الذى عرف حجم او ميزان او لون « العزم » أو « الثبات» . ما من امرىء رأى أو لمس أو تذوق هذه الأفكار. ومع ذلك فهى حقائق لا سبيل إلى إنكارها . ولكن من أين جاءت ؟ إن العقل قد أبدعها او ولدها ، لا فى مولد طبيعى ، كما تلد الحيوانات صغارها ، بل فى توالد روحى، الذى به تلد الأفكار أو الكلمات الكامنة .

واخيراً « **فكر الانسان** »قد يأخذ « **طابع** » شخصيته . ولئن تكن بعض الأفكار تافهة مألوفة لا تعيها الذاكرة ولا يعبأ بها أحد ، إلا ان البعض الآخر يضع فيها المفكر حياته وقلبه وحسّه ووجوده وكيانه كله، بحيث تغدو هذه الأفكار قطعة من ذاته، تحمل شخصيته وروحه،فنعرفه بها حق المعرفة. وانت قد تميز افكار ابى العلاء المعرى وشكسبير وغيرهما من اشعارهم ،وافكار بسكال وابن

رشد والفارابي من فلسفتهم ، وافكار بيتهفن وهندل وباخ من موسيقاهم — لأن هذه الأفكار قد صارت طابع شخصياتهم .

والآن لنطبق هذا كله على فكر الله: الله يفكر ، وفكره هو « **كلمة** » ، كما ان فكرى هو كلمتى بعد ان أنطق بها . وهذا الفكر يُولد فيسمى « **ابنا** » . وأخيراً يعبِّر هذا « الكلمة » أو « الابن » عن شخصية الله . على ان ثمة فارقاً بين الله وبين الإنسان في ميدان التفكير . فللانسان فِكَر كثيرة وآراء متباينة ، ولكن لله « فكراً » واحداً ، وعنده « كلمة » واحدة . وهذا « الكلمة » الذى هو « فكر » الله لا نهائى ومعادل لله ، فريد لا مثيل له ، البكر من روح الله .

هو « **الكلمة** » الذى يعلن لنا ذات الله وصفاته .

هو « **الكلمة** » الذى به خُلقت كل الأشياء .

هو « **الكلمة** » مصدر الحكمة فى العالم . فالكشوف العلمية الحديثة ، وعلوم الأحياء ، والطبيعيات والكيمياء ، والفلسفة العقلية ، واللاهوت ، وعلوم الرعاة والمجوس الحكماء — هذه كلها مصدرها « **الكلمة** » أو حكمة الله .

و « **كلمة** » الله اللانهائية ، لا يدعى فقط « **كلمة** » للدلالة على « **حكمة** » الله ، بل يدعى « **ابنا** » لأنه مولود . وفكر الله أو « **كلمته** » لا يجىء من العالم الخارجى ، بل هو مولود بروحه . ولذلك سُمِّى « إبناً » . وكما أنه فى النظام البشرى ، يدعى أصل التوالد الطبيعى « أباً » ، كذلك سُمِّى أصل التوالد الروحى فى الثالوث « **الآب** » ، والمولود منه « **الابن** » ، لأنه صورة كاملة للآب وشبيه به . وإن كان فى وسع الأب البشرى ان ينقل إلى ابنه نبل الأخلاق ، وحلو السجايا ، وجميل الخصال ، فبالأولى ينقل الآب السماوى إلى « إبنه الأزلى » كل صفاته الحسنى ، وكمال وجوده ، وأزليته وخلوده !

وأخيراً تمثّل هذا « الـكلمة » أو « الابن » الأزلى، « بشراً سويّاً » .
وفى هذا « الـكلمة » أو « الابن » قد أودع الله حياته ، وكماله ، ولا نهائيته.
فهو حىٌّ كما أن الله حىٌّ ، وكامل كما ان الله كامل، ولا نهائى كما ان الله لا نهائى.
والآب لم يوجد أولا ثم فـكر بعد ذلك ، لأن الآب والابن واحد فى الأزلية .
والله غير قابل للتغيير ، فلا زيادة فيه ولا نقصان . ومن ثم استطاع الله إذ نظر إلى « **كلمته** » إلى « **ابنه** » إلى « **صورته** » ، ان يقول فى هيام الأبوة الحقة « أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك » — اليوم ، أى منذ الأزل ، وإلى الأبد .

وعدْ معى — أيها القارئُ الـكريم — إلى أصل العالم ونشأته ، وكدِّس القرون فوق القرون ، والأجيال فوق الأجيال ، والدهور فوق الدهور ،وأسمع هذه القولة: « **كان الكلمة عند الله** ».عدْ معى إلى ماقبل خلق الملائـكة والإنسان والحيوان ، والأرض والسماء ، تسمع القولة عينها: **كان الكلمة عند الله** .

هو « **الكلمة** » الذى سمعه البشير يوحنا يوم كتب فى استهلال بشارته « فى البدء كان الـكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الـكلمة الله » — كما قلنا فى فصل سابق . وكما أن أفـكارى المستكنة لا تظهر إلا عند الكلام ، هكذا — على حد قول البشير « الـكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا » . وهذا « الـكلمة » هو الأقنوم الثانى فى الثالوث الأقدس ، هو بداية كل الأشياء ونهايتها ، هو الكائن قبل الخليقة ،هو ملك الـكون الذى صنع كل شىء .

إن للمسيح تاريخاً سابقاً ، ندرسه، لا بين صخور الأرض وعاديات الزمن، لا فى كهوف الإنسان ومغاور السلف ، لا فى مجاهل الغابات وبطون الثرى ، بل فى حضن آب أزلى . . هو الذى صنع التاريخ وشطر الزمن ، ما قبله وما بعده . وعلى مقتضى هذا التاريخ يؤرخ البشر أحـداث تاريخهم . وإذا نحن

أنكرنا ان « الكلمة صار جسداً » ، وأن ابن الله صار ابن الإنسان ، فكأننا ننكر التاريخ ذاته .

الروح القدس

وإن كان الله هو مصدر الحياة والحق والخير فى العالم ، فلا بد أن تكون له إرادة ، وأن يكون له عقل، وأن تكون له محبة، وأن يكون له فكر. ومن حقائق الوجود أن كل كائن يحبُّ كماله . فكمال العين هو اللون، وهى تتعشق روعة الشمس فى مغيبها. وكمال الأذن هو الصوت، وهى تتعشق النغم الموسيقى العذب. ونحن نعلم أن المحبة متبادلة بين المحب والمحبوب . وبينى وبين مَن أحب عروة وثقى تربطنا معاً . وفى ذات الله ، الآب يحب الابن الذى ولده ، وهو رسم جوهره. والابن يحب الآب الذى ولد منه. أحدهما يفكر فى الآخر، وأحدهما يحب الآخر محبة قوية دافقة كاملة بحيث تخلق بينهما رابطة حية . والمحبة فى مثل هذا الطور لا تنطق ولا تصيح، ولا تعبّر عن نفسها بألفاظ منطوقة ، ولا بأنغام مسموعة ، ولكنها تعبِّر عن نفسها — كما يحدث لنا نحن البشر — بزفرة أو أنَّة أو نسمة . لهذا سمِّى الأقنوم الثالث فى الذات الإلهية « الروح القدس » .

وهذه النسمة إلهية ليست زائلة كنسماتنا نحن البشر ، بل هى روح ازلى خالد . ولست ادرى، ولا يدرى غيرى، كيف يعمل هذا الروح. على اننا نؤمن انه حلَّ فى العذراء المباركة ، فسمِّى المولود منها « ابن الله ».

وهو بعينه الروح الذى تحدث عنه المسيح مع نيقوديموس يوم حثَّه على ان يولد ثانية بالماء والروح.

هو بعينه الروح الذى أعطاه لتلاميذه ، يوم قال لهم : « اقبلوا الروح القدس » .

هو بعينه الروح الذى قال عنه سيدنا ليلة العشاء الأخير « هو يمجدنى ، لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » .

هو بعينه الذى قال عنه أيضاً : « ومتى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق » .

هو بعينه الذى هبط على الرسل يوم الخمسين، يوم ميلاد الكنيسة ، بل هو بعينه الروح الذى يسوس الكنيسة اليوم ويدبرها ويهدى كل أبنائها إلى الحق..

وبقاء الكنيسة حتى اليوم على الرغم مما لاقت من إعنات واضطهاد ، وعلى الرغم من الزعامة الهزيلة والقيادة الضالة التى تولّت أمرها فى كثير من العصور، لهو أبلغ دليل على عمل ذلك الروح القدس .

وكما أن الزوايا الثلاث فى المثلث لا تجعل منه ثلاثة مثلثات ، بل واحد . .

وكما أن الحرارة والقوة والنور فى الشمس لا تجعل منها شموساً ثلاثاً ، بل واحدة .

وكما أن الماء والهواء والبخار كلها مظاهر لمادة واحدة .

وكما أن الشكل واللون والرائحة فى الوردة لا تجعل منها ثلاث ورود ، بل واحدة .

وكما أن النفس والعقل والإرادة فى الإنسان تجعل منه إنساناً واحداً .

هكذا ، مع الفارق الكبير فى هذا السرّ العميق ، تتألف ذات الله من أقانيم ثلثة ، وهو إله واحد .

هذا هو الثالوث الأقدس فى المسيحية . وكمسيحى أشهد أن « لا إله إلا الله لاشريك له ، واحد أحد ، فى أقانيم ثلثة ، الآب والابن والروح القدس ، له المجد والكرامة والسلطان إلى أبد الآبدين .

هل لله شخصية

نمت عقيدة الثالوث ، وترعرت فى عالم وقفت فيه وحدانية اليهود وقفه مناهضة ضد الآلهة الكثيرين والأرباب الكثيرين فى العالم اليونانى الرومانى . وكان المسيحيون الأولون يهوداً تشبثوا كل التشبث بعقيدة وحدانية الله . وفى هذه العقيدة كان عليهم أن يدخلوا اختبارهم الشخصى الذى عرفوه فى يسوع المسيح . فلما أخذ حبهم له يزداد شيئاً فشيئاً ، ويفهمون رسالته،ويقدرون أهمية الإعلان الذى جاء به اليهم عن الله بحياته وشخصيته وأقواله وآياته ، اضطروا أن يعيدوا النظر فى معنى الوحدانية التى آمنوا بها . ولما اختبروا فى حياتهم اليومية — بعد قيامته وصعوده — إلهام الروح القدس وقوته ، وازداد فهمهم لشخصية سيدهم المسيح — أدركوا شيئا فشيئاً أن وحدانية الله تنطوى على معنى أعظم وأعمق مما عرفوا أو تصوروا من قبل . ومن ثم تشكلت عقيدةالثالوث المقدسة فى عقولهم، وكانت بمثابة دفاع عن الوحدانية .

وفى الكتاب المقدس أعلن لنا الله ذاته كائنا ذا شخصية . ولن يمكن أن تكون شخصيته أقل أو أدنى من شخصية خلائقه البشرية . وللشخصية اسمى وضع للفردية وأكمله كما نعرفها ،واسمى فكرة عن الله وأليقها أنه ذو شخصية، كما يعلمنا الكتاب المقدس .

ولكن ما الشخصية ؟

كلنا يعرف الشخصية ، ولكن الفلاسفة وعلماء النفس لم يستطيعوا أن يعرفوها ، ولعلها من الحقائق التى تتحدى كل تعريف

على أنه يمكننا القول ان«الشخص» هو أكمل وأنسب وضع للفردية التى نعرفها . فالشخص هو فرد يشعر شعوراً ذاتياً بنفسه ،ويتمتع بالإرادة والمسئولية الادبية وبشىء من قوة الإبداع (والمرجح أن الحيوانات الأخرى غير الإنسان

تعوزها القوة على هذا الشعور الذاتى ومعرفة نفسها). فالطفل قبل أن تستكمل فيه المسئولية الأدبية، لا يعتبر شخصاً كاملا .

والشخصية وحدة فى التفكير والعمل ، ولكنها وحدة فى تعدد . فهل نحسب الحجر مثلا وحدة متحدة ؟ قد يكون ذلك . ولكن المخلوق البشرى أكثر تعدداً ، وفى الوقت نفسه أتم تماسكا ووحدة . أقطع قطعة من الحجر ، فلا يتأثر الباقى منه إلا قليلا . ثم اقطع قطعة من مخلوق بشرى ،فيتأثر الكيان البشرى كله ويتألم ، لأن وحدته لا تفسد بتعدد اجزائها ودقة تركيبها ، بل تنتفع وتقوى .

والشخصية تتألف من عناصر العقل والإرادة والعاطفة، وتعبِّر بها عن ذاتها. وقد تبدو هذه العناصر متميزة منفصلة ، ولكنها فى الواقع مقترنة ومرتبطة معا، بحيث لا وجود للواحدة بدون الآخرين .

ونحن نعلم أن الذاتية أو الشخصية مستحيلة ، لا معنى لها بدون شىء آخر غير الذات . فشعورنا بالذات يبدأ عادة بادراكنا الفرق بين أنفسنا وبين الأشياء الأخرى المادية ، أو بيننا وبين الآخرين . فكيف يمكن تحقيق هذا « بالنسبة لله » ؟ وقبل خلق الكون — ما « هذا الشىء الآخر غير الذات »، حين نفكر فى الكائن الإلهى ؟

هنا تسعفنا العقيدة المسيحية

تعلّمنا هذه العقيدة أن الله واحد، لا كوحدة مجردة ، ولا كالرقم واحد فى علم الحساب ، بل كاتحاد — والاتحاد، يقتضى عناصر متناسقة تعمل معا كفرد واحد . وما دام لله شخصية ، وجب أن يكون له هذا الشعور بالذات . والشعور بالذات أو معرفة الذات — وهو غير كامل فينا — يتطلب فى الشخص الواحد وجود **الذات العارفة ، والذات المعروفة ،** ووجود العلاقة

بينهما **وهى المعرفة** . وما دام لله شخصية وجب أن يكون الشعور فيه كاملا ، وأن تكون معرفة الذات كاملة . وفى هذه الذات الإلهية الواحدة يجب أن يكون العارف والمعروف والمعرفة . وهذا الحق ممثل لنا فى عقيدة الثالوث فى الوحدة .

والشخصية البشرية الناقصة تقتضى طاقة المحبة. وما دام الله شخصية كاملة، فلا بد أن تكون له طاقة المحبة كاملة . وقد تضمن الوحى المسيحى عبارة « الله محبة » . ولكن الله سرمدى ازلى . وهو إن كان محبة منذ الأزل ، قبل كون العالم، فلا بد أن يكون فى داخل ذاته تبادل للمحبة، وإذا وجد المحب والمحبوب فى داخل ذاته،فإن المحب يحب المحبوب وبالعكس. وبين الإثنين تلك العلاقة الازلية التى هى روح المحبة. وهؤلاء كلهم ـ المحب والمحبوب والروح ـ أشخاص أو أقانيم متساوية، وهؤلاء كلهم الله الواحد، بدون تمييز بينهم، والشخصية الأزلية بدون هذه العلاقة المتبادلة فى داخل ذاتها لا يمكن أن تكون شخصية ازلية .

ولكن يجب أن نذكر أن فى كل الأعمال الإلهية تشترك الذات الإلهية كلها. فالله منذ الازل هو الذى يعلم ويفكر ويريد ويدبر ويخلق ويأمر . والله منذ الازل هو الذى يحب ويتنازل ويتعطف ، ويدبر الوسائل ،ويمسك بالانسان ، ويعلن الحق، ويفدى . والله منذ الازل هو الذى يجذب الانسان اليه، وينير، ويلهم، ويحى .

وتعتصم العقيدة المسيحية بهاتين الحقيقتين اللتين أشرنا اليهما : وهما أن الشخصية فى الله وفى الانسان على السواء ،تقتضى تنوعاً كما رأيت فى تبادل المعرفة والمحبة ، وفى الوقت نفسه تقتضى اتحادا فى كل الاعمال التى ذكرت . فتقول العقيدة المسيحية ان الثالوث الاقدس يشمل أقانيم ثلاثة: الله الآب ، والله الابن والله الروح القدس .

وهؤلاء الاقانيم الثلاثة ليسوا آلهة ثلاثة ، وليسوا أجزاء ثلاثة فى الذات الإلهية . بل هم الله الواحد الأحد المثلث ، الله الواحد ذو الشخصية المثلثة . « الرب الهنا رب واحد» .

ولكن ما الذى تعنيه الكنيسة عند قولها « أقانيم ثلاثة » ؟ حاولت الكنيسة أن تعبِّر عن معرفتها واختبارها عن الله كما أستعلن لها . وكان عليها أن توفق بين عقيدتها اليهودية فى الوحدانية، وبين هذا الاختبار الجديد الذى عرفته فى يسوع المسيح وروحه .

وبعد تجربة ألفاظ ومصطلحات كثيرة، استقر رأى الكنيسة على التمسك بهذا الاصطلاح « أقانيم ثلاثة فى إله واحد » . ونحن نغتبط لهذا التوفيق لأن كلة « أقنوم » فى أصلها معناها «شخصية»، وتحمل فى ثناياها معنى الحياة والعمل أكثر من غيرها من الألفاظ المجردة التى حفلت بها الفلسفة اليونانية . ونعتقد أن هذا الاصطلاح أقرب ما يكون إلى إعلان الكتاب المقدس عن الاله الحىّ الذى يعمل ، مع أننا نعلم أنه ليس فى الألفاظ البشرية ما يصلح تماما للتعبير به عن الذات الإلهية .

وهنا كلة التحذير واجبة على أى حال ، لأن الانسان العصرى يفكر فى الشخصية أو الأقنوم كفرد منفصل له شعور مستقل بذاته . على أنه ينبغى ألاَّ نطبق هذه الفكرة الحديثة عن الشخصية المستقلة، على الكلمة « أقنوم »، كما أستخدمت فى القرن الرابع عبارة « أقانيم ثلثة فى إله واحد » . فمهما يكن قصد الآباء الأولين من هذه العبارة ، فإنهم لم يعنوا بها مطلقاً « ثلاثة أفراد» منفصلين،يشعر كل منهم بذاته شعوراً مستقلا. ورغبة فى الاستمساك بوحدانية الله،قيل انه ينبغى أن نترجم معنى عبارة « ثلثة أقانيم » بقولنا « ثلاثة مظاهر حيّة» . ولكن بينما نتجنب بهذا التأويل فكرة الانفصال، فإننا نفقد

فكرة التبادل . والتبادل من العناصر الجوهرية فى الذات الإلهية كما رأينا .

وهنا يجب أن نذكر أن التشبيهات البشرية عرضة للانهيار . فمن الحق أن نقول ان كل قيم الشخصية البشرية متضمنة فى الذات الإلهية ، ومع ذلك فلا مندحة لنا عن التسليم بأن شخصية الله، الذى خلقنا على صورته، أرقى واسمى من كل الوجوه من الشخصيات البشرية التى خلقها. على أنه يجب أن تشبه شخصية الله شخصية الانسان إلى حد ما ، والاّ ما استطاع الانسان أن يعرف الله .

الله معلن لذاته

ان الله قد تكلم وأعلن ذاته للانسان . فمراراً كثيرة نلتقى فى التوراة بعبارات مثل «وقال الله ». أو «هكذا قال الرب». والكتاب المقدس نفسه — كمجموعة من الأسفار — يقال عنه فى أحيان كثيرة « كلمة الله». وهو ليس كلمة الله لأنه تعالى قد أملاه املاءً ، ولا لأن كلماته متضمنة فقط فى الشذرات المصدرة بعبارة مثل «قال الله»، ولكنه «كلمة الله» لأنه يشمل إعلانه عن ذاته ، ويتحدث مباشرة إلى القلب وإلى الضمير ، كأنه رسالته وكلماته وإعلانه عن نفسه.

ونحن نسأل « مَن الذى يتكلم » ، وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد: الرب الاله ، وهو وحده المعلن عن ذاته .

والحق أن الله فى تكلمه مع الإنسان وإعلان ذاته له ، إنما يستخدم الأساليب والوسائط. فكلامه ينتقل إلينا عن طريق الخلائق البشرية — كالأنبياء مثلا — الذين جاءت إليهم كلمة الرب بطريق عقولهم، وبواسطة اللغة البشرية، والآيات والعلامات. وللاعلان وضعه وشكله . ولكن هذا الشكل ، أو هذا العقل البشرى ، أو اللغة البشرية ، أو العلامة ، ليست هى موضوع الإعلان . فإذا قلت مثلا « ان هذه العلامة ، أو هذا الإنسان الملهم، هو إعلان عن الله »، إنما أقصد بهذا القول ان

تلك العلامة أو ذلك الإنسان وسيط ودليل ومرشد إلى الإعلان الذى يعلنه الله عن ذاته . والأسفار المقدسة يقال عنها « كلمة الله » بمعنى أنها تشهد للاعلان الذى لن يقدر أن يقوم به أحد غير الله ذاته . وليس الأنبياء والرسل معلنين ، إنما هم شهود فقط لإعلان الله.

فالله نفسه هو الذى يتكلم ، وهو الذى يعلن عن ذاته . لا أحد يقدر أن يعلن الله للناس غير الله نفسه . وإذا آمنا بهذا يجب أن نؤمن أيضاً أنه يخبرنا مَن هو . الله نفسه هو المعلِن وهو نفسه المعلَن. وفضلا عن هذا فهو صاحب الفكر والعمل . هو الذى يدبر ويكمل هذا الإعلان، حتى يحقق به الغرض الذى قصد إليه . وأما العقل البشرى أو اللغة البشرية، وهما الوسيلتان اللتان نتلقى بهما اعلان الله ، فليسا الإعلان نفسه بل مجرد شاهدين له . لذلك يحق لنا القول ان الله هو المعلِن والمعلَن والإعلان ، كما قلنا من قبل انه هو المحب والمحبوب والمحبة ، أو العارف والمعروف والمعرفة .

قلنا ان الله منذ الأزل ، هو الذى يعلم ويحب ويريد ويتعطف ، كذلك نقول أيضاً ان الله الواحد منذ الأزل هو الذى يعلن ذاته للناس ، ومن ثم قد أعطى لنا هذا الإعلان ثالوثاً فى وحدة . ولكن الثالوث فى الوحدة ليس من مظاهر الإعلان فقط ، بل هو ذات الله منذ الأزل ، لأنه حين يعلن الله ذاته ، انما يعلنها على حقيقتها كما هى منذ الازل .

فوحدة الله اذاً — بالنسبة لنا نحن المسيحيين — شىء آخر يختلف عن الوحدة الحسابية، وعن فكرة العزلة والانفصال . فأى فكرة من هاتين الفكرتين تنقص من شأن الإلهية . الله واحد، ولكن ليس مجرد وحدة . هو الإله الواحد، ولكنه ليس المنعزل المنفصل . والاعتقاد فى التمييز فى ذاته وجوهره لا يقلل من شأن وحدته ، بل بالعكس يزيدها ويحكمها ، وينأى بنا عن فكرة الوحدة الحسابية، التى تخفض من شأن الإلهية.

الختام

ألقينا فى الفصول السابقة نظرات عجلى على أديان العالم المختلفة وعرفنا خلاصات من عقائدها وممارستها . بقى علينا فى هذا الفصل الأخير أن نلخص بعض الاتجاهات الفكرية التى تلقى ضوءاً على تلك العقائد ....

دين نبى فارس :

فمنذ ثلاثة آلاف سنة ظهر فى الشرق الأوسط – التى كانت مهد كل الأديان التى عرفت الوحدانية – نبىّ الفرس « زرادشت » ينادى برسالة تشبه تلك التى نادى بها أنبياء العبرانيين . وقد توجه بهذه الرسالة إلى قبائل إيرانية تعمل فى الرعى والزراعة ، وتتعرض لاضطهاد مرير من قبائل بدوية معادية . وقد رأى النبى الفارسى فى هذا الوضع تمثيلا للصراع المحتدم بين الخير وبين الشر ، الذى يحاول دائماً الهـــدم والتدمير . وهو لذلك يقف ، مزوداً بالتعيين الإلهى ، والاستنارة الإلهية ، ليؤكد لقومه أن الحياة الصالحة ، حياة الحق والسلام والبرّ ، تسندها قوة الإله الأسمى وإرادته ، وأن قوات الشر مهما بدت حدّة شوكتها ، وشدة سطوتها ، مصيرها الزوال والفناء ، وأن الإله الصالح سيزكى نفسه فى عالم آخر .

فالحياة الخيّرة تظفر بالنصر فى المستقبل ، ولـكنها فى العالم الحاضر تحيا فى صراع مستمر لا يهدأ أواره . ولـكل إنسان فرصة للتعاون مع الإله الأسمى والمساهمة فى هذا الصراع ، لـكى يشارك هذا الإله أخيراً فى صفاته وروحه .

ونستشعر فى تعاليم زرادشت وجود ضمير فى الإنسان يميز بين الخير والشرّ ، ويفرّق بين الحياة الطيبة ، وبين السعى الأحمق وراء الملذات والنفع الذاتى . وهو يفترض ان الخير يوائم الإرادة الإلهية ، وهو التعاون مع الله . على انه مثل الأنبياء العبرانيين ، لم يبد ميلاً نحو مطارحات الفلسفة العقلية ، ولم يكن متصوفاً ولا متقشفاً يحتقر كرامة الجسد ونشاطه ، بل كان رجلاً عادياً وجد نفسه فى معترك الحياة ، فحاول أن يستمتع بها ، ولـكنه أحسّ فى ضميره بدعوة إله الخير الذى يسبغ بركته على مَن يطيعون دعوته ، ويذلُّ أخيراً الأرواح المتمردة ، ويهلك هلاكاً أبدياً الذين يخدمون قضية الشرّ .

العبرانيون :

وتلك كانت رسالة أنبياء العبرانيين ، على أن فارقاً هاماً بين هذه وتلك : وهو أن تزكية الله للخير فى نظر اليهودية الأولى اقتصر على هذا العالم ، حياة الدنيا ، وليس فى عالم آخر . ثم ان دين اسرائيل لم يقتصر على فرد بعينه . فبينما اقتصرت رسالة زرادشت على فرد واحد ، أبتلعت رسالته من بعده فى غمرة من الخرافات والخزعبلات ، نجد فى اليهودية أصواتاً متتابعة ، يتلو بعضها بعضا ، فى سلسلة من الأنبياء ، وفى تطور عجيب ، حتى تنتهى أخيراً إلى نصر باهر ، وتتجمع كلها فى مجموعة من الأسفار المقدسة الخالدة . إنها رسالة ألقيت فى فترات ، وبطرق متنوعة ، حتى بلغت ذروتها فى يسوع المسيح .

الاسلام :

وجاءت رسالة الإسلام فردّدت كثيراً من أصداء اليهودية والمسيحية ،

ولكنها أُلقيت فى وسط جديد ، وفى أوضاع فطرية لأقوام بدائية ، وتمسكت بالوحدانية المطلقة للقضاء على الأصنام والأوثان، التى كانت تعبدها تلك الأقوام.

بلاد الصين :

وفى وسط التقاليد المضطربة فى بلاد الصين نلمح فكرة السماء العليا ، التى يجب أن يأخذها « الملك العاقل » نموذجاً له ، فيصير « شريكا لله » . ثم نرى الفضيلة تنتقل مرة من طور إلى طور إلى شعبه كله « الذى يحبه » . وفى تعاليم معلمى الصين الثلاثة الذين تفخر بهم ـ لاوتز،وكنفوشيوس،ومنسيوس ـ نجد فى وسط مجموعة من الخرافات ، فكرة إلهية تزكى الآداب والأخلاق . وإننا لنرى « لاوتز » يتخذ الطريق الهندى القائم على الزهد والتقشف ، وينسحب من العالم ويتجنبه ، ومع ذلك فان هناك فكرة عميقة متأصلة يسميها «الطريق» ، وهى المبدأ الإلهى للكون الذى يجب أن تنسجم معه كل الأشياء ، وهذه الفكرة عينها قد تضمنتها تعاليم كنفوشيوس (وتلميذه منسيوس) فى وضع عملى أخلاقى . وذلك لأن كنفوشيوس وجد نفسه فى عالم مفكك مضطرب ، تغمره الأديان التى تخلو من كل قوة أدبية ، فأفرز نفسه ورسالته لتوطيد أركان الأخلاق ـ وكان جوهرها فى عرفه طاعة الوالدين ، والحكام العدول ، والعفة والأمانة والصدق . وهو يفترض أن هذه المدركات كلها ـ أى الخير ـ من طبيعة الإنسان ذاته ـ ولذلك تحاشى التحدث عن الكائنات الروحية والمبررات الدينية على أنه يؤمن بسلطة إلهية وراء كل سلطان بشرى .

بلاد الهند .

والآن لنلق نظرة إلى أديان الهند . وأول ما نلحظه خلو الفلسفات والأديان الهندية من نظرية متكاملة عن الالتزامات الأدبية الأخلاقية ، أوعقيدة منسجمة متآلفة عن حياة الخير والصلاح . وأرفع مستوى دينى بلغته أديان الهند

هو فكرة الولاء والفناء فى ذات إلهية. ولتحقيق هذا الهدف تُغمر نفس الفرد بغبطة تصوفية، أما المستويات الأخلاقية فى الحياة الدنيا فلا عبرة بها نعم، اننا نجد فى تعاليم بوذا نظاماً أدبياً أخلاقياً شديد الصرامة يعلنه للذين يرغبون فى الاستنارة، ولكن السرّ الدفين الذى اكتشفه بوذا ونقله إلى أتباعه هو أن الحياة ذاتها شرٌ لا خير فيها، وأن سبيل الحكمة هو محاولة الافلات من زحمة الحياة بالقضاء على كل الرغبات والميول ـ ليست الرغبات الشريرة وحسب، بل الرغبات جميعها، وبذلك يمكن للنفس البشرية أن تجتنب لعنة الفناء.

من ثمّ نرى البوذية الأصلية لاتقدم لنا عقيدة واضحة عن الحياة الصالحة فى حياة الدنيا، ولا أية فكرة عن افتداء الحياة الإنسانية، ولكنها تقدم لنا فقط طريقاً للفداء والخلاص من الحياة ذاتها، وتدير ظهرها لكل الآمال والأمانى والرغبات التى تتوق إليها النفس.

صحيح أن بوذا وضع عقيدة فى مستوى خفيض للذين تنقصهم الشجاعة للقيام بالمغامرة الكبرى، وعلى مقتضى هذه العقيدة يأملون فى الإرتقاء فى حياة أخرى فى المستقبل. وهذه هى الفكرة الوحيدة التى نقلتّها البلدان الأخرى التى دانت بالبوذية بعيداً عن موطنها الأصلى. ولكنها فى هذا الإجراء قد تنكرت لمبادىء مؤسسها، وأحاطت نفسها بأوضاع من الوثنية والسحر، وباتت ديناً طقسياً جامداً. على أنها قد احتفظت فى الوقت عينه ببعض خواص الهدوء النفسى والرقة والتواضع والتسامح.

وبعبارة إجمالية يمكن القول ان البوذية ــ حسب إعتقاد مؤسسها ــ تعجز عن افتداء الحياة الإنسانية لأنها تحسبها شراً لا برء له. ويذهب كثيرون من العلماء والمفكرين إلى أنه إذا رغبت الهند فى العثور على مبدأ للتجديد الأدبى فلا مناص لها من البحث عن دين آخر أو فلسفة أخرى.

المسيحية .

إن المسيحية — وهى أرفع الأديان وأسماها فى الوحدانية الأخلاقية — تأخذ اليهودية فرشاً تاريخياً لها ، وتؤمن بالله الواحد ، إلهاً شخصياً ، خالداً أزلياً ، الخالق الأوحد لكل العالمين ، الحالّ فى كل مكان ، ولكنه المنزه المتعالى ، الكامل فى جوده وحكمته وقوته ، والرهيب فى قداسته ، والديان العادل لكل الأرواح الحرّة ، الذى يعتنى بكل خلائقه ، ويهدى كل الأشياء صُعُدا إلى نصرة الخير .

على أن هذا الإله الواحد ، الذى لاتدركه افهام الناس فى كال جوهره ، قد أعلن ذاته تدريجياً ، فى مراحل متتابعة ، لضمير الإنسان وعقله، حتى بلغ هذا الإعلان ذروته فى يسوع المسيح ، الإنسان الكامل، الذى هو فى الوقت عينه « صورة الله » .

وإذ نتتبع هذا التطور يبلغ ذروته العليا فى المسيحية ، فإننا نرى — مالا نراه فى أى دين آخر — طموحاً إلى أفضل وأرقى المثل الأخلاقية التى تجد فيها النفس ضالتها . وهذا كله بفضل الفكرة السامية عن الله ، الإله الواحد ، الخالق ، الديان ، الأب ، الذى أعلن ذاته بانبيائه ، وأخبراً بابنه ، موصلاً ذاته للناس بروحه القدوس ، وداعياً اياهم — هنا فى هذه الحياة — إلى صلة به ، وبمقاصده السامية فى الخليقة، وآمراً إياهم فى الوقت عينه أن هذه الحياة المشوبة بالاضطراب والقلق إن هى إلاّ المرحلة الأولى لهذا الاختبار السعيد ، مؤدية إلى مرحلة أبقى تنضج فيها الأنفس ، وتكتمل ملكوت الله ، حيث تجتنى الثمار الشهية ، ويكمل كل شىء فيما وراء هذه الحياة الفانية .

وفى نور هذا الفهم لذات الله ، تجد البشرية فى السعى لتحقيق آمالها وأمانيها الأخلاقية الأدبية تشجيعاً قوياً وترويضاً صارماً ، وتحسّ فى أعماقها

ببشاعة الخطيئة ، وفى الوقت عينه بإحساس الحرية لتتحرك وتعمل وتتقدم ، تتوافر لديها ثروة هائلة من البواعث النبيلة ، ومخزن لاينضب من القوة ، وذلك لأنها ترى أمامها مثلا أعلى ، مجسما ، ومستوى من الحياة رفيعاً ، فى شخص يسوع المسيح . وذلك لأن الحق المطلق ، والخير المطلق ، والجمال المطلق ، وما إلى ذلك من قيم ، تقوى فينا حين نراها مجسمة فى شخص أمامنا . عندئذ تتجرد من معانيها الغامضة المبهمة التى نراهـــا فى الأديان الأخرى والفلسفات السالمية .

بعض المؤلفات التى أصـــــدرها المؤلف

(والتى لم تنفـــد طبعتها)

دراسات فى الكتاب المقدس :

حياة يسوع
الأمثال فى العصر الحديث
كفاح فى البرية
لمحات من التاريخ فى الكتاب
الوصايا العشر فى العصر الحديث
دار الإنجيـــل
المدخل إلى الكتاب المقدس
الحكمة فى العصر الحديث
الروح القدس فى العصر الحديث

الاخلاق الدينية والمشاكل الاجتماعية :

أوراق متناثرة
عظات وعبر

تاريخ الكنيسة :

عشرون قرناً فى موكب التاريخ

سير وتراجم وقصص وروايات وتمثيليات :

سيرة رسول الجهاد
الاثنا عشر
خليل الله فى اليهودية والمسيحية والإسلام
الكأس الفضية
المجهولون فى الكتاب
الزعامة فى الشرق
رسول فوق الأمواج
فى أعمـاق السجون

نماذج من أعلام المشرق
نماذج من سير الأبطال
الشاب الغنى
باراباس
يوسف الرامى
الغرفة الخاوية
فى ملكوتك
مشاهد عابرة من حياة المسيح
آدم وحواء

كتب متنوعة :

أعلام الفكر الأوربى
أعلام الفكر الفرنسى
أديان العالم الكبرى
ماذا بعد الموت؟
لماذا الشرّ والألم ؟
العالم فى ثورة
هنا نيودلهى

سلسلة الكتاب المسيحى :

المسيحية والعلم
الكتاب المقدس اليوم
مَن هو المسيح
رسل المسيح
بولس إلى الغلاطيين

تفاسير الكتاب :

تفسير سفر إرميا
« سفر أعمال الرسل